NO MORE MICE

لا مَزيد مِن الفِئران

وكأنني موسى، لا أبرح حتى أبلغ

أحمد جبريل





لا مزيد من الفئران

الكتاب: لا مزيد من الفئران

المؤلف: أحمد جبريل

فكرة الرواية: داليا بزان

تصميم الغلاف: إسلام مجاهد

تدقيق لغوي: جمال عراق

رقم الإيداع: 2018/25143

الترقيم الدولي: 978-977-778-161-9



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت: 338560372-02

info@noonpublishing.net

أحمد جبريل

لا مزيد من الفئران

رواية



لا أحب أن أنقلَ التشاؤم للناس، ولا أريد أن أكتب روايات تُعطي

شعورًا باليأس لمن يقرأها أو أنَّه يريد الهرب، أريد أن أكتب أعمالًا تقول : إنَّ الحياة تَستحِقُ أن تُعاش ويُمكننا دائمًا البدء من جديد.

أحمد جبريل



إهداء

يقول جلال الدين الرُّومي: «عندما تتخطَّى مرحلةً صعبةً من حياتك، أَكمِل الحياة كناجٍ وليسَ كضحيِّة.» مما يعني أن الإنْسَانُ الذكي يقاوم لعبة الحياة بفهمه وادراكه فضيلة الكروب واشتداد المصائب والصبر عليها؛ و عند الفرج يتيقن بأنه ما كان إلا أشْوس بسبعة أرواح وليس بفريسة لمكائد الحياة. لذا : إهداء إلى كل ناجٍ.

تحت سقْفِ الحياة

أنتويرب - 1998م

كان اليوم يومًا اعتياديًّا من أيَّام مدينة أنتويرب البلجيكية، نهاره طويلٌ وثقيلٌ مثل غيره من أوقات أيام الدراسة الكثيرة. لحسن الحظّ تَنَسَّمت الرِّيحُ الباردة من إحدى النوافذ، حاملةً معها بعضًا من رائِحة الأَرْض الندية، النَّسِيمُ بهوائه المنعش لطَّفَ مِن حالة الجمود التي كُنَّا نُعاني منها أنا وبقيَّة تلاميذ الصَفّ.

أنهى المُعلم حديثَه وهو يدقق النظر في سَاعَة يده الأنيقة قبل أن يغلق دفتر ملاحظاته ويتوجه صوب مِنْضَدَتِهِ الصغيرة المحشورة في زاوية الصَفّ، وشرع بجمعِ أغراضهِ استعدادًا للمُغادرة. شعورٌ بالراحة تفشى بين الطلاب الذين بدأوا يتهامسون فيما بينهم، عبر غشاوة مِن نُعاسٍ وإرهاق وشيءٍ من القلق حدّقتُ للساعة المُعلَّقة على الحائط، كانت ثمَّة ثوانٍ قليلةٌ مُتبقية ويتوقف مؤشِرُها مُعلِنًا تمام الواحدة مُنتصف النهار، تنفّستُ الصعداء بانشراح، ابتسمتُ وبدأتُ أجمع



أغراضي في عَجَلَة مِن أمري، ثم جلستُ مُنتبهًا، عيناي معلقَّةٌ باتجاه الساعة، أنتظر مرور الثواني القليلة المُتبقيَّة وقد أرهقني بشدة أمر الماء المُتكدس داخل المثانة، حتى إنني كدتُ أتبول على نفسي. لم يكن المعلم ليرفض طلبي بالتوجه إلى المرحاض إذا ما فعلتُ، إنمَّا خجلي وقلقي الدائم من السؤال، هما من فعلا.

انقضت الثواني المُتبقية، فدق الجرس الكهربائي مُعلنًا انتهاء اليوم الدراسي، سعادة بالغة اعتلتْ أوجه الطلاب. فُتِحت الأبواب إليكترونيًا، أسرعتْ اثنتان من البنات كانتا تجلسان في مُقدِّمة الصفوف بالجري في اتجاه الباب، بعد أن سمحَ لهما المُعلِم بذلك، كانتا على عجلةٍ مِن أمرهما، رُبَّما رغبتا هُما أيضًا في التوجه إلى المرحاض. أعدادٌ لا تُحصى من الطلاب شرعوا بالتوجه نحو الأروقة الكبيرة المُتصلة ببعضها البعض، سلكتْ جميع البنات الدرج المُخصص لهن على شكل تجمُّعات تترأس كلَّ واحدٍ منها إحدى المُعلمات، كذلك فعل البنون، توجه الجميع إلى ساحةِ الفِنَاء، وكانت الشمس



فوقهُ تحاول شق طريقها في السمّاء المزدحمة بالغيوم السوداء المرسومة بفنٍ وعنايةٍ إلهيةٍ مُذْهِلة والتي تتقاطر منها بعض قطرات المطر القليلة، الحرارة كانت مُنخفضةً بعض الشيء مُقارنة بالأيام القليلة السابقة، ربما انخفضتْ فيما دون الخمس عشرة درجةً مئوية، كانت الأجواء باردة، مُبهجة للغاية.

في خضمِّ الهلع الذي تملّكني خوفًا مِن أن أتبول على نفسي، انطلقتُ نحو المرحاض بأقصى ما أمكنني من سرعة، وما إن فرغتُ من أمره، غادرتُ المدرسة باتجاه المنزل برفقة صديقي الوحيد ڤيني ڤرانس، كُنّا صغيرين، ما نزال في الصف الأول، ولم نكن قد أتممنا السادسة من العمر بعد. سلكنا الشوارع الفرعيَّة عبر الأزقَّة الخلفيَّة للضواحي الشعبية من مدينة أنتويرب، مشينا فيها رغم أنني أكره فعل ذلك بشدة، وكان كرهي هذا لسببين؛ الأول أنَّ الشوارع الخلفية مليئةٌ بالفئران التي أكرهها وأخشاها، حيث إنني أعيش برفقتها في المنزل طيلة الوقت، ليلًا ونهارًا، غير أنَّني مُستاءٌ مِنها بشدَّة، نتيجة عضاتها المُتكررة كلما استسلمتُ للنوم،



أما السبب الثاني فلأنَّني بفعل ذلك أحرمُ نفسي من رؤية صخب المدينة وجمال شوارعها الرئيسية، لكنني كنتُ مرغمًا عليَّ فِعلُ ذلك انصياعًا وتحقيقًا لرغبة أمي السيدة أدولقين، فهي دائمًا ما تُكرر توجيهها الصارم لي بالابتعاد عن الشوارع الرئيسية حيث الزحام الشديد، كما أنَّها تخشى عليَّ مِن أن يستفزني أحدهم مُعايرًا ببشرتي السمراء فأتعارك معهُ، فأنا من الأقليّة السوداء التي تحيا في هذه المدينة.

في ذلك اليوم، وقبل أن نصل إلى المنزل، سألني ڤيني ڤرانس :

- هل زرت أفريقيا من قبل؟

- بالطبع

- كيف هي؟

- تُشبه الجنة

قال وقد بدتْ في عينيه دهشةٌ جعلتْهما لامعتين :



- ماذا يعني ذلك؟

قلت له :

- يمكنك أن ترى جميع الحيوانات في بيئتها الطبيعية داخل الغابات طوال الوقت، والأمطار غالبًا لا تتوقف، الفاكهة متوفرةٌ في كل مكانٍ من الغابة، حتى إن الحيوانات تأكل من الفاكهة أكثر مما يأكل الإنسان.

قال حالمًا متمنيًا :

- أتمنى يومًا ما أن أرى ذلك بعينيّ، عندما أكبر سوف أحصل على كاميرا و أذهب إلى هناك لأصور كل شيء.

* * *

لم يكن بيتنا قصْرًا إنجليزيًا منيفًا وسط المدينة، أو بيتًا ريفيًا فخمًا وواسعًا كما في السهول الهولندية الشاسعة، أو السهول الريفية المُحيطة بأنتويرب، إنَّما كوخًا صغيرًا للغاية، محشورًا في شقٍ وسط زقاقٍ ضيق مليء بالفئران وحشرات الصَراصِير الطائرة



والعيشة الضحلة، يعج بالروائح الكريهة الناتجة عن تلف البنيّةِ التحتية لمواسير المجاري في الشوارع المحيطة، شأنُه شأن باقي البيوت في الضواحي الشعبية، له سطحٌ مصنوعٌ بمزيج من أخشاب السّويد الرخيصة المستوردة من تركيا والتي تعفنت من تكرار تساقط مياه الأمطار عليها، وبعضٍ من ألواحِ الصَّفِيحِ القديمة المُتهالكة للغاية والمليئة بالثقوب الناتجة من الصّدأ والتآكُل الذي اعتراها نتيجة التأكسُد، يتكون المنزل من غرفتي نوم ضيقتين، صغيرتي المساحة، أمامهما رواقٌ صغير هو الآخر، ضيقٌ للغاية، إحدى هاتين الغرفتين يقطن فيها والديَّ روجر وأدولقين. روجر رجلٌ ثلاثيني بترولي البشرة، له جسدٌ رياضيٌّ قويٌّ مفتول العضلات، ذو ملامحَ بشوشةٍ، لا تفارق وجهه الابتسامة، وزوجته أدولقين هي الأخرى امرأةٌ ثلاثينية، ريّانة الجسد، لها عينان بُنيّتان واسعتان، تكادان تُضيئان من شدة اللمعان. وهما يقطنان في تلك الغرفة مُذ غادرا مدينة كينشاسا عاصمة الكونغو الديمقراطية مُهاجرين إلى هُنا، والغرفة الأخرى أتشاركها مع جوردان شقيقي الذي يصغرني بما يقرب



السنتين، أمَّا الرواق فمساحته تقريبًا متران بالطول في عرض مترٍ ونصف المتر، في بدايته من الشَمال يوجد تلفازٌ صغير موضوع على منضدةٍ قديمة وصغيرة، مثبَّتةٍ على قوائم أربع، إحداها مثلومة جعلتها ضعيفةً تكاد تحملهُ، أمامه مساحة ضيقة لا توجد فيها أرائك، فَقَط بساطٌ صغيرٌ منسُوجٌ من البلاستيك، مُتهالك في حالةٍ سيئة، من قدمهِ أصبح باليًا مُهْتَرِئًا، فيما سبق كانت هناك عدة أرائكَ، تخلَّينا عنها نتيجة ضائقةٍ مالية، في نهاية الرواق من الجنوب توجد ثلاجة صغيرة، قديمة، شأنها شأن السقف، تآكلت هي الأخرى من الأسفل نتيجة الصَّدَأ الذي تمكن منها، وسط الحائط الشرقي يوجد باب المنزل، يواجههُ في الحائط الغربي بابان متجاوران هما بابا غرفتي النوم، كُنا قد اتخذنا من الرواق مكانًا للمعيشة طيلة النهار، كذلك توجد غرفتان أخريان في الجنوب من المنزل، لا أعرف إن كان صحيحًا إذا أطلقتُ عليهما غرفتين أو كيف أصفهما، فهما أضيق كثيرًا من أن تُسميا غرفتين، تفصلُ بين بابيهما الثلاجة القديمة، واحدةٌ منهما وهي التي تتواجد جهَّة الغرب من الثلاجة، عبارةٌ عن



مرحاضٍ صغير المساحة للغاية تكاد تكون مساحته أقل من مترٍ ونصف المتر في الطول وعرضٍ يقل عن المتر، له بابٌ مصنوع من الخشب الرخيص، وهو مُجهز بأقل الأشياء أو في الحقيقة هو غير مُجهزٍ بأي شيءٍ مقارنة بأي مرحاضٍ آخر، في الآخر توجد غرفةُ طبخٍ وهي التي تتواجد جهةَ الشرق من الثلاجة، وهي دونَ بابٍ، غرفة مفتوحة تطل مباشرةً على الرواق، مساحتها تقل عن المتر ونصف أيضًا في الطول والعرض ربما يزيد عن المتر بعدة سنتيمترات قليلة، وهي تعج بالفئران التي يمكن رؤيتها تتسلل ذهابًا وإيابًا من فتحات السقف كما في باقي المنزل.

كانت أدولفين تتحرك وسط الرواق تُداعب چوردان وهي تعمل في تنظيف المكان، عندما دلفتُ من الباب الذي كان مواربًا كالعادة، ابتسمتْ فور رؤيتي، استقبلتني بحفاوةٍ شديدةٍ اعتدتُ عليها. قبّلتْ رأسي ويديَّ قبل أن تحتضنني، وفي كل مرةٍ كانت تفعلُ ذلك أشعرأنني عائدٌ من غُربةٍ لا من بضع ساعات قضيتُها في الصف المدرسي. لم تكن مجرد امرأة عادية، كانت



بارعة في إخفاء الأشياء السيئة، حين تكرهُ شيئًا، لا يمكن أن يظهر ذلك في نبرة صوتها، وعندما تُحب يظهر ذلك في عيِنيهَا، كما أنّ لديها مهارةً خاصةً، بمُجرد أن تضحك، ينمُو في داخل من يرى ضحكتها أملٌ جديدٌ، وكأن ضحكتَها خُلقتْ لتُلغي كل الاحتمالات السيّئة في العالم. كان كل ذلك بالرَّغم مِن أنَّها تعيش حياةً صعبة، وما ساعدها في ذلك أنَّها لم تكُن مُبالية بما يحدُث لها، راضيّةً تمامًا، حتى إنَّها كانت تعُد المكرونة وهي ترقص، وتُغلق باب الثلاجة بمؤخرتها وهي تُغني.

على عجلةٍ من أمري، طلبتُ الطعام، كنتُ أتوقُ بشدة لتناول شيءٍ يسد جوعي، وكما هي العادة في الأيَّام الأخيرة، أعرف مُسبقًا بأنَّهُ لا يوجد سوى الخبز المنفوش واللبن سوف يوضعان على المائدة، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي نستطيع تحمل تكاليفه، إذْ أنَّه أرخص ما يمكن الحصول عليهِ في أنتويرب، نظرًا لأنها مدينة مُحاطة بمنطقةٍ سَهْليّةٍ واسعة، يعتمد اقتصادها على الزراعة وتربية الحيوان في المناطق الغربية



وعلى استغلال موارد الثروة الغابية، لذلك يتوافر اللبن، وذلك يجعل مِنْهُ سِلعةً رخيصةً سهلةَ المنال.

عندما تأخرتْ أدولفين في تجهيز الطعام، ظننتُها انشغلتْ مع چوردان، فأعدتُ سؤالها مرَّةً أخرى :

- أدولفين .. أين الطعام؟

لم يكن باستطاعتي التحمل أكثر من ذلك، كنتُ أتَضَوَّرُ جوعًا. نظرتْ إليَّ وقد امتُقِع وَجهُها عندما بدأتُ في استعجالها، ولم أفهم السبب في ذلك، أو في حقيقة الأمر لم تُتِحْ لي فرصة المعرفة، فقد حرمتْني من فرصة تأمل وجهها أو الحصول على إجابة، حيث إنَّها ما إن سمعتْ السؤال التفتتْ إلى چوردان الذي كان يقف أسفل قدميها مُتشبثًا بملابسها، رفعتْه عن الأرض، وخطتْ بِهِ في اتجاه الثلاجة مُباشرةً، ثم أعادت وضعه أرضًا قبل أن تفتح باب الثلاجة وتبدأ في إعداد وجبة اللبن والخبز.



تحركتْ يمينًا ويسارًا في توتر، أحضرتْ كوبًا من خزانة أدوات الطبخ، قامت بشطفهِ جيدًا بالماء ثم ملأتْه بقليلٍ مِنهُ وهي تلتفتُ إليّ في حذرٍ بدث على أثره وكأنها تسترق النظر، كنتُ أراقبها، وعندما تلاقث أعيننا ابتسمتْ إبتسامةً مُصطنعةً أعرفها جيدًا، إذْ أنَّها ترتسم على وجهها كلما قابلتها الصعوبات الشديدة في محاولةٍ منها لتهوين الأمر علينا.

جلستُ على الأرض بجسدي الضئيل، أحاول خلع الحذاء الذي كان قديمًا للغاية، مليئًا بالثقوب في كل جانبٍ مِنهُ، بينما وقفتْ أدولفين وجهها أمام الثلاجة مُباشرة بزاوية تجعل رؤية ما تفعلهُ مُستحيلًا، بينما چوردان كان ما يزال يهرول أسفل قدميها، لكنها لم تنتبه إليهِ قط، فبدا لي أنها مشغولة للغاية فيما تفعله، كانت تفعلُ شيئًا ما لا تريدني أن أراه أو أعرف عنه، ظننتُ للحظة أنها قد أحضرتْ طعامًا جديدًا سوف تخلطه مع اللبن، أو سيكون أكلة أخرى إلى جواره، وأمَّلتُ أن يكون شيئًا جديدًا سأتذوقه أخيرًا لأول مرة.

تساءلتُ في حيرة:

- لماذا تُخفي عني ما تصنعهُ؟

وأجبتُ في حماسٍ شديدٍ وبسرعة:

- رُبمّا أرادت أن تصنعَ لي مُفاجأةً سارة

والحقيقة لم تكن كذلك قط، الحقيقة كانت مُؤلمة.

انتهيتُ من خلع الحذاء اللعين، كان ضيقًا للغاية، كما أنَّ كثرة الثقوب فيهِ تُدخل الحصى والرمال أسفل قدميَّ فتجعلهُما تؤلماني بشدة قبل أن تتورَّما فتؤلماني أكثر. ألقيتُ بهِ بقوة شديدة وغضبٍ إلى الزاوية، ارتطم بالحائط، تمنيتُ لو أنني لا أراه مُجدَّدًا أبدًا، لكنني بسرعة تساءلتُ:

- ماذا سوف أنتعلُ لو فقدتُه؟

لم يكن هُناك ثمَّة شيءٌ بديلٌ يُمكن انتعاله، كما أنَّ شِراءَ حذاءٍ جديدٍ أمرٌ يُعد صعبًا للغاية. أدركتُ لحظتها



أن الأشياء التي لا نستطيع الحصول على بدائلَ لها هي أشياءٌ باهظة الثمن وإنْ كانت رخيصة، فقيمةُ الشيء ليست في ثمنهِ المادي، إنّما في إمكانية القدرة على تعويضه. لذا تداركتُ الأمر سريعًا وحبوتُ باتجاهه، رفعتُه عن الأرض، كنتُ على وشك أن أحتضنهُ وربما أيضًا أعتذر له، لكنَّ تصاعد بُكاء چوردان أسفل قدمي أدولفين مع عدم اكتراثها إليهِ لفتَ انتباهي مُجدّدًا.

برفقٍ ولطفٍ شديدين وضعتُ الحذاء الجميل على الأرض، ثم تحركتُ صوب أمي، اقتربتُ كثيرًا منها، وفزعتْ بشدة عندما شعرتْ بي بقربها، كانت تفعلُ شيئًا ما بحرصٍ شديدٍ غير اعتيادي وهي ما تزال مُمسكةً بكأس اللبن، نظرتْ إليَّ وقد اعترتها حالة من التوتر الشديد مع القلق البادي تمامًا في ملامحها، ولم تنبِس بكلمةٍ واحدةٍ، فقط كررتْ ابتسامتها المصطنعة، ثم خَطتْ بضع خطوات في الرواق، قبل أن تضع الكَأسَ بحرصٍ شديدٍ على المِنْضدةِ الصغيرة الوحيدة التي نملكها بخلاف تلك التي تحمل التلفاز، كان

حرصها عند وضع الكأس نابعًا من خوفها أن تسقط المِنْضَدة فإحدى القوائم التي تحملها شأنها شأن شقيقتها، مثلومة هي الأخري مُنذ فترة ولم نقُم بإصلاحها حتى اللحظة.

بينما تخطو نحو المِنضدة كانت تقوم بهندمة ملابسها من الأعلى، تغطي صدرها جيدًا، وقد تصبَّبَ وَجْهُها عَرَقاً، أمرٌ غريب دفعني للظن والتساؤل:

- ما الذي كانت تفعله أدولقين؟

هل كانت تخلط الماء باللبن لأننا لم نعد نستطيع تحمل تكلفته هو أيضًا؟ أو .. أو .. أو أنها كانت تضيفُ للكأس بعضًا من لبن تدييها؟

كنتُ صغيرًا، يُهيّءُ لي عقلي بعض التخيلات المجنونة، مشيتُ إليها، التففتُ من حولها في محاولةٍ مني أن أنظر مُتفحصًا في وجهها، لكنها تهربتْ من النظر في عينيّ، على الرَّغم من ذلك سعيتُ مُتعمدًا أن أنظرَ في عينيها.



ما إن وقعتْ عيناي في عينيها صُعقتُ، وجدتُهما مليئتين عن آخرهما بالدموع التي ترقرقتْ كالسيل العارم منهما حتى مرَّت فوق خديها هابطةً إلى رقبتها وصولًا إلى صدرها الناهض. وقفتُ أمامها مذهولًا تمامًا، لا أعرف ما الذي عليَّ فِعله أو قولهُ! تساءلتُ :

- يا إلهي .. مِن أين أتت كُل هذه الدموع بسرعة؟

ران بيننا صمتٌ قصير، شاع معهُ الصمت في كل مكانٍ مليًّا لبرهةٍ وجيزةٍ، إذ لم يعرفْ أحدٌ مِنَّا ماذا يقول للآخر، كانت لحظةً حزينة وثقيلة للغاية على نفسي، شعرتُ فيها بشيءٍ مقيت، شديد المرارة، ينمو في داخلي كشجرة صبارٍ عملاقة، مليئة بالأشواك، تنغز في روحي وتلوث دمي.

تأكدتُ يومها أنَّ والدتي إمّا تخلط اللبن بالماء وهذا أمرٌ تفعلهُ مغصوبة، إذ أنها لا تملك حلًا بديلًا، أو أنَّها تزود اللبن من تدييها حتى يستمر معنا مُدَّةً أطول، وهذا شيءٌ سيءٌ للغاية، إذْ إنَّها بذلك تُضحي بصحتها لأجلنا. كان ما نملكه لم يعد كافيًا لتغطية تكاليف اللبن



حتى نهاية الشهر، بيد أنها تعرفُ ظروف زوجها الصعبة ومحاولاته المُستَميتة لمواجهة الفقر الذي يضربنا بلا أدنى شفقة، لذا ولأجل ألّا تُثقِلَ عليهِ أصبح لزامًا عليها أن تفعل ما تفعله لنكمل الشهر.

* * *

جلستُ وإيّاها مُعرضين عن بعضنا البعض إلى أن لقيَ النهار حتفهُ، كنا نتحاشى تلاقي أعيننا، كأن أحدًا مِنّا كسر خاطر الآخر أو كشف منه مستورًا خدش حياءهُ، لكن عن أي بُعدٍ وتحاشٍ نتحدث؟ المنزل بأكمله ساحةُ نملة، إنَّه ضيقٌ ليس علينا فقط بل حتى على الفئران اللعينة التي تتشاركهُ معنا.

في مساء اليوم نفسِه، جلستُ على الأرض، بمواجهة التلفاز أشاهد قناةً محلية تبث مباريات كرة قدم مُسجلة بدوري الأبطال، أتسلى بمشاهدتها مُنتظرًا عودة روجر، كنتُ بانتظاره وقد عزمتُ على إخباره بما حدث، بجانب سؤالِهِ : كيف له أن يتركنا هكذا فريسةً سهلة للفقر يعذبنا دون أن يفعل شيئًا؟



عاد من الخارج، مُرتديًا القميص الرسمي لمنتخب بلجيكا، رغم أنه يلعب لأحد الأندية الصغيرة، ويعتزُّ جدًا باللعب في هذا النادي، إلَّا أنَّهُ ما إن ينتهي من تدريباته اليومية يهرول سريعًا ليرتدي قميص المنتخب. إذْ أنَّهُ منذ انتقاله من الكونغو إلى أنتويرب وحصوله على الجنسية يراودهُ حلمٌ واحد، ألا وهو اللعب للمنتخب البلجيكي في يومٍ ما. وكان في المساء مِن كل ليلة، يخرج ليلتقي بأصدقائه في مقهى الضواحي، يتجمعون، ويبدأ كلٌ منهم في سرد أحداث يومه وما حققهُ فيهِ من نجاحاتٍ وإخفاقات وما ينتوي تحقيقهُ مُستقبلًا، ولم يترك روجر يومًا يمرُّ عليهِ إلَّا وأخبرهم فيهِ عن حماسه تجاه اللعب للمنتخب، وحلمه لو يستطيع أن يثبتَ نفسه فينتقل من هذا النادي الصغير الذي يلعب لهُ إلى نادٍ أعلى شأنًا وعظيمٍ مثل أندرلخت أو جنت، يستطيعُ من خلاله أن يجذب أنظار الأندية العريقة في أوروبا، فيحترف خارج البلاد، ثم يفرض نفسه بموهبته الفَذَّةِ ولعبه الاحترافي على الجهاز الفني لمنتخب بلاده، فيعود ليلعب ضمن صفوفه.



ما إن دلف من الباب، وضع حقيبته الصغيرة والقديمة على الأرض، أسندها إلى الحائط خلف الباب مُباشرة، صوبتُ عيني في اتجاه أدولقين وقد تملكتني رغبةٌ شديدة في مُشاهدة ردَّة فعلها، وجدتُها وقد صوبت هي الأخرى عينيها على الحقيبة التي أنزلها زوجها على الأرض، وبنظرةٍ متفحصةٍ استطاعت اكتشاف أنَّها لا تحوي شيئًا ذا أهمية على غير العادة، فقط ملابسهُ التي يأخذها معه كل يوم. لا طعام، لا نقود، لا شيء يمكن أن يُعتمد عليه أو ينقذنا من موجات البؤس العاتية التي تضربنا مع نهاية كل شهر.

وقعتْ عيناها في عينيّ، وعلمتْ أنَّني أتابع نظراتها، فشردتْ ببصرها بعيدًا وقد إرتدَّتْ خائبة، بينما حاول روجر خلق حالةٍ من المرح عند دخوله فصاح مُتصنعًا البهجة :

- أحرزتُ (هاتريك) ثلاثة أهدافٍ مُتتالية اليوم، نعم .. ثلاثة أهدافٍ مُتتالية رائعة. و كان ال ....



قاطعته أدولفين مُتهكمةً بصوتٍ مُختنقٍ بالدموع، وبدون أن تنظر إليه، قالت :

- ليتك أحرزتَ قليلًا من الطعام، أو المال

شحُب وجهه ولم يستطع إعطاء ردٍ، كانت لهجة أدولفين وحديثُها قاسيين عليهِ. دنا مني حيث أجلس، جلس إلى جواري، كانت ثمَّة مجموعة من الفئران قد بدأتْ تهرول في المكان إثر سماع صوته العالي، كنتُ أترقبها خائفًا أن يسقط أحدها من السقف عليَّ، فيقتحم ملابسي ويقوم بعضي، إنَّهُ لأمر مرعب أن تعيش مع هذه الكائنات وأنت تكرهها. قبل أن يهدأ انشغالي بالفئران باغتني سائلًا في حماسٍ شديدٍ في محاولةٍ مِنهُ للتهرب من سؤال أدولفين، قال:

- لمن هذه المباراة؟ من يلعب؟

التفتُّ إليهِ وقد نسيتُ أمر الفئران، سألته بصوتٍ مُتهدجٍ منخفضٍ للغاية، تطلَّب مِنه خفض رأسه كي يتمكن من سماعه:



- لماذا نحن فقراء؟ ولماذا لا تفعل شيئًا ما؟

لم يعطني جوابًا، اكتفى بإحناءِ رأسهِ ينظر إلى الأرض في قلة حيلة بدتْ واضحة تمامًا على وجهه.

عَشِقَ روجر كرة القدم مُذ كان صغيرًا يعيش في الكونغو، لكنه أبدًا لم يجد أحلامه هُناك، حتى عندما لعب للمنتخب الكونغولي في تصفيات كأس العالم وتصفيات أمم أفريقيا لم يستطع أن يفعل شيئًا، أو في حقيقة الأمر ربما الظروف لم تكُن تُتيح له فعل أكثر مما فعله. بعد زواجه من أدولفين حاولتْ جاهدةً أن تدفعه نحو التفوق، وما إنْ يأستْ من حدوث ذلك في الكونغو، غيرتْ خططها، وخططتْ معه للهجرة من الكونغو إلى بلجيكا، على أمل أن يُصبح لاعبًا مُحترفًا في الدوري البلجيكي، وقد فعلاها، ونجح روجر في ذلك، حيث إنَّه لعب لعدة أندية مُختلفة في الدوري المحلي، منها (كي في أوستند) و(كي في ميشلين) وكذلك نادي (جيرمينال إكيرن)، لكنه قط لم ينتقل بعدها إلى نادٍ كبير الشأن قادر على إحراز البطولات



وتغيير حياته للأفضل مثل (جنت) أو (أندرلخت) أو حتى نادي (كلوب بروج).

فشل روجر لأنَّه لم يمشِ حسب القاعدة الأولى للنجاح في حياة كل شخص، القاعدة التي تقول: «عليك بالصبر والجلد والسعي بحماسٍ في كل مرة تخطو فيها نحو النجاح». فشل لأنَّه لم يسعَ صوب الاستقرار في كل يوم وكأنَّه آخر يوم له في الحياة. لذا فإنَّ الحياة سرقته، أو بالأصح لم يُجِدْ اختيار الطريق الصحيح، أهمل في حرصه على ما يملكه فأضاعه، لذلك هو لم يكن غنيًا، لم يكن ينظر لنفسه على أنَّهُ شخصٌ عظيم، لم يؤمن بقدراته، كان يحلم دون أن يسعى، والأحلام لا تتحقق فقط بالأحلام إنما بالسعي أكثر وبجدية لتحقيقها، كل إنسان مِنَّا لديه طريقة في النظر لنفسه، وطريقة للنظر للناس، وطريقة للنظر تجاه الحياة والمستقبل، وهو نظر دائمًا لنفسه على أنه قادم من أفريقيا، إذن هو أقل شأنًا من غيره هنا، ونظر للناس على أنهم سوف يساعدونه، وللمستقبل على أنه سوف يأتي إليه، لم يكن يعلم أن النجاح أو الفشل،



الخلل أو التوازن، تكمن كلها في كيفية تناول تلك العناصر الثلاث، فإذا أجدتَ استخدامها ارتقيتَ، وإذا لم تفعلْ هزمتك الحياة.

روجر وصل نهايةَ مسيرته الكروية وقد نفدتْ أمواله، ولا يوجد لديه أحدٌ يُساعده، لقد أضاع في النصف الأول من عمره كل شيء، ولم يعد باستطاعته فعل شيءٍ سوى المُشاهدة في صمت.

هزم صمته، وقال على نحوٍ مُتردد:

- لم يعد لديّ شيءٌ أفعله، حتى اللعب لم أعدْ أجيده كما كنتُ قبل سنوات، المراحل العمرية لها قدرات وحدود مختلفة، أعتقد أنهم في الطريق للتخلي عن خدماتي، في الحقيقة إنَّ الحياة متوقفة تمامًا، أنا لا أفعل شيئًا، أشعر بالعجز ولا أستطيعُ التقدم للأمام.

توقف عن الحديث، وتراجع خطوةً واحدةً إلى الوراء من فوره، كأنَّه كشف من المستور أكثرَ ممَّا كان ينوي

كشفَه، ثم أردف قائلًا بصوتٍ مُختنقٍ بالدموع وهو يحني رأسه للأسفل:

- أنا آسفٌ للغاية

نظرتُ إليه بشفقة، وأخبرتُه بصوتٍ مُتَهَدِّجٍ بدا فيهِ الضعف والارتعاش :

- رأيتُ .. أمي .. تخلط اللبن .. بالم..ا..ء

استغرب ما أقوله، بينما التفتتْ أدولقين إليَّ مصعوقةً، فشعرتُ أن شيئًا ما خاطئًا قد حدث.

قال وهو ينظر إليها :

- لكن .. لا يوجد ماءٌ صالحٌ للشرب في المنزل، لقد طلبتي أن أشتري الماء لدى عودتي، ولم أستطع الشراء فقمتُ بملء زجاجتين من الجيران وهما موجودتان داخل الحقيبة برفقة الملابس.



حالةٌ من الحزن الشديد بدت ظاهرةً في ملامح أدولڤين التي هربتْ بعينيها تنظر بدورها هي الأخرى إلى الأرض، لقد كُشف سرها، طأطأ روجر رأسهُ خجلًا من نفسهِ، شعر في داخله أن الهوّة بينهما أصبحت عميقة، أن فجوةً كبيرةً وعميقةً خُلقتْ بينهما ويتعذر عليهِ ردمها، في نفسه أيقن أنَّه خذلها فهي لم تأتِ من الكونغو، البيئة الفقيرة التي تحدَّرتْ منها، إلى بلجيكا، البيئة التي تطمح أنْ تستقر وتنعم بحياة جيدة فيها كما وعدها، كي تضحي بنفسها هكذا.

نظرتُ إليهما وقد امتلأتْ عينايَ بالدموع، شعرتُ لحظتها بقلة حيلته وضعفه، شعرتُ كذلك أنني أرى الرب مُتمثلًا لي في هيئة أدولڤين، إنها تجوع وتتألم وتُستهلك فيما بيننا، وفي النهاية تضحي بجزءٍ مِنها لنا، قلتُ مُتسائلًا:

- ما يزالُ ثديُها يحن على ثلاثتنا بلا استثناء، ثلاثتنا يشربُ من نفس اللبن كل يوم، واللبن يستمر متواجدًا فترة أطول من المعتاد دون نقصٍ فيهِ



اخترتُ أن أصدق الجنون، لم يُخيَّلُ لي أنها قد تكون استخدمتْ ماءً غير صالح للشرب وزودتْ بهِ اللبن.

لمعت عينا روجربالدموع بعد أن شعر بالهوان، دخل في موجة حزن حادة وشديدة، وكان ذلك آخر شيءٍ فعله قبل أن ينهض من مكانه ويحمل التلفاز ثم يخرج بهِ مُغادرًا المنزل.

بعينين مبللتين بالدموع، مشى في الأزقة الضيقة، مرَّ عبرها إلى الشوارع الخلفية، ثم توجه إلى واحدٍ من الشوارع الرئيسية وكان يعرف فيها واحدًا مِن التجار الذين يشترون كل شيءٍ ويبيعون كل شيء، دلف من باب المتجر، وكان بهِ القليل من الناس، تقدم ببطءٍ شديد يجر قدميهِ جرًا خشية أن يسقط التلفاز، سأله الرجل الواقف أمامه وكان يعمل في المتجر:

- كيف نخدمك؟

ثم أضاف مُستفسرًا وهو ينظر إلى التلفاز:

- أترغب في إصلاحه أم في بيعه؟



غمغم رجلٌ آخر قصيرٌ وسمين كان يقف بالقرب من الرجل الأول دون أن يرفع رأسه وينظر إلى روجر:

- توقفنا عن شراء أجهزة التلفاز القديمة، هذا إن كنتَ ترغب في البيع

مع انتهاء حديث الرجل القصير، غمغم روجر بصوتٍ مُتهدجٍ:

- لا .. أرجوك، أرجوك .. أحتاج للمال بشدة

خرج مِن المتجر وقد حصل في يدهِ على حفنةٍ قليلةٍ من المال، ربما هي كثيرةٌ بالنسبة لحالتنا البائسة في مثل هذا التوقيت، لكن مهما كان تقييمها سواءً كثيرًا أو قليلًا فهو لا يعوض أو يُمحي كوننا فقدنا التلفاز ليلتها، وهذا يعني أنَّهُ لا مزيد من كرة القدم بعد الآن، لقد حرمتُ من أكثر الأشياء التي أعشقها الآن وأنا في سن السادسة، وهذا أمرٌ مُحزنٌ ومُخيبٌ للآمال للغاية.

* * *



لأول مرَّة مُنذ فترةٍ ليست بقصيرة أتيحت على المائدة أنواعٌ من المأكولات الشَهِيَّة، قدمتْ أدولفين أرزيَّة الفطر مع المعكرونة، بجانب لحم الضأن المشويّ بالتوابل العادية، بجوار قطع دجاج الفيليه، وبعضٍ من سلطات الخضار، كما جيء بالحلويات، قالب حلوى بالقشدة الصناعية والبيض المخفوق، بعض كريم الكراميل والآيس كريم، مأكولات لذيذة لم أرها منذ فترة، حتى إنني نسيتُ طعم تذوقها ورائحتها.

كنت و روجر نأكل بنهمٍ صاحبتْه حالةٌ من الفرحة باديةٌ تمامًا على وجوهنا مع السعادة، على العكس مِن أدولفين، أكتفت بإطعام چوردان والحصول على بعض اللقيمات القليلة لنفسها، بدا عليها الحزن أكثر مما كانت عليهِ طيلة اليوم، كانت في مكنون نفسها تعلم أن ما حدث ليس حلًا مثاليًا، إنما هو حلٌّ مؤقت، كالأدوية المسكنة، لا تُعالج مريضًا، إنما تُهدئ له الألم مؤقتًا. فقريبًا تنفد أموال التلفاز، ويعود كل شيء لسابق عهده. بجانب أنها رأت أن روجر مبذرٌ للغاية، قام



باستهلاك أكبر قدر ممكن من الأموال التي حصل عليها في شراء كل هذا الطعام مرة واحدة.

جاءت الجارة، الأم چيني والدة ڤيني ڤرانس، ودقت الباب، كان الجد يتصل عليها من كينشاسا - الكونغو، فتأتي بهاتفها إلينا، إذْ لم يكن لدينا هاتف. تناولت أدولڤين الهاتف وتحدثت مباشرةً إلى والدها بعد أنْ بدلتْ نبرة صوتها المكسورة بأخرى مُفعمةٍ بالحياة والسعادة، تحدَّثتْ إليهِ لعدة دقائق، وكان باديًا أنَّه يسألها عن حالها وحال المعيشة في أنتويرب، إن كانت تشعر بالسعادة مع روجر زوجها أو لا، أسئلة اعتاد تكرارها عليها في كل مرةٍ يتصل بها على مدار سنواتٍ طوال، وجاءت جميع إجاباتها عكس ما نحنُ عليهِ، حاولتْ خفض صوتها قدر المستطاع كي لا أسمعها تكذب، لكن كما قلتُ مُسبقًا، بيتنا بالكامل ساحة نملة، يمكن أن يُسمعَ فيهِ أكثر الأصوات انخفاضًا.

ظلَّتْ تُلقي بالثناء على روجر، كيف يجعلها تعيش في رغد، وكيف أنها تحيا في سعادةٍ غامرةٍ ليس لها آخر، استرسلتْ في الحديث عن المتاجر والأماكن السياحية



التي تزورها دوريًا في أنتويرب، والمال الوفير الذي يجنيه زوجها من لعب كرة القدم هنا، وكيف أنهُ يصطحبها معه في كل مُباراة لأنه يتفاءل بوجودها في المدرجات إلى جانبه.

كانت امرأةً أصيلة، نقيةَ الدم، وفيةً لزوجها، تُجيد إخفاء أسرار منزلها حتى عن أقرب أفراد عائلتها، لم تكن تظهر إلَّا جَيدها، صابرةً على معيشة زوجها الصعبة، راضية تمامًا به، كانت امرأةً بقبيلة، لم تأتِ من أفريقيا بشخصها فقط إنما بالأصالة والعراقة وقوة التحمل، إنها أقوى من صخور جبل إفرست ولها عزيمة وصبر في تحمل الصعاب أطول منه.

* * *

بعد أسابيع، في صباح أحد الأيَّام، تخلَّت إدارة النادي عن خدمات روجر كما توقع، دون أن تترك لهُ فرصة العمل في أي شيءٍ آخر، لأسابيع ظلَّ يتجول بين الأندية والشوارع بحثًا عن عمل، دون جدوى، فلم يستطع الحصول على عملٍ في أيّ مكان، عندها لم



تتوقف الأمور عند بيع التلفاز فقط، بدأنا في بيع أشياء أخرى قطعةً تلو قطعةٍ ولم يتبقَ لدينا شيء، حتى إننا بعنا السخان الكهربائي، أصبحتُ أذهب للحمام فلا أجد ماءً ساخنًا، كانت أدولفين تضع الماء في الغلاية حتى يسخن ثم تسكبه على رأسي، بعد ذلك ساءت الأمور أكثر، قُطعتْ عنا الكهرباء بسبب توقفنا عن دفع الفواتير، انقطعتْ لفتراتٍ ليست قصيرة كانت تصل لأسبوعين وأحيانًا أكثر. بينما روجر يهرول في كل مكان بحثًا عن عمل، لم يتهاون في الأمر، لم يتَوانَ بل عمل أكثر مِمَّا باستطاعتهِ لأجلنا.

لم يبقَ لدينا طعامٌ أو ماءٌ صالح للشرب، نفد كل شيءٍ لدينا، عند كل صباح يأتي صديقي الوحيد ڤيني ڤرانس ووالدتُه، يتشاركان معنا بعضًا من طعامهم، يجلس ڤرانس إلى جواري طوال اليوم نلعبُ سويًا، وتجلس الأم چيني بمرافقة والدتي، تحاول تهوين الأيَّام الثقيلة عليها.

في ظلّ صعوبة الظروف الجديدة، اضطرتْ أدولفين أن تلجأ لمحاولة اقتراض الخبز من المخبز لأننا لم نعُد



نملك ما ندفعه، كنتُ أمشي برفقتها وهي تحمل چوردان على كتفها في زقاقٍ ضيقٍ خلف المنزل عندما مررنا على مخبزٍ محشورٍ في شقٍ وسط الضواحي الشعبية، كانت تعرفُ أحدهم معرفةً سطحية، رجلًا قصيرًا وسمينًا له ملامحُ غاضبةٌ حتى وإنْ ابتسم، ظنَّت فيهِ خيرًا فطلبتْ منه قليلًا من الخبز على أن تسدد ثمنه آجلًا وقتما تستطيع، بيد أنه لم يكن شخصًا صالحًا، لم يكن ظنها فيهِ في محلّه، نظر إليها نظرةً فاحصةً للحظة قصيرة بعينيه السوداوين الغائرتين في وجهه المكسوّ بلحية قبيحة المنظر، أراد أن يستغل حاجتها له ووارَبَ حديثهُ معها، خفضتْ بصرها، اضطرتْ أن تتصنع الغباء وأبدتْ أنها لا تفهمه، تحملتْ دونيّتهُ في سبيل أن تحصل على عدد من الأرغفة، فقد كُنَّا نتضور جوعًا، لكنَّ ذلك لم يثنِه عن خسته، بل جعله يتجرأ أكثر فأكثر حتى تخلى عن حذره، تكلَّم بجرأةٍ شديدةٍ دون مُوَاربة، كانت وقاحة الرجل كصفعةٍ مفاجئةٍ تلقتها أدولڤين على وجهها دون حذر، لم تستطع أدولڤين أن تتحملها أو تُسِرَّها في نفسها، لم



تحتمل دونيَّته أكثر، غضبتْ وأخبرتْه دون مواربة بجرأة تعمَّدتْ أن تُظهرها له:

- إنَّك كائنٌ حقير، لستَ رجلًا على الإطلاق، فمن يستغل حاجة امرأةٍ له ليس أكثر من سافلٍ لعين

كان هناك رجلٌ هولنديٌ كهل طويل القامة، عريض المنكبين، يضع على رأسه قبعةً سوداء تتوسطها رسمة نسر صغيرة، كان قادمًا نحونا من خلف الرجل الخسيس دون أن يراه. قال الخسيس بصوتٍ منخفضٍ خشية أن يسمعه أحدٌ وقد تجرأ في الحديث ظنًا أن أحدًا لم يسمعه بالفعل:

- هذا الحقير بإمكانه انتشالك وأطفالك من الجوع والحياة وسط كومة الفئران التي تعيشين فيها، فقط إنْ ....

ردت أدولفين ردًّا قطعيًا صارمًا، قالت:

- زوجتك تفعلُ ذلك أمَّا أنا فلا



استشاط الرجل غضبًا، وكان الرجل الهولندي قد وصل خلفه مُباشرة، ووقف يترقب ما يحدث في صمتٍ، لكن الرجل الخسيس لم ينتبه إلى وجوده وهو يرد قائلًا:

- عبدةٌ سوداءٌ وحقيرة، يمكنني فعل ذلك معكِ مرغمة وسط كومة الفئران التي تعيشين فيها أيتها القذرة

- هذه السوداء لديها أسنانٌ حادة أشدُ من أسنان الفئران التي تعايرها بها، سوف تأكل كبدك إن فكرتَ يومًا ما أن تعيد النظر إليها مرَّة واحدة

توترتْ الأجواء، حاول الخباز رفع يده ولطم أدولفين، تراجعتْ من فورها خطوةً للوراء، ربما خائفة، وقبل أن تنزل يد الخباز، فوجئ بيد الكهل الهولندي وقد قبضتْ على معصمه من الخلف، كان كهلًا، لكنه مَلَك قبضةَ يدٍ قويةً للغاية، وبدا ذلك واضحًا عندما لطم وجه الخباز الخسيس بقبضة يده الأخرى فتناثرتْ الدماء من شفتيه وأنفهِ على الفور، ثم تحدث الرجل الكبير بلهجةٍ هولنديَّة قوية، مُتلفِّظًا كلَّ كلمة بعنفٍ وعلى عجل، كأنَّه يتذوق طعم قطعةٍ من فلفلٍ حارٍّ، قال للخباز:



- الرجل الصالح يقضي حوائج الناس بلطفٍ، دون أن يخدش مشاعرهم، الحقير فقط هو من يفعل ما تفعله أنت. أنتَ مطرودٌ من المكان، ولا أرغبُ في رؤيتك بالمخبز مرة أخرى

توقف عن الحديث برهةً، قبل أن يسترسل في الحديث ويؤكد في غضب وقد أشار إليه بسبابته:

- ولا في أي مخبزٍ آخر في الضواحي

اتضح فيما بعد أنَّ الهولندي هو مالك المخبز، وهو أيضًا شخصٌ مشهورٌ للغاية في الضواحي. في هذه الأثناء تركتْ أدولفين يدي وأنزلتْ چوردان عن كتفها ثم اتكأتْ بيديها على الجدار المجاور لها وبكت، وكان ذلك قبل أن تتمادى في البكاء وتضع وجهها وسط كفيها وتبكي بحرقةٍ شديدة، قاطع بكاءها الرجلُ الهولندي وهو يرفع القبعة عن رأسهِ ليضعها على رأسي، قال:

- الحرة لا تبكي .. وأنتِ حرة



دعمها ببضع كلماتٍ مُحفزة، جعلها تنهض من الأرض وهي تشعر بالفخر من نفسها، ثم استدعى عاملًا آخر من داخل المخبز، وطلب منه القيام بعمل الرجل الذي طرده قبل قليل، ثم أكد عليهِ بإعطائنا ما نشاء من الخبز وأوصاهُ أن يهتم بأمرنا كلما أتينا إلى هنا. مع الوقت أصبح الخبازون يعرفونني وأخي بالاسم، ما إن نذهب إليهم يمنحونا ما نشاءُ من الخبز على أن نسدد ثمنه في يومٍ لاحق.

* * *

عندما ساءت الأمور أكثر، لم نستطع حتى توفير الأموال اللازمة للاشتراك في الحافلة المدرسية، فبدأتُ أتغيب، وعندما علم مدير المدرسة بالأمر قام بتوفير دراجة صغيرة من أجلي على نفقته الخاصة، كانت رائعة، وضع بها جرسًا صغيرًا وزينها لتبدو مذهلة، حتى إنَّني استمتعتُ كثيرًا بذلك الشيء ولن أنسى لهُ أبدًا ما فعله لأجلي، ما حييث أبدًا لن أنسى.



يومًا ما عُدتُ إلى المنزل مُحتضنًا كرة القدم المُقلدة الرخيصة خاصتي وقد كانت أكبر أحلامي، كما هي العادة كان الباب مواربًا، دلفتُ للداخل دون أن تشعر أدولقين بعودتي، وضعتُ حقيبة الظهر الصغيرة على الأرض ثم رفعتُ وجهي. كانت تقف على بعد أقل من ثلاثة أمتارٍ في مواجهة الثلاجة، رأيتُها مُجدّدًا تخلط اللبن بالماء، لم أُظهر لها أبدًا أنني علمتُ ذلك أو أنني رأيتُها مرةً أخرى، لم أرد أن أثقل كاهلها بمزيد من الأوجاع، فهي بالفعل تحمل ما يكفي في نفسها، كتمتُ الشعور بالألم في نفسي وغادرتُ المنزل حزينًا مكسور الخاطر، غادرتُه بعد أن شعرتُ بمغصٍ في قلبي.

في الشارع، كانت عيناي مُمتلئتين عن آخرهما بالدموع، وروحي غمرها الألم، عدوتُ باتجاه وسط المدينة كما الرياح الغاضبة، تهب وتعصف بكل شيءٍ يقابلها، أصطدم بذلك وأرتطم بذاك، أقع وأنهض أجري مُجدّدًا، اجتزتُ الأزقة الضيقة، والشوارع الخلفية، والضواحي الشعبية بأكملها، حتى وصلتُ الشوارع الرئيسية ومنها إلى محطة قطارات أنتويرب، وقفتُ



أمام المحطة ألتقط بعضًا من الأنفاس وأنا أشاهد محلات الألماس المنتشرة فيما حولها، همستُ في نفسي : هذه أنتويرب، أكبر المدن البلجيكية وأكثرها سكاناً، نصف مليون نسمة يعيشون هُنا، وهي عاصمة مقاطعة أنتويرب التي يبلغ عدد سكانها إجمالًا مليون وربع المليون، و تعتبر أهم موانئ البلاد والتي تعتبر بدورها أحد أهم مؤانئ العالم، حيث إنها تقع على الضفة الشرقية من نهر شخيلت، الذي يرتبط ببحر الشمال، كما تربطها قناة ألبرت بمدينة لييج البلجيكية الداخلية، وترتبط المدينة بكل من هولندا وفرنسا عبر شبكة قطاراتٍ تنطلق من باريس الجميلة مرورًا بالعاصمة البلجيكية بروكسل ثم بأنتويرب حتى أمستردام في هولندا، هذه أنتويرب بضخامتها وعراقتها ونحن فيها نموت جوعى منسيين.

دلفتُ إلى الساحة الداخلية للمحطة، نزلتُ بضع سلالم ثم مشيتُ عشراتِ الأمتار في رواقٍ رائع أوصلني للساحة الكبيرة، كانت من ضخامتها تشبه مركزًا تجاريًا ضخمًا عريق البنية تشعر وكأن ليس له آخر،



وكان يوجد بها بعض الباعة المحليين يعرضون نوعًا من الحلويات الشعبية في بلجيكا يسمى (الأنوف) لشبهه بالأنف، وهو مثل حلوى الجيلي بالفواكه وعادة يأتي بنكهة التوت، وهذه الحلوى اسمها بالهولندية (Noses) ومنشأها مدينة جنت البلجيكية. توقفتْ دموعي لثوانٍ قليلة، نسيتُ فيها بعض الألم، حضرتْ روح الطفل داخلي دون أن أشعر، كان كل ذلك يحدث وأنا أنظر باشتهاء مُتفحصًا جمال تلك الحلوى، كنت أنظر إليها مُتمنيًا لو أستطيع تذوق طعمها.

فجأةً، ربتت يدٌ على كتفي من الخلف، التفتُّ مفزوعًا، وجدتُها امرأةً مكسيكيةً عجوزًا، ابتسمتْ في وجهي بلطفٍ وهي تهديني باليد الأخرى اثنتين من حلوى الأنوف.

شعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ تسري في جسدي فور رؤيتهما، اختطفتُهما من بين يديها، وشرعتُ في أكلهما بنهمٍ شديد وأنا أنظر إليها. غادرتْني بخطواتٍ بطيئة باتجاه منضدتها الصغيرة التي تحمل باقي حلواها، وما إنْ



فرغتُ من أكل ما حصلتُ عليهِ، تحركتُ صوبها، دنوتُ منها، وسألتُها بلطف:

- ما اسمكِ؟

قالت بلطفٍ لم أعهده من قبل في امرأةٍ غير أدولفين:

- مارلا .. الجدة مارلا

قلتُ لها وأنا أشير في ثقةٍ شديدةٍ بإصبع السبابة:

- لن أنساهُ أبدًا، أعدكِ بذلك .. لن أنساه

شرعتُ في المشي مُبتعدًا عنها، فخرج صوتها يسأل:

- وأنتَ، ما أسمك؟

التفتُّ إليها، ثم لوحتُ بيدي اليمنى وقلتُ في ثقة مفرطة:

- يومًا ما سوف تعرفينه، بل ستعرفه كل أنتويرب، أعدكِ بذلك، وسوف أعود إليكِ، أعدكِ بذلك أيضًا



أعطيتُها ظهري مُجدَّدًا، ثم مشيتُ وأنا أهمس في نفسي مُردِدًا :

- نعم .. يومًا ما ستعرفه كل أنتويرب، وسوف أعود إليكِ.

غادرتُ المحطة مُتجهًا للأعلى، توقفتُ أمامها في منتصف الشارع المُزدحم بشدة بين مطعم كويك (Quick) ومقهى ستاربكس (Starbucks)، في الأمام كان يظهر فندق راديسون بلو أستريد هوتل أنتويرب، وهو أكثر مكانٍ مُذهلٍ رأيتُه في حياتي، تمنيتُ كثيرًا لو أتيحتْ لي الظروف يومًا ما أن أشاهده من الداخل، أما خلف المحطة تمامًا من جهة الشرق فهناك لافتاتٌ ضخمة تشير إلى الاتجاهات المؤدية نحو حديقة حيوانات أنتويرب.

كان الغضب مُستحوذًا على قلبي، يتزايد فيجعل ضربات القلب تتزايد معه، تحركتُ مُجدَّدًا باتجاه شارع مير (Meir) التجاري. ميّر هو شارع التسوق الرئيسي في مدينة أنتويرب كما أنَّه الشارع الأغلى في



منطقة دول البينولوكس (Benelux). «البينولوكس اتحادٌ اقتصاديٌ تأسس عام 1944 بين ثلاث ممالك في أوروبا الغربية، هي بلجيكا، هولندا، ولوكسمبورغ. وتم توقيع الاتفاق بين الممالك الثلاث في المنفى في لندن عام 1944. وتم تفعيل الاتفاق عام 1947، واستمر حتى عام 1960 عندما تحول إلى اتحاد البينولوكس الاقتصادي. والاسم مشتق من الحروف الأولى لتلك الدول». وبوجود هذا الشارع تُعد أنترويب أهم مدينة تسوقٍ في البلاد تبعًا لعدد المحلات أو فيما يتعلق بأسعار التأجير للمحلات.

ربما كنتُ صغيرًا في السن لكنني كنتُ مدركًا لحجم هذه التجارة وهذه الأموال التي تتدفق في المكان، لم تكن تفوتني دروس الاقتصاد في المدرسة، وقد دفعتني معرفة ذلك أن أسأل نفسي في حسرة:

- أين نحن من كل ذلك؟

دون الحصول على إجابة، عدتُ للعدو مُجدَّدًا، بمحاذاة نهر شليت في اتجاه بحر الشمال، كنتُ أعدو بأسرع ما



أمكنني وكأنني أطارد شخصًا سلب مني الروح وهرب بها، عدوتُ عشرات الكيلومترات مُصطحبًا كرة القدم، تارة بين يديَّ، وتارة أدفعها بين أقدامي.

على ضفاف بحر الشمال جلستُ مُنعزلًا عن العامة، وحيدًا ترافقني تعاستي، أشاهد السواح والأغنياء من المواطنين وحتى العاديين منهم يستمتعون بالحياة على الشاطيء، كانت الدموع ما تزال تترقرق على خديَّ، وما تزال المواقف بين أدولفين وروجر حاضرةً في ذهني لا تغيب، لا تزال دموعها وتضحيتها بنفسها من أجلنا في رأسي، تلك اللحظةَ علمتُ بأننا لسنا فقراء، لسنا معدومين، بل أكثر من ذلك بكثير، إننا تحت سقف الحياة.

حضر في رأسي لو أنتحر، نعم يجب عليَّ أن أتخلص من حياتي فأنا حملٌ ثقيلٌ عليهم، اقتربتُ ببطءٍ من الماء على حافة الشاطيء، كانت الأمواج مُرتفعة للغاية، لو ألقيتُ بنفسي داخل هذه الأمواج الغاضبة سوف تبتلعني، حتمًا سأموت بسرعة قبل أن يلحق أحدهم بي وينقذني، هكذا قلتُ لنفسي قبل أن أتشجع



وأقترب بضع خطواتٍ أخرى مكنتني من أن أطأ بأقدامي في الماء، شعرتُ لحظتها أن قوةً سحريةً خرجتْ من بحر الشمال وتدفقتْ إلى روحي، ارتعشتْ أوصالي بشدة، شعرتُ أنَّ أحدهم، ربما جدي، قد غرس إصبعه داخلي ليوقظني، يخبرني بأن عليَّ أن أغير حياة عائلتي للأفضل، ربما كان جدي يجلسُ في مدينة بوانت - نوار في الكونغو على الشاطيء الجنوبي للمحيط الأطلسي ووضع يدهُ في الماء، أرسل إليَّ قوة كبيرة وطاقة لا تنتهي، سَرَتْ مع المياه حتى شمال المحيط الأطلسي ومنها إلى بحر الشمال فوصلتْ إليَّ في هذه اللحظة، كانت ثمَّة باخرةٌ متوسطة الحجم على مرمى البصر، كانت تبعُد عني بحوالي مائة متر أو يزيد، الناس في كرة القدم يحبون الحديث عن القوة الذهنية للاعبين، حسنا أنا أكثر لاعبٍ يمكن أن تشاهده يتمتع بقوة ذهنية، كما أنني قوي البنية رغم هذا الفقر، هذا ما قلتُه لنفسي قبل أن أُشد قبضة يدي غاضبًا ثم أركل الكرة بقدمي بكل ما أوتيتُ من قوة إلى داخل البحر لتسقط داخل الباخرة مُباشرة. ارتفع صوتُ صفير بعض الناس مِمَن كانوا حولي، انبهروا بما فعلتُه،



حتى أنا لا أصدق أن الركلة جاءت بكل هذه القوة، صحيحٌ، تُدرك كم أنك قوي حين تكون القوة هي خيارك الوحيد. رغم ذلك لم أعطِ أيَّ ردة فعل، فقط أقسمتُ لنفسي أن أغير حياتنا، أن أصبح أشهر لاعبٍ في هذه المدينة وأن أبدل الأحوال. وكما يقول فرانك سيناترا : «أفضلُ انتقامٍ هو النجاح الساحق، وأصعب الخيارات تتطلب أقوى الإرادات».

سوف أنجح وأستمتع بكل شيءٍ، ليس فقط في أنتويرب، بل في العالم، سأعود إلى محطة القطار وأشتري جميع الحلوى وأوزعها على العامة، سوف أصبح الأفضل، فلا يمكنني تحمل والدتي هكذا مرةً أخرى، سأبدل كل هذا البؤس والشقاء إلى أمانٍ وحرية.

***



بداية المشوار

أنتويرب - 1999م

في أحد الصباحات الصيفية، استيقظتُ وقد بلغتُ سنَّ السادسة، أتذكر أني قبل أن أنام، في منتصف الليل، كنتُ أعاني من التفكير فيما سأحصل عليهِ غدًا من علامات في نتيجة الاختبارات، وكان الفصل الدراسي الثاني قد انتهى نهايةً مُشوَّشةً نتيجة الظروف المحيطة بنا، رغم ذلك كان قلبي ينبض بالسعادة، كأنما أراد أن يفتح ممرًّا في صدري ليهرب منه، بفعل الشوق الذي سكنني طيلة الليل رغبةً مني في الحصول على نتيجة العام الدراسي.

ذهبتُ مرافقاً ڤيني ڤرانس إلى المدرسة كما العادة بعد أن تركتُ دراجتي الصغيرة في المنزل، قطعنا سويًا الطرق الخلفية والأزقة الضيقة مصطحبين كرة قدمٍ نتقاذفها بين أقدامنا طيلة الرحلة باتجاه المدرسة، جاءت النتيجة كما المتوقع، حقَّقتُ الدرجات الكاملة



في الاختبارات وكذلك ڤرانس، لكن!! بماذا تُفيدك الدرجات إن كنتَ لا تملك حتى قوت يومك؟

عدنا في اتجاه المنزل، دلف ڤرانس إلى والدته التي استقبلتْه وهي تحمل قالبًا من حلوى الكراميل المحشوة بالبندق، وكنت أعرفها جيدًا، إذ~ أنَّها أكثر شيءٍ تجلبه دائمًا لڤرانس وهو بدوره يقوم باقتطاع جزءٍ من نصيبه ليأتي بهِ إليّ،

لم أتوقف معهُ عند باب المنزل، هرولتُ باتجاه أدولڤين وقد اعترتني حالةٌ من السعادة الشديدة مع الشعور بنشوة التفوق، دفعتُ باب المنزل تتملكني رغبةٌ عارمة في مُفاجأتها والصراخ في وجهها بأعلى ما يمكن :

- لقد نجحتُ أدولڤين .. لقد نجحتُ

لكن شيئًا من هذا لم يحدث، شيءٌ غير متوقع في مثل هذا اليوم كان ينتظرني، وجدتُها تجلسُ أرضًا في الرواق مُتكئةً بظهرها على الحائط، شعرها مقصوصٌ متناثر على الأرض فيما حولها، وقد غرستْ وجهها بين



كفيها وصوت شهيقها مع البكاء واضحٌ تمامًا، بجانب غمغمتها بكلامٍ غير مفهوم مع نفسها. كنتُ مدركًا أنَّ تخلى المرأة عن شعرها بقصهِ يعني أنها قد وقعتْ تحت وطأة ألمٍ وقهرٍ نفسي وذهني لا يطاق، وأنها شعرتْ بالضعف ولم يعُد في استطاعتها أن تقاوم، المرأة بطبيعة الحال ترفض الاستسلام حتى في أقسى الظروف.

عند رؤيتها تسمرتْ قدمايَ في مكانهما، نظرتُ إليها بعينين مفتوحتين عن آخرهما دون نفسٍ واحد، فبدوتُ كمن تجمدتْ الدماء في عروقه، سقطتْ شهادة الدرجات من يدي على الأرض، كان هناك شعوران متناقضان في المكان تناقض الخمارة والكنيسة، أنا في قمة النشوة والسعادة، وهي مُنهارة ذهنيًا ونفسيًا وقد اِفْترشتْ الأرضَ باكيةً بحرقة. إحساسٌ بالخواء تسرب داخل قلبي وخيَّم على الأجواء، تشوش كل شيء أمامي، انقطع صوت العالم الخارجي بضجيجه عني، سمعتُ فقط صوتَ بكاءٍ في كل مكان، أُقسم بأنني رأيتُ الحوائط تبكي، الأبواب تبكي، حتى



الثلاجة في أقصى جنوب الرواق حزينة تبكي، وفي أقصى الشمال وقفتْ منضدة التلفاز خاويةً من دونه تعرج على ثلاث أقدام دون القدم الرابعة بعد أن كُسرتْ تمامًا وأخذها چوردان يلعب بها، وقد كانت هي الأخرى تنظر الى الأرض مائلة على قدمها المكسورة من شدة الحزن على سيدة المنزل، كُل شيءٍ كان يبكي لبكائها.

عندما شعرتْ بحضوري، أخرجتْ وجهها من بين كفيها، فوقعتْ عيناها في عينيّ، حاولتْ التماسك، لكن هذه المرة أتت من دون فائدة، فقد شهقتْ بالبكاء لا إراديًا، وأعقبتْ شهقتها ابتسامةٌ مُزيفةٌ وهي تزيح بلهفةٍ الدمع الغزير عن خديها، حاولتْ أن تستجمع رباطة جأشها لكن ما مِن فائدة. تلك اللحظة، لم أخبرها أنَّني حصلتُ على الدرجات الكاملة، ارتأيتُ أن ما من فائدةٍ في هذا النجاح إن كان الفقر المدقع بانتظاره، ما فائدة الدرجات الكاملة إذا كنت جائعًا؟ ما فائدة أن تنجح في كل شيء بالعالم أو تملكه إن كانت المرأة الوحيدة التي يجب عليك أسعادها حزينةً تبكي؟



لم تستطع أدولفين في هذه المرة أن تُطمئِن قلبي، لم تستطع أيضًا أن تُكمل تمثيليتها في تصنع الابتسامة، فبكتْ مرةً أخرى، ظننتُ أنها تبكي لنفس السبب كما الحال في كل مرة، الفقر، عدم توافر الأموال، قلة الطعام، لكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد، كان روجر غائبًا عن المنزل منذ أول أمس بدون أن تعرف شيئًا عنه، لم تكن من عاداته الغياب، بيد أنها كانت منهارةً نفسيًا من الداخل، تشعر بالخواء الشديد، ولا شيء كان يطمئن روحها ويسندها في مثل هذه الظروف إلَّا تواجده إلى جوارها في كل يوم. أصعب الأشياء في الغربة أنك تبقى وحيدًا في كل وقت، وحيدًا تمامًا بلا عائلة، عائلتك الوحيدة هي الشخص الذي يشاركك الألم، لذا فإنَّ غيابهُ يبقى أمرًا شديد الوقع على النفس، لذلك إنهارت نفسيًا وذهنيًا، ثم قصت شعرها. ليس من شيءٍ أصعب على المرء من انهياره نفسيًا وذهنيًا في غياب الشخص الوحيد القادر على جبر روحه واحتضانها.



لم انطق بكلمةٍ واحدةٍ، لم أكن أريدها أن تشعر بأيّ توترٍ أو ضغط، لكنني أقسمتُ بالله ووعدتُ نفسي في ذلك اليوم بضرورة فعل شيء، وقد كنتُ أعرف بالضبط ما يجب عليّ فعله. لم أستطع رؤية والدتي تعيش هكذا، دَنَوْتُ مِنها، و كنتُ أعرف أنَّ العناق يفسد الوجع، ويفكك كل صفوف جيشه، لذا احتضنتها بقوة، ثم وضعتُ شفتيَّ على جبينها، قبَّلتُها عدة مراتٍ متتالية، لم أبكِ كأي طفلٍ صغير، الجميع يملك في طفولته حرية أن تفيض عيناه دمعًا متى أراد ذلك، أما أنا وبعد أن وجدتُ نفسي في هذه الظروف فلم يُتح لي ذلك. قد نجد أنَّه لا مفر من أن نفيض بالدمع حتى لا ننفجر، لكنني لا أستطيع أن أبكي، أخشى أن أُثقِلَ عليها، لذا كان عليَّ إيجاد طرقٍ أخرى غير البكاء، وقد وجدتُ طريقة واحدة، هي الإيمان والإصرار من أجل العمل.

تراجعتُ خطوة للوراء، تمكنتُ على أثرها من النظر داخل عينيها مُباشرة، ثم قلتُ بأصرار وأنا أربت على كتفيها :



- لا تبكي أدولفين، لا ينبغي لكِ أنْ تذرفي الدمع وأنا هُنا، الأمور ستتغير وسوف ترين. سوف ألعب كرة القدم في أندرلخت، وسوف ألعب في منتخب بلجيكا من أجل روجر، بل سوف أذهب إلى كأس العالم، أعدكِ بذلك، ستتحسن الأمور فلا داعيَ للقلق بعد الآن، أنا هُنا

ابتسمتْ أدولفين وهي تقول:

- منتخب بلجيكا! و كأس العالم مرةً واحدة؟

- وسوف أسجلُ في البرازيل إن شئتي

- أنا لا أريد يا روم .. لا أريد .. بل أثقُ في أنكَ ستفعل ذلك بكل تأكيد

كانت لحظةً رغم حماسي فيها ومؤازرة أدولفين، إلّا أنَّها كانت مُفزعة ومخيفة. شيءٌ مربك عندما يتوجب على المرء أن يُضحي أكثر من والديه، لأجلهما، وهو في هذه السن الصغيرة، كما أنَّها لحظة مرعبة أكثر أن

تُعطي وعدًا تحقيقه شديد الصعوبة لشخصٍ يؤمن بك، ولديه يقينٌ بأنكَ تستطيع.

في هذه اللحظة، استشعرتْ أدولڤين أنَّ قلقًا وخوفًا شديدًا قد تسربا إلى داخل أعماق روحي، فسَعتْ بدورها إلى طمئنتي، قالت:

- أنا بخير، إنها فقط الذكريات هاجت في عقلي، ففي قلبي جراحٌ قديمة، تؤلمني كلما أُصبتُ بجرحٍ جديد، لكأنّما الجراح تخدش بعضها بعضًا. فمنذ وُلدتُ مررتُ بأيامٍ سيئة للغاية، تحملتُ فيها الكثير من الألم، مرَّتْ أيّامٌ بحثتُ فيها كثيرًا عن كتفٍ أُريح رأسي المضطرب عليه، لم أجِد، بحثتُ مرارًا عن يدٍ تنتشلني من تكالب الحزن والخوف والغضب على روحي، فلم أجِد، بحثتُ كذلك عن حائط صدٍ يدفع الضربات الموجعة في قلبي عني، ولم أجِد أيضًا، بحثتُ كثيرًا عن شيءٍ من داخلي يعزي مشاعري المصابة والمدمرة، ولم أجِد. وإني لأعرف من نفسي أني لم أخذل أحد تعشم بي، ولم أترك أحد هرع نحوي لأنجده، وأني فعلت ماتمكنت من فعله وفي بعض المرات أجبرت نفسي وظروفي



لأتمكن من فعله. والان أبقى وحدي عزلاء في مواجهة هذه الانهيارات الكبيرة في حياتي ولم يهرع نحوي أحد ليساعدني، ليقف بجانبي، ليقول لي حان الوقت لأنقذك.عندما وصل إليَّ أمر هجرتنا إلى بلجيكا، أمَّلث أنني سأجدُ شيئًا مغايرًا عن الأسى الذي حييث فيهِ في كينشاسا، لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث، لقد وجدتُ الكابوس ينتظرني هنا أيضًا، فساورني الإحساسُ بالضياع، فالخيط الرفيع الذي كنتُ معلَّقةً به ويشدني نحو الأمان انقطع وجرفتني التيَّارات إلى مياهٍ مجهولة لم أعرف إلى أيّ اتِّجاه ستأخذني. وتزايد الضغط رويدًا رويدًا، فأصبحتُ غير قادرةٍ على احتمال مايجري، ليس فقط ما يجري لي، تلك الأمور التي تضرني وتنهك تفكيري وتأخذ معظم صحتي ووقتي وترمي بي في الألم، بل حتى الذي يجري لعائلتي ولأصدقائي في كينشاسا، وللناس هناك، وحتى هنا في هذه البلدة، فالحياة تؤلمنا جميعًا بنفس الدرجة تقريبًا. نحن نعيش ولا نعيش، نشعر بشدة ولا نشعر كذلك، نقضي سنواتٍ من عمرنا نزرع ونهتم ونحاول لنجد أن كل ذلك يذهب أدراج الرياح، فقط لأن شيئًا ما، شيئًا لا

ينبغي له أن يحدث، قد قرر الحدوث فجأة وغير مسار كل ماخططنا له وما حلمنا به وما اجتهدنا لنحصل عليه ونفوز به.

لقد قضيت سنواتٍ طوالًا من عمري في مواجهة هذا الجنون والصدمة، في مواجهة أن عمري يذهب في أشياء لم أتوقعها حتى، أن أُصلح طرفًا فينهار طرفٌ آخر بشكلٍ متواصل، ماكنتُ أظن أن مصيرًا مثل هذا ينتظرني هنا، ومنذ جئتُ هنا، في كل مرةٍ أقع كنتُ أقول: لا بأس لأجنّ ثم أعدو في زوايا الغرفة هربًا من هذه الفكرة قبل أن أنتبه أنني بدأتُ حقًا أقع فيها.

أردتُ أيضًا ألا أهرب من أقداري، قلت: يافتاة، ما جدوى الهرب وهذا الواقع فيك وليس حولك. أردتُ أن أجد قوتي في مكانٍ ما من داخلي، أن أبحث وأبحث حتى أجد نسخةً جيدة مني تتمكن من تلقي كل هذا الإحباط وكل هذا الألم لتحوله لطاقةٍ تمكنها من خلق فرصٍ أخرى وآمالٍ أخرى وحياةٍ أخرى. كنتُ أود التوقف حقًا لأواجه، ولكنْ لا أدري ما الذي يسحبني بعيدًا طوال الوقت، بعيدًا في اللاشيء، حتى ماعدتُ



أعرف كيف أبقى ولا كيف أعود. لكنني اقسمت لنفسي مرارًا وأقسم لكَ يا بُني بأنَّني سأنهض كُلّما سقطتُ، لأجلك، سأنهض لأكون إلى جوارك ولا أدعك تسقط أبدًا.

في عصر ذلك اليوم، كنتُ جالسًا إلى جوارها بينما چوردان نائمٌ على الأرض، عندما دلف روجر من الباب بطريقةٍ أوحت كأنَّه اقتحمه، وقد انبسطتْ أساريرُ وجهه للغاية، حاملًا بين يديهِ العديد من الأكياس البلاستيكية. بالنظر إليها بدا أنها تحوي فاكهةً ولبنًا مع خبزٍ طازج وبعضٍ مِن مُتطلبات المنزل الأخرى. انتفضتُ وأدولفين واقفين في مكاننا غير مُصدقين لما نراه، وقبل أن نُبدِيَ أي ردّة فعل، ترك روجر الأكياس أرضًا وأحتضن زوجته بقوة شديدة وهو يقول:

- حصلتُ على عمل، نعم فعلتُها .. أخيرًا أخيرًا .. حصلتُ على عملٍ جيدٍ في إدارة مزرعة كبيرة

أردتُ أن أصرخ في سعادة، لكنَّ شيئًا ما في داخلي منعني عن فعل ذلك، ربُمّا لم أشعر بأن شيئًا من هذا



سوف يفيد في شيء، ربما كالعادة هو حلٌ مؤقتٌ ليس إلَّا، هذا العمل بمثابة سجنٍ لروجر، فالسجن الحقيقي ليس حوائط وأبوابًا يعلوها حراس، بل عندما لا تستطيع القيام بالأشياء التي تحبها بسبب ظرفٍ ما أو شيءٍ ما، كما أنني أعرفُ جيدًا أنَّ إجبار شخصٍ يتمتع بقدرات عقلية عالية ونادرة على عمل لا يحبه، هو أشبه ما يكون باستخدام تحفةٍ باهظة الثمن كوعاء في المطبخ، في نهاية الأمر لن يتحمل فعل ما لا يحبه، صعبٌ جدًا على روجر أن يخرج من كَونِهِ لاعبَ كرة قدم مُحترفًا ليعمل في مزرعة.

سرد روجر كيف أنَّ صديقًا قديمًا وفر لهُ عملًا في مزرعةٍ كبيرة موجودة في السهول الشاسعة في الظهير من أنترويب، قال إنَّ صاحب المزرعة كهلٌ ودودٌ للغاية، تعاطف معه ومع قصته، وأعطاه بعض الأموال مقدمًا مع السماح له بالعودة إلينا لإيصالها وتلبية مُتطلبات المنزل. لم يكُن شيءٌ في ذلك يعنيني، الشيء المهم لديَّ في هذه اللحظة كان :



- متى أستطيع أن ألعب كرة القدم؟ متى تُتاح لي الفرصة كي أُعوض أدولقين؟

دنوتُ منهُ ببطءٍ شديدٍ، وسألتُه في جديةٍ بصوتٍ مُنخفضٍ كاد ألَّا يسمعه من شدة انخفاضهِ:

- متى يمكنني البدء بلعب كرة القدم على المستوى الاحترافي؟

فأجاب :

- في عمر ستة عشر عامًا

قلتُ مُردِّدًا:

- حسنًا .. ستة عشر عامًا .. ستة عشر عامًا

ردَّدتُها بغضب، نعم بغضب، حين تشعر أنك موجودٌ في المكان الخطأ، أو تلقى مُعاملةً لا تليق بك وكلها عين الخطأ، حين تشعر أنك تعيش حياةً مزورة فاسدة،



يخرج من داخلك الصوت الذي يتمرد على تلك الحياة ويرفضها على هيئة غضبٍ لامُبرر له.

كانت نظرة روجر وملامحه مع لمعةِ عينيهِ توحي لنا بأنَّ شيئًا ما مُخبأً وسوف يظهر الآن. عمَّ الصمتُ قليلًا في أرجاء المكان، تبادلتُ مع أدولقين النظرات في حالةٍ من الترقب اعترتنا سويًا، كُنا نشعرُ بصدقٍ أنَّ شيئًا ما على وشك الحدوث، وقد حدث عندما همَّ روجر بإخراج بعض الأوراق من بين طيات ملابسه، أشار بها إليّ وهو يتحدث وقد ترك مسافة بين كل كلمة والأخرى، تحدث بصوتٍ تصاعدتْ نبرتهُ وعلوهُ حتى وصل حد الصراخ في نهايةِ حديثهِ:

- تحترف في سن ستة عشر عامًا .. لكن .. هذا .. لا يمنع .. أنك تستطيع مُمارسة كرة القدم مِن الآن في نادي روبيل بوم، وبشكلٍ رسمي بعد أن تم قيدك في صفوفه، غدا أُتم أرسالك إلى هناك

كان روجر قد سبق له ولعب في صفوف روبيل بوم لمدة من الوقت، وكانت علاقته معهم ما تزال جيدة،



أراد أن يفعل شيئًا يُسعدني به، لذا مرَّ عليهم وقام بدفع المصروفات اللازمة وتسجيلي بأكاديمية الناد ، كانوا يعرفونني جيدًا فقد زرتُهم مرارًا برفقته من قبل.

في روبل بوم كانت بداية المشوار، لأربعة مواسم كاملة لعبتُ بين صفوفه، كل مباراة خضتُها كانت نهائيةً بالنسبة لي، لذا تفوقتُ على جميع الأطفال في الفريق، وعندما لعبتُ في الحديقة كانت بمثابة مباراة نهائية أيضًا، حتى في وقت الراحة في رياض الأطفال كنتُ ألعب بشراسة، اعتدتُ على محاولة تمزيق الكرة في كل مرة أسددها فيها، لم أكن أرى الكرة، كنتُ أرى الفئران التي تضايقني، كنتُ أرى دموع أدولفين بعدما ضايقها الخباز، لم يكن لدي لعبة (FIFA) الجديدة، أو جهاز لعبة بلاي ستيشن، لم أكن ألعب خططيًا، كنتُ أحاول أن أكون قويا وحاسمًا فقط، اعتدتُ أن أتدرب بالساعات حتى في أوقات الرفاهية، فقط أتدرب وأتدرب دون توقف عن فعل ذلك.

في صباح يومٍ معتدلٍ ومنعشٍ من أيَّام أنتويرب اصطحبني روجر معه إلى العمل، حيث السهول



الشاسعة، كانت المناظر مُدهشةً حقًّا، فالأغنام ترعى الكلأ في المراعي المختلفة الألوان برفقة صغارها، والخضرة المنتشرة مرصّعةٌ بزهورٍ بنفسجية وحمراء متباينة، خلبخ، وجرسي وحلف المروج، والكثير من الورود البرية، اتّضح لي يومها أنّ الكوخ المُعد لروجر كوخٌ صغيرٌ مؤطّرٌ بخشب الأرو (Oak Wood) وهو أفضل أنواع الخشب متانةً وجمالًا وأغلاها ثمنًا، وكان مطليًا باللون الزهري، ويقع في أعلى الجانب الغربيّ من أحد الوديان، و تقابله الغاباتُ الشجرية في الجانب الشرقي. كانت الشمس المذهلة تغمره في الصباح، و في أوقات المساء يسوده السكون المطبق. على مسافةٍ ليست ببعيدة يمكن رؤية نهر شيلدة (ألاسكو) يجري مُتعرجًا كأنَّه خيطٌ حريريٌ ذهبي، يشق طريقه بسهولة في أنتويرب باتجاه بحر الشمال.

أحببتُ الكوخ وما فيه من مدفأةٍ مصنوعة من الحديد المقوى مطعمة بالأحجار الحرارية، أحببتُ الألوان الزاهية والبراح في الخارج، كذلك أحببتُ الغابة. طيلةَ أسبوعٍ ذهبتُ كل يوم إليها مصطحبًا كرة القدم، لم

أترك شيئًا فيها إلَّا وصوبتُ عليه؛ الفاكهة، السناجب البرية، الأرانب، والثعالب، حتى الحيوانات الضارية فزعتْ من شدة التصويب، كنتُ أطارد الحيوانات بالكرة وأراوغ الأشجار بها، أو ربما خُيِّل ذلك لعقلي الصغير.

* * *

قرية بوم بالقرب من أنتويرب - نهاية 2001م

في إحدى المباريات مع روبل بوم وكنتُ في سنّ التاسعة، وبينما وقفتُ أتلاعب بالكرة وأستعرض مهاراتي أمام باقي الرفقة في الفريق وبعضٍ من الحاضرين في المدرجات، اقترب مني المدرب إروين وسكي الذي كان يشرف على تدريبي، نظر إليّ بعينٍ فاحصةٍ وكان ذلك قبل أن يقول وهو يهز سبابته في وجهي مؤكدًا جدية حديثه :

- اليوم .. أريدك أن تمزق الشباك، هل تعي ما أقول؟ مزّقها .. أحدهم هنا لخطف بعض اللاعبين ونقلهم إلى نادٍ كبير



قلتُ مُتسائلًا وغيرَ مصدقٍ :

- أندرلخت؟!

لم يعطِ ردًا، أعطاني ظهره وتحرك صوب لاعبين آخرين .. شعرتُ بالحماس الشديد يسري في عروقي، أقسم أنني لم أرَ الكرة يومها، فقط رأيتُ الفئران في الملعب، ملأتُ قلبي بالغضب وبدأتُ الانتقام منها، سددتُ الكرة بكل قسوة، كلما وقعتُ نهضتُ بسرعة وكأن قاطرةَ نقلٍ ثقيلةً سوف تدهسني لو لم أقم وأجرِ باتجاه الكرة مرةً أخرى، فعلتُ كل ما يمكن فعله بالكرة. في نهاية المباراة وجدتُ أعين كشافي نادي ليرس وقد وقعتْ عليّ تتفحصني، بدتْ رغبتهم شديدةً في ضمي إليهم .. قلتُ لهم قبل أن يتحدثوا:

- لا أترك چوردان أو ڤيني ڤرانس

ووافقوا.

* * *



مدينة لير - بداية 2004م

أتممتُ وچوردان بالإضافة إلى ڤيني ڤرانسي الانضمام الرسمي إلى صفوف الشباب في أكاديمية نادي ليرس، كان وجود ثلاثتنا جنبًا إلى جنبٍ شيئًا مُفرحًا لقلبي، من الرائع أن يكون رفيق الدرب معك أينما كنتَ، كُنتُ وقتها قد بلغتُ سن الحادية عشرة، وكان ما يزال إصراري على أن أصبح الأفضل مُسيطرًا عليّ، لم أنسَ القسم لأدولڤين، وجودي في نادٍ كبيرٍ لم يشبع رغبتي أو يقلل من هِمَّتي، إنَّما جعل رغبتي تتزايد، لم يعد طموحي أنْ أكون لاعب كرة قدمٍ فقط، بل أنْ أكون أفضل لاعب كرة قدم في تاريخ بلجيكا، كان هذا هدفي، لا أن أكون لاعبًا جيدًا أو رائعًا فحسب، ولكن الأفضل على الإطلاق. دفعني ذلك إلى اللعب بكثيرٍ من الغضب الذي يصاحبه العزيمة والإصرار، و كان ذلك بسبب الكثير من الأشياء؛ بسبب الفئران المنتشرة في منزلنا، ولأنني لم أتمكن من مشاهدة دوري أبطال أوروبا لمدة عشر سنوات متتالية. في عام 2002، عندما سمعتُ أصدقائي يتحدثون عن الهدف



الأسطوري للفرنسي من أصول جزائرية زين الدين زيدان، لم أكن قد رأيته بالفعل رغم مرور أسبوعين على تسجيل الهدف، لحظتها تفاعلتُ معهم، أوحيتُ إليهم أني قد رأيتُه، قلت :

- كان مُدهشًا للغاية، هدف عظيم

في داخلي شعرتُ بالسوء والغضب، قلتُ في نفسي لا يمكن أن أكون كاذبًا، سأحقق النجاح قريبًا وأصبح أفضل من الجميع.

آمنتُ بأنَّ النجاح والتفوق هو الحل لجميع المُشكلات التي تواجهنا، آمنتُ كذلك بأن قيمة الإنسان هي بما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته، بالسعي والكد لتحقيق إنجازات، وإن كان للحياة سُمعةٌ سيئةٌ عند المكتئبين، الفقراء والمُعدمين، ومن يعيشون تحت سقف الحياة، فأنا لا أعترف بهذه السُمعة، فالحياة عندي معركةٌ لا يمكن أن أخسرها، نحن لا نستند على ما نحنُ عليهِ من ضعف، لا يجب أن نستسلم لما وجدنا



أنفسنا عليهِ، وإنما نستند على ما بداخلنا من عزيمةٍ وإصرار، ذاك الذي لا يقبل بالانهزام ولا يعيشه.

كان ذلك الإيمان بالنجاح والإصرار عليهِ دافعًا قويًا في تحقيقي مُعدلًا مُرتفعًا من الأهداف، حيث سجلتُ 121 هدفًا في 68 مباراة متتالية مع ليرس، خطفتُ الأضواء، تهافتتْ عيون كشافي الأندية الكبيرة عليَّ.

لكن !!

***



المأساة تتواصل

مدينة بروج - منتصف 2004م

اعتدتُ الذهاب إلى النادي بمفردي، لم تكن لدى والدي سيارة يقوم بإيصالي بها، لم يكن لديه وقتٌ في الأساس ليحضر معي. كانت أدولفين وحدها تعتني بي عندما يتطلب الأمر، في نهاية الحادية عشرة من العمر صرتُ أطول وأضخم وبالطبع أقوى، تشاركتُ الحذاء والملابس مع روجر، انتفعتُ من الطول والقوة الذي حظيتُ بهما، سجلتُ 76 هدفاً في 34 مباراة فقط مع ليرس، سجلتُها جميعًا وأنا أنتعل حذاء روجر المُمزق، أظنه كان حذاءً مباركًا من جانبه، كان بعض المُدربين يسألون عني، يشككون في أمر سني وجذوري، لكنَّ مدربي كان يتصدى لهم، يتكلم بديلًا عني، يقول للجماهير وعائلات اللاعبين وغيرهم من العامة الذين يتساءلون:

- روم خجولٌ جدًا، يعاني كثيرًا للتواصل مع زملائه، ربما ذلك عائدٌ لسبب فارق الطول الكبير بينهم، الناس



دائمًا ما يتحدثون عن أنَّهُ أكبر سنًا من زملائه، لكني دائمًا ما أرد عليهم بأنهُ مولودٌ في بلجيكا، لا يوجد شكٌ في أن هذا هو سنه الحقيقي.

لن أنسى أبدًا المرة الأولى التي حاول فيها أحدهم التشكيك في عمري ومحاولة منعي من دخول أرضيّة الملعب، كنتُ ضمن شباب أكاديمية ليرس، و لدينا مباراةٌ هامة مع فريق مدينة بروج، وهي تعد واحدةً من أغنى المدن ليس في بلجيكا فقط بل في أوروبا وذلك منذ القرن الرابع عشر، ولا تزال إلى اليوم مركزًا اقتصاديًا كبيرًا وتاريخيًا جميلًا. يقطن فيها كثيرٌ من الأثرياء، وترتب على ذلك أنَّ جميع اللاعبين في الفريق لهم عائلاتٌ ثرية أصحاب نفوذ. خرجتُ من غرفة تبديل الملابس باتجاه الملعب أجري بحماسٍ شديدٍ كالسهم، أخترق كل شيء كأنني ذاهب باتجاه معركة، كُنتُ مُخيفًا لكل لاعبٍ آخر في فريقٍ منافس، توقفنا أسفل الدرج الذي نخرج عبره إلى ساحة أرضية الملعب، بينما كنتُ واقفًا برفقة باقي اللاعبين بالقرب من لاعبي الفريق المنافس، نظر إليَّ كابتن الفريق



الآخر بعينين ثاقبتين بدا فيهما الحنق الشديد، كان مُستغربًا بشدة وهو يسأل:

- روم .. أليس كذلك؟

قلتُ في خجلٍ مَشُوبٌ بالارتياب :

- نعم ..

قال بحدةٍ وقد اعترتْه حالةٌ من الضيق الواضح على ملامحه :

- مُستحيل .. لا يمكن أن تكون في الحادية عشرة من العمر

حاول بعض الموجودين إخبارَهُ أنني بالفعل في الحادية عشرة، لكنه أصر على موقفه، كرر أنَّ هذا مستحيل، ثم أومأ إلى أحدهم، أرسله في طلب والده وكان موجودًا بالفعل في المقصورة الرئيسية، اتضح فيما بعد أنَّهُ أحد تجار الألماس، كما أنَّه يمتلك حصةً كبيرة في ميناء بروج، وهو من أكثر الأشخاص الأثرياء



المعروفين في المدينة. حضر الرجل على الفور، كان ضخمًا، غليظ الملامح، يتحدث من أنفه، نظر إليَّ مُتفحصًا بنظرةٍ عنصرية مُريبة، سألني في غلظة بنبرة صوتٍ تصاعدتْ قليلًا بقليل:

- أين ولدتَ؟

كم عمرك؟

من أين أنتَ؟

قلتُ مُتردِّدًا في قلقٍ وبعض الخوف:

- ولدتُ في أنتويرب، ومن بلجيكا

قال صارخًا بعصبية مفرطة :

- أريد أن يثبت لي أحدهم، الآن، وفورًا، أن هذا الولد بلجيكيٌ، بعمرٍ أقل من أحد عشر عامًا، وإلَّا فلن يمر الأمر بيسر وسلام على الجميع، أنتم مزورون، الآن عرفتُ لماذا أحرز 76 هدفًا، الآن عرفت.



بدا لي أنهم يعرفونني جيدًا، الأمر كان مُرتبًا من قبل المباراة، لم تكن معي أوراقٌ تُثبت أنني بلجيكيٌّ وولدتُ في أنتويرب، لم تكن معي شهادة ميلاد تقول إني بعمر أقل من إثنى عشر عامًا. تجولتُ بعيني أبحثُ بين الحاضرين أو القريبين عن چوردان، لقد كان هنا إلى جانبي، ولكنه اختفى تمامًا، شعرتُ بالخوف، حالة من الارتباك والتوتر الشديدة ملأت المكان، قلتُ في استسلام وأنا أمسح عرقي في قلقٍ وقد ترقرق الدمع من عينيَّ واحتُبِس صوتي فخرج مُتهدجًا:

- ولدتُ في العام 93 ... في أنتويرب

صرخ الرجل غاضبًا ومُنفعلًا وهو يضرب بيده على الزجاج المحيط بالمخرج الذي يصلنا بساحة أرضيّة الملعب، وكانت نبرة صوته تشير إلى أنَّه شخصٌ وجد نفسه على نحو غير متوقَّع في موقع سلطة، وهو يطيح بأهم لاعبٍ في الفريق المنافس دون أن ينبس أحدهم معارضًا له بكلمة، فقرر أن يستغلَّ ذلك إلى أبعد الحدود، فقال موجهًا حديثه إليَّ وهو يشير بسبابتهِ مُحذرًا :



- إياك أن تنبس بكلمةٍ واحدة، لا أريد لكَ صوتًا، إن لم يُثبت لي أحدهم الآن أنك بلجيكيٌ أقل من أحد عشر عامًا فسوف تُلغى المُباراة، وتحتسب النتيجة لصالح فريقنا، كما أنني سأعمل على شطب اسمك نهائيًا من اتحاد كرة القدم

كان إداريو فريق ليرس في حالة تجهمٍ وصمتٍ كأنهم على خطأ، كانوا يخشون نفوذ الرجل، لم يدافع أحدهم عني، سألني أحدهم هامسًا بصوتٍ منخفض :

- هل لديك أوراق إثبات شخصية في حقيبتك؟

لم تكن لديّ أيّ أوراقٍ، فبكيتُ، أمسك ڤيني ڤرانس بيدي جيدًا، أمسكها كمن تشبث بها يريد طمأنتي أنَّه هنا إلى جواري، بينما اتجه إداريو الفريق لاتخاذ إجراءٍ بديل، قرروا مُراضاة الرجل على حسابي، وجدوا أن عليهم منعي من دخول المباراة، قرروا وضعي على مقاعد البدلاء على أن لا أنزل أرضية الملعب هذه المباراة، لكن الرجل رفض، وصرخ مُغَاضِبًا وهو يقفز يسارًا ويمينًا:



- يتم فصله من النادي، والآن .. لقد أحرز 74 هدفًا مُستغلًا بنيته الأفريقية وسنه الأكبر من باقي اللاعبين

نظر إليّ حاقدًا وقد بدت رغبته الشديدة في لطم وجهي، كان صغيره كابتن الفريق الآخر يرمقني بنظرات استعلاءٍ واستهجانٍ مليئة بالعنصرية هو وبعضٌ من زملائه، لم أجد أحدهم يتعاطف معي، شعرتُ أنني وحيدٌ تمامًا إلّا من ڤيني ڤرانس الذي بكى هو الآخر على إثر بكائي، توترت الأجواء بشدة، تراجعتُ خطوةً للوراء من فوري، تمسك ڤيني ڤرانس بيدي كأنه يحثني على الثبات، شعرتُ بسوء الحظ، أردتُ أن أصيح صارخاً: ماذا سأفعل الآن؟ وكأن المصائب تكالبت فجأة عليّ، أشعر أنني أسير وسط حقل ألغام، كل شيء حولي قابل لأن يكون موضع انفجارٍ في أي لحظة، رأيتُ الفئران تنتشر في كل مكانٍ تضحك عليّ، شعرتُ للحظةٍ أنني انتهيتُ.

دخلتْ قطعةٌ من الغيوم السوداء أسفل الشمس، خيَّم الظلام على المحيط الداخلي للملعب، لم تكن الكشافات الكبيرة قد أُضيئتْ بعد، فكرتُ لو أهرب،



أغمضتُ عينيَّ بشدة غيرَ مُصدقٍ لما يحدثُ لي، تزايد البُكاء، أنفاسي مُحتبسة، شعرتُ بألمٍ شديدٍ أيسرَ صدري.

بدأ اللاعبون في الاستعداد لدخول أرضية الملعب من دوني، كانت إدارة فريق ليرس قد توجهت نحو إداري المُباراة تستبدل اسمي باسم لاعبٍ آخر، محاولة أخيرة منهم لاسترضاء الرجل الذي كان يبتسم وقد شعر أنَّه قد انتصر لابنه على حسابي.

صعدنا بعضَ الدرج، وصلنا إلى الأعلى حيث أرض الملعب، عمَّ صمتٌ غريبٌ في المكان، المدرجات الممتلئة بعائلات اللاعبين و أقاربهم مع أصدقائهم وأعضاء النادي والذين كان صراخهم يملؤُ المكان، أصبحوا جميعهم بلا صوت، كأن أحدهم قد ضغط زرًا ألغى به صوت الجميع، وقعتْ عيناي على المدخل المواجه لأرضية الملعب من الجانب الآخر، لم تكن الشمس قد خرجتْ من خلف الغيوم السوداء بعد، صدر صوت نعيق غرابٍ في السماء، ردد النعيقَ من بعده العشراتُ من الغربان، شعرتُ أنها علامة ما، ظهر في



الجانب الآخر من الملعب كائنٌ بدا لي أنَّه عملاق وإن لم يكن كذلك، خرج من الباب المواجه لنا في الجهة الأخرى، كان مُندفعًا في غضبٍ باتجاهنا، تخطى الحاجز المحيط بأرضية الملعب، قطع ساحة الملعب بالعرض قادمًا صوبنا مباشرةً رغم أنه يمنع على الجميع أن ينزلوا إلى أرضية الملعب، بَدَتْ لي الأرض كأنها تهتز أسفل الأقدام المتحركة صوبنا، كاد الكائن العملاق أن يصل إلينا، عندها خرجت الشمس من أسفل الغمامةِ السوداء، عادت الأضواء مُجدَّدًا، سقطت أشعةُ الشمس من السماء على وجه الكائن، ظهرتْ أدولفين واضحةً تمامًا وبجوارها چوردان الذي أتي بها، سقوطُ أشعة الشمس على وجهها جعلهُ مُضيئًا، كذلك عيناها السوداوان أصبحتا كحبات الزيتون الؤلؤي اللامع، كانت وكأنها جُند اللّٰه الآتي إليَّ من السماء.

نظر الرجل وجميع من حولي من إداريي الفريقين إليها مُستغربين في حيرة، وقبل أن ينبس الرجل بكلمةٍ واحدة، قلتُ لهُ وقد تهلل وجهي المبلل بالدموع:



- الأم أتت لتحرس ابنها

صرخ چوردان في غضبٍ ملؤهُ الشعور بالقوة وهو يشير بسبابته في اتجاه الرجل:

- لقد جاءتك أدولڤين، جئتُ لك بمن تخيفك كما أخفتَ روم

وقفتْ إلى جانبي مُباشرةً، تفور منها عاطفتها المتقدة، ترمق الرجل بنظراتٍ غاضبة كالنيران كادت تحرقه، بِبطءٍ شديد وبرفق تلمستُ بيدي يديها، أردتُ التأكد أنَّها هُنا وأنَّ هذا ليس حلمًا.

سأل الرجل:

- من السيدة؟

قاطعتْه أدولڤين قبل أن يضيفَ كلمةً أخرى، وكانت تُخرج مِن حقيبة يدها الأوراق المطلوبة والتي تُثبت هويتي وميلادي وأنني بلجيكيٌ. بعد أن أخرجتها



لوحت بها في وجههِ ثم أشارت إليهِ بسبابتها وقالت لهُ بغضبٍ تعمدتْ عدم إخفائهِ:

- ما الذي تفعلهُ أنتَ هُنا؟

ثم استرسلتْ في الحديث بغضبٍ أكثر وقد تركتْ مساحة بين كل كلمة والتي تليها:

- ومَنْ .. سمح .. لك .. بمضايقة .. صغيري؟

شحُبَ وجه الرجل الذي تراجع خطوتين للخلف على خلفية ما يحدث. بعد الاطلاع على الأوراق تأكد للحكام وإداريي المُباراة أني بلجيكي، وأني بعمر الأحد عشر عامًا، وسمحوا لي بعدها بالدخول إلى أرضيةِ الملعب ضمن لاعبي الفريق، وشعر الرجل بالإحباط الشديد، اسودَّ وجههُ تمامًا كأنه مريض وارتدَّ خَاسِئًا وهُوَ حَسيرٌ. نظرتْ أدولڤين إليهِ مُبتسمةً ولسان حالها يقول: الأم دائمًا هُنا.

بينما بدأ الفريق في التوجه نحو أَرْضِيَّة الملعب، شعرتُ برغبة ملحة في توجيه الحديث إلى الرجل



الذي أرعبني وجعلني أبكي، أردتُ توجيه رسالةٍ مخيفة إليه، هناك لحظاتٌ لا خيار للمرء فيها سوى ركوب المخاطرة، وأتذكر كم كنتُ غاضبًا حينها عندما قلتُ له:

- سأقتل ابنك الآن .. أقسم أنك ستذهب برفقته في سيارتك إلى المنزل وهو يبكي بسببي

دخلتُ أَرْضِيَّة الملعب، ولعبتُ ضد صغيرهِ بعنفٍ شديدٍ أقوى بكثيرٍ من كل مرة لعبتُ فيها كرة القدم، لم أفعلْ ذلك وحدي، حتى ڤيني ڤرانس رغم أنه كان يملك بنية جسدية ضعيفة إلَّا أنَّهُ لعب بعنفٍ متعمدٍ ضد الحقير، ولم تنتهِ المُباراة إلَّا وحققت كلمتي، حيث كانت الكرة بين قدمي ڤرانس عندما وجدني في مسافة قريبة من الولد فأرسل الكرة إليّ مباشرة وهو يصرخ :

- بوم بوم بوم

وكانت تلك إشارةً وإيماءةً منه أن أُصوب الكرة على الولد وفعلتُ ذلك على الفور، فخرجتْ الكرة مندفعة



بقوة شديدة لتصطدم بأنفهِ مُباشرة وتسقطه أرضًا، وتسببتْ تلك التصويبة القوية في تعرضه لنزيف من الأنف خرج على أثره من الملعب باكيًا متوجهًا صوب والده لا صوب إدارة فريقه. وانتهت المباراة لصالح ليرس بعد أن هزمناهم هزيمة كبيرة.

* * *

باتجاه المنزل، مشيتُ وأدولفين برفقة چوردان وفرانس نضحك بصوتٍ عالٍ تمامًا، كان چوردان يحكي ضاحكًا بحماسٍ شديد، كيف أنَّه غادر الملعب فور رؤية الرجل يضايقني، قال: «كنتُ أسرع من الطائرة وأنا أجتاز الشوارع الرئيسية وأمر بين الحافلات، ثم دخلتُ الضواحي الشعبية والأزقة الخلفية حتى وصلتُ المنزل، صرختُ بأعلى صوتي: أدولفييييييييين، أدولفين، أدولفين، نحتاجُ اليكِ. ظننتُ للحظةٍ أنها سوف تأخرني كثيرًا في العودة إليك، خشيتُ أنها سوف تكون بطيئة السير والتحرك، لكنني وجدتُها تجتاز الشوارع أسرع مني، اكتشفتُ أنها



أخفُ من جناح فراشة وأنَّ لا شيء يقف في وجه أدولفين حينما نحتاج مُساعدتها».

أما عن ڤرانس فقد قال لي شيئًا لا يمكنني أبدًا أن أنساه: «أمسكتُ بيدك وبكيتُ معك، لم أكن أستطيع فعل شيءٍ غير ذلك، خِفتُ عليك كثيرًا يا روووم».

* * *

فرنسا - نهاية 2004م

توجهنا إلى مدينة ليل – lille، للعب دورةٍ كبيرة هناك، وكان حذائي مُمزقًا تمامًا، ولم يعد صالحًا للاستخدام، بيد أنَّني لم أكن أستطيع استبداله، لكنني فوجئتُ قبل انطلاق مباريات الدورة بالمدرب ستيف دي بايرز وقد أحضر لي حذاءً رائعًا، لائقًا تمامًا على قدميَّ، قال لي وهو يضعه في قدميَّ :

- أنتَ تستحق ذلك، دعهم يشاهدوا ما تستطيع فعله



قبل الخروج من الفندق باتجاه ساحة الملعب، حضر ڤيني ڤرانس وأخبرني بعينين لامعتين إستبدَّت فيهم نظرةٌ ذات مغزى مفادها أنَّه يخفي مفاجأةٌ ما :

- لديّ مُفاجأةٌ لك

- ما هي؟

- لا .. لن أخبرك .. عندما نصل إلى الملعب سوف أعطيها لك.

حمل حقيبة ظهرهِ وكانت منتفخة تمامًا عن آخرها، بدا لي أنَّهُ حمل في داخلها شيئًا كبيرًا، مَشينا سويًا باتجاه الحافلة وكان الشغف يقتلني كي أعرف ما الذي يخفيه عني ڤرانس، وما هي المفاجأة.

في غرفة تبديل الملابس بدأنا نتجهز للمباراة، عند استبدال الملابس كانت عينا ڤرانس تترقبني وكنتُ أعلم ذلك حيث كنت بدوري أترقبهُ، إلى أن وصلتُ لأرتداء آخر شيءٍ وكان الحذاء، فإذا بهِ يندفع نحوي بعد أن أخرج حذاءً جديدًا من حقيبته وقال صارخًا :



- روووووووم، لن تلعب بحذاءٍ قديم بعد الآن، أحضرتُ لك حذاءً جديدًا

فجأة أصبح لديَّ حذاءان جديدان رائعان، أحدهما من مدربي والآخر من صديقي، وقد فضلتُ حذاء الصديق، انتعلتُهُ بيديهِ، حيث كان ضيقًا قليلًا فساعدني في انتعاله. كانت البطولة الأجمل، لعبتُ جيدًا للغاية، كنتُ موفقًا تمامًا، الجماهير الفرنسية والصحافة هللتْ وصرختْ وفزَّتْ في المدرجات فرحًا وانبهارًا مع كل هدفٍ أحرزتُه. انتهت البطولة، حصلتُ على لقب أفضل لاعب فيها، وكان هذا شيئًا رائعًا جعلني أتفاءل بالقادم .

الأمور لا تسير أبدًا على ما يرام، عُدتُ إلى بلجيكا بعد أيامٍ وقد عزمتُ على الاتصال بجدي لأدولڤين في الكونغو، كان واحدًا من أهم الأشخاص في حياتي،

كان الرابط الوحيد لي مع الكونغو الديمقراطية، كما أنني كنتُ أعتقد أنَّهُ صاحب ذلك الإصبع الذي غُرس في روحي يوم كنتُ على شاطيء بحر الشمال والذي



جعلني أقوى من الداخل وأعطاني العزيمة على الكفاح، كنتُ على الهاتف معه في ذلك اليوم، وقلتُ لهُ في حماسٍ شديد:

- جدي .. أنا أعمل بشكل جيدٍ جدًا هنا، سجلتُ 76 هدفًا، كما أننا فزنا بالدوري، الفرق الكبيرة جميعها تراقبن.

كان جدي عادة ما يرغب في سماع أخباري مع كرة القدم، كم مباراة لعبتُها، كم هدفًا فيها أحرزت، هل جلستُ احتياطيًا على مقاعد البدلاء؟ هل هناك لاعب أفضل مني في صفوف الفريق؟ لكن هذه المرة كان ردُّهُ غريبًا، قاطعني قائلًا:

- نعم، روم، نعم هذا أمر عظيم، لكن هل يمكنك أن تُقدِّم لي معروفًا؟

- نعم، ما هو؟

- هل تستطيع أن تعتني بابنتي من فضلك؟

ارتبكتُ قليلًا وقلتُ :

- ماذا تعني يا جدي؟

واسترسلتُ مُستغربًا :

- أمي؟ أدولقين؟

نحن بخير تمامًا يا جدي

- لا .. عِدني أنك سوف تعتني بها .. أرجوك عليك أن تعدني بذلك، مجرد أنك تُلقي النظر على ابنتي هذا يعني الكثير بالنسبة لي

- نعم جدي فهمتُ، أعدك بذلك

بعد خمسة أيام فقدنا الجد، فهمتُ ما كان يقصد من هذه المكالمة، كان يشعر أن رحلته في هذا العالم قد انتهت ويريد أن يطمئن ولو قليلًا على ابنته الوحيدة، وفاتهُ جعلتني حزينًا لأني تمنيتُ لو يعيش قليلًا لأجل



أن يراني ألعب لأندرلخت، وليرى أنني سوف أحافظ على وعدي ويدرك أن كل شيء على ما يرام.

كان فراقهُ حدثًا حزينًا، انتهكَ وأنهكَ روح أدولڤين، جعلها في حالةٍ نفسيةٍ سيئة، أصبحت على أثرها شاحبة الوجه، صامتة، قليلًا ما تتحدث. كنتُ أواسيها كثيرًا، في محاولة جديّة لانتشال الحزن منها، إذ أنني كنتُ مدركًا تمامًا ما معنى أن تواجه موجةً ضخمة بداخلك، ولا تستطيع إخبار أحد عنها لينقذك، مدركًا أنّ الحزن يبدأ بصدمة بعد الفقد، ثم يصبح حارًّا ثقيلًا لاويًا القلب حارقًا له، ثم يبدأ بفرد طبقاته داخل الروح طبقةً فوق أخرى، فترى حزن الكلمات التي ذهبت، الكلمات التي بقيت بلا أمل أن تُقال، ثم حزن الأيام الفارغة مِمَن أحببتهم إلّا منك، ثم حزن المواسم والذكريات، ثم حزن الوحدة والوحشة ثم حزن السنوات. لكن، لا يجب علينا أن نستسلم للحزن، يجب أن نستفيق منه بسرعة، لأن الهزائم لا تتوقف بل تأتي تباعًا، وهذا ما حدث، إذ أنَّ نادي ليرس وقع في ورطة بعد فترةٌ قليلة، أزمة حدثت بسبب التلاعب في نتائج



المباريات أدت لهبوطه إلى دوري الدرجة الثانية، عند ذلك اضطر للاستغناء عن لاعبيه الشباب، فأصبحنا بلا نادٍ نلعب ضمن صفوفه.

شعرت باليأس، توجهتُ إليها وكانت بدورها مستسلمة لليأس على أثر فقدان والدها، قلتُ لها :

- لقد فقدتي والدك، لا تجعليني أنا الآخر أفتقدكِ

عند قول ذلك استفاقتْ أدولقين من أجلي، تناست مصيبتها في فقدان جدي، ووقفتْ إلى جانبي تدعمني مجدّدًا كما اعتادت في كل مرة، ولم يكن هناك مكانٌ لليأس بداخلي ..فأنا مؤمن تمامًا أنَّ الفشل أو العقبات ما هما إلّا هزيمة مؤقتة تخلق لك فرص النجاح، كان يلاحقني دائمًا شعورٌ أن هناك شيئًا رائعًا سوف يحدث وأنه وشيك مهما كانت الصعوبات، وأنَّ عليَّ الاستعداد، وعلى الرغم من كل ما حدث في حياتي من أحزانٍ إلا أنَّ اليأس أبدًا لم يستطع أن يتملك مني، أنا لا أفهم من اليأس درسًا، كل الدروس التي فهمتُها كانت من الأمل وكانت لحث الخطى قدمًا، وما تفكر بهِ هو ما يأتيك.



شعرتُ بخوف أدولفين عليّ، كما استشعرتُ الحزن في حديثها عن ليرس وما حدث، فأخبرتُها مواسيًا:

- سأوقع لأندرلخت يوم ميلادي، أعدك بذلك

اليقين هو أن تتشبث بالأمل في أشد اللحظات ضعفًا وصعوبة، وهذا ما أجيده، فليس كل شيءٍ سيءٍ يبدو كذلك. ورطة ليرس كانت خيرًا مُخبأً في شكل شرٍ، حيث إنها أتاحات الفرصة لانضمامي إلى أندرلخت، فقد تسبب هبوط ليرس في أن تسارعتْ أعين الكشافة تبحثُ وسط شبابه عمن يصلح كصفقةٍ يمكنهم من خلالها الحصول على بعض الأموال.

تحدث ديرك چاسيلينكيكس، الرجل الذي اكتشفني في روبل بوم وساعد في انتقالي إلى ليرس إلى چين كينديرمانسم، مُنسق برامج الناشئين في أندرلخت، قال :

- لديَّ لاعبٌ مميزٌ للغاية، سريعٌ، قوي البنية، كان بعمر الحادية عشرة عندما تلقيتُ مُكالمة من صديق لي



والذي قال إنه شاهد لاعبًا مميزًا في روبل بوم

وأضاف :

- حينها كنتُ أعمل في ليرس، قمتُ بالذهاب على الفور لمشاهدته، أبهرني تمامًا من المباراة الأولى، قمتُ بضمه لفريقي، صدقني إنَّهُ صفقةٌ رابحة بكل المقاييس. إنَّهُ حقًا ممتاز، ليس على مستوى اللعب فقط، بل حتى في طبيعته، إنّهُ هادئٌ ومرحٌ، يتحكم بأعصابه، يُحب سماع التعليقات الإيجابيّة من الآخرين، يتجنب الحديث حول المواضيع المتعلقة بأي شيءٍ غير العمل، كما أنَّهُ يُحسن معاملة الآخرين، يقدّم لهم المساعدة دائمًا، مُصغٍ جيدٌ، يتجنب الجدال والنقاشات الحادة، عفوي وصريح، إنَّه على المستوي الإنساني ناشئٌ رائع، ولدينا اعتقاد سائد يقول: من يتميزون بحسٍ إنساني عالٍ هم من يتفوقون ويكون لهم شأنٌ عظيم فيما بعد.

كان حديث ديرك چاسيلينكيكس مع منسق الناشئين في أندرلخت شيقًا، إذ أنَّه قام بتلميعي جيدًا، لكن ذلك لم يكن سببًا كافيًا لإتمام انتقالي إلى صفوف



الأكاديمية لديهم، إذ كانوا يرفضون تقبُل لاعبين من خارج بروكسل، أمّا السبب الرئيسي لانتقالي فقد كان تدخل روجر في الأمر، بعد أن حصل على إجازةٍ من عمله، وذهب إليهم، فحظى بمقابلة چين كينديرمانسم، وقال له :

- إنَّ مركز تدريب أندرلخت يقع في ضواحي العاصمة البلجيكية بروكسل، بين الشاليهات والمتنزهات الإقليمية الرائعة والمعاهد التعليمية، لماذا لا يستغل النادي ميزة الموقع؟ ويبدأ في استغلاله؟ يبدأ على الفور بالتعاون مع المدارس والمعاهد التعليمية من حوله، فيحصل على لاعبين صغار السن مجانًا، يقوم بتهيئتهم ليكونوا لاعبين كبارًا، إنها تجارةٌ مربحة، كما أنها مُفيدة للمنتخب البلجيكي فيما بعد.

استطاع روجر إقناع چين كينديرمانسم بفكرته، خاصة بعد أن أثبت له أنني، روم، قد ذاع صيتي وأنا في الخامسة عشرة من العمر، وجذبتُ أنظار الكثير من الأندية. منها أندية ليل ولنس وأوكسير وسانت اتيان الفرنسية، وجميعها ترغب في الحصول على خدماتي،



بل إن جميع هذه الأندية عرضت التكفل بتكاليف الدراسة والإقامة وتعليم كرة القدم، أي أنها تكفلت بكل شيء. ولا يمكن أن تفعل أندية كبيرة مثل هذه الأشياء إلّا إن كانت هناك استفادة وربح خلف ذلك.

اقتنع چين كيندريرمانسم، وبعد أشهر قليلة بدأ مشروع المواهب الشابة. كان أول ما بدأ به صفقة شراء جماعية بلغ تعداد لاعبيها ثلاثة عشر شابًا من ليرس ، كنث وچوردان على رأسها، المؤسف في الأمر أن هذه الصفقة لم تشمل ڤيني ڤرانس، ولم يعد في نفس الفريق الذي ألعب له بعد هذه الصفقة. وكان لهذا الأمر أثرٌ مؤسفٌ وحزينٌ في نفسي.

في وقتٍ مُتأخرٍ من مساء اليوم نفسه الذي تمت فيه الصفقة، اتصل بي، وأجبتُهُ مع أول رنَّةٍ للهاتف، فسألني بصوتٍ بدا لي مُتهدجًا مُختنقًا بالدموع، قال مُتردِّدًا وهو يترك مسافة بين كل كلمة والتي تليها:

- روم .. نحنُ .. كما نحنُ، أليس كذلك؟



- أقصد .. سنتقابل .. نتحدث .. نظل مقربين

بصوتٍ مرتفع للغاية، ضحكتُ مقهقهًا ومتهكمًا على ما يقوله وأنا أقول:

- أنت مجنون ڤيني ڤرانس، أليس كذلك؟ .. مجنون .. لا يمكن لروم أن يتخلى عن نفسهِ، إنك أنا بطريقةٍ ما يا ڤيني

* * *

في أكاديمية أندرلخت، لا مكان للتراخي، التدريبات شاقةٌ على المستوى البدني، متقدمة جدًا ومُحفزة على المستوى الذهني، كان أول تدريب لنا مُتمثلًا في الركض حول بحيرة قريبة من النادي، ثم العودة إلى صالة الألعاب الرياضية لاستكمال تدريباتٍ بدنية شاقة. في المحاضرة الأولى بدأ المُحاضر حديثه قائلًا:

- (العمل الشاق يتغلب على الموهبة وحدها). لا نحب أن نغمر عقول الأطفال بالكثير من المعلومات، من الأفضل أن تعمل بشكلٍ مكثف لفترات قصيرة من



الوقت بدلًا من القيام بالأشياء نفسها بوتيرة أبطأ لفترة أطول.

من المهم أيضًا الاهتمام بالتنشئة الاجتماعية مع الناس وبالهوايات والاهتمامات المختلفة، نحن هنا عائلة، علينا تقويمك وتربيتك جيدًا في كل شيء، نحن نحاول أن نستقطب أفضل اللاعبين في بروكسل قبل أن ننتقل إلى مرحلة اللاعبين تحت ثلاثة عشر عامًا، وخلال فرق الناشئين الأقل من ست سنوات وحتى الأقل من اثني عشر عامًا نركز فقط على اللاعبين الذين يعيشون في المنطقة التي توجد بها الأكاديمية، لكن مؤخرًا قررنا بناءً على الشخصية والعمر والثقافة والآباء، أن نبدأ النظر إلى الشباب الذين يعيشون في مناطق أبعد إذا كانوا مميزين جدًا، لكن من الصعب جدًا أن تأخذ صبيًا في هذه السن الصغيرة من أسرته، لذا إن حدث، نصبح نحن أسرته البديلة.

نحن نتعامل مع كل طفلٍ بطريقة مُختلفة، فلدينا الكثير من الديانات والثقافات واللغات والقوميات المتنوعة هنا، وكل فردٍ يتفاعل بطرق مختلفة. نحن



نتكيف مع جميع الخلفيات التي يأتي منها اللاعبون، وما يصنع الفارق هنا هو المهارة والتفكير الصحيح. يمكننا أن نقول إنَّ نادي أندرلخت مثل الشارع، فنحن مرآة للمجتمع، وبروكسل مثل لندن أو باريس أو أي مدينة كبيرة أخرى، وتمثل التعددية الثقافية ميزةً كبيرةً بالنسبة لنا، ولننظر على سبيل المثال إلى فينسينت جان مبوي كومباني، إنَّه لاعب كرة قدم بلجيكي، مولودٌ لأم بلجيكية وأب أفريقي كونغولي، له عائلة متواضعة ماديًا، لم تكن تمتلك سيارةً فاخرةً، تلقى تعليمه في وسط بروكسل. كان كومباني يستقل الترام إلى هنا، ثم حافلةً ليليةً للعودة إلى منزله في وقتٍ متأخر بعد التدريب. لقد تأثر بالشارع، وهو الآن لاعبٌ مميزٌ ومشهور، لقد صنع من نفسه نجمًا في عالم كرة القدم مستغلًا ما تعلمه في أكاديمية أندرلخت. لذا عليكم أن تقتدوا به.

***

رهان مجنون

أندرلخت - 2009م

تبدلتْ طريقة لعبي كثيرًا، تطورتُ للغاية بفضل ما أتعلمه في أندرلخت، المباريات التي ألعبها ضمن صفوف شباب الأكاديمية بجانب طريقة اللعب، أفادتني للغاية، لكنني أطمح فيما هو أكثر من ذلك، لا أريد اللعب في صفوف شباب الفريق الثاني فقط.

ذاتَ مساء، دلفنا إلى الملعب، الفريق الثاني بالكامل مع الإداريين بقيادة المدرب العام، كنتُ متوترًا للغاية، تعتريني حالةٌ من القلق والحيرة التي لا تفارقني، أفكر كثيرًا في جديةٍ كيف سأحصل على عقد احترافي وأنضم إلى الفريق الأول، كان ذلك اليوم الأكثر جنونًا في حياتي، كنا في بداية الموسم، بعد الإحماء كانت تنتظرني مفاجأة، طلب مني المدرب المشاركة بعدما كنتُ مُهملًا على مقاعد البدلاء لوقتٍ طويل، قلتُ لنفسي:



- كيف سأوقع عقدًا كمحترف في عيد ميلادي السادس عشر، إذا كنتُ لا أزال على مقاعد البدلاء في الفريق الثاني؟ لابد وأن أفعل شيئًا.

قمتُ بمحاولة استغلال الفرصة، راهنتُ مدربي، قلتُ له:

- لو أشركتَني أساسيًا، سأضمن لك تسجيل خمسة وعشرين هدفًا قبل ديسمبر

ضحك كثيرًا، و كانت ضحكتهُ مليئةً بالسخرية

قلتُ له:

- إقبل العرض .. وسترى

وافق .. لكنه قال لي مؤكدًا:

- لو لم تسجل خمسة وعشرين هدفًا قبل ديسمبر، ستعود إلى مقاعد البدلاء إلى الأبد



وافقتُه، لكنني اشترطتُ عليهِ في حال فوزي سيقوم بإشراكي أساسيًا طالما وُجِدتُ في صفوف الفريق، كما أنهُ سيقوم بتنظيف جميع السيارات الصغيرة التي تقل اللاعبين إلى المنزل بعد التدريب، وبدوره وافق، قلتُ أيضًا ستحضر لنا جميعًا الفطائر يوميًا، ووافق بالطبع، وكان هذا أغبى رهانٍ قام به هذا الرجل في حياته، حيث سجلت خمسة وعشرين هدفًا قبل نوفمبر/ تشرين الثاني وكنا نأكل الفطائر قبل عيد الميلاد على نفقتهِ الخاصة.

لم تتوقف الأمور عند ذلك، حيث كان هذا الرهان أحد أسباب حصولي على موعد من أجل توقيع عقدٍ احترافي مع الفريق الأول لأندرلخت في 24 مايو/آيار 2009، أي بعد أحد عشر يومًا من موعد ميلادي، وكان ذلك تحقيقًا لوعدي الحديث مع أدولقين بأنني سأتعاقد مع أندرلخت في عيد ميلادي السادس عشر، وسببًا أيضًا في تحقيق وعدي القديم لها عندما قلتُ وأنا في السادسة:



- لا تبكي أدولفين .. لا ينبغي لك أن تذرفي الدمع وأنا هُنا .. الأمور ستتغير وسوف ترين، سوف ألعب كرة القدم في أندرلخت .. ستتحسن الأمور فلا داعي للقلق بعد الآن، أنا هُنا.

* * *

في 24 مايو 2009م، وقعتُ العقد الرسمي مع أندرلخت وحصلتُ على مبلغٍ مالي ضخم، خرجتُ فورًا من مقر النادي باتجاه الشوارع الرئيسية في أنتويرب، اشتريتُ لعبة FIFA الجديدة، حصلتُ أيضًا على اشتراك دوري أبطال أوروبا، اشتريتُ بعض الملابس والهدايا من أجل أدولفين وروجر وچوردان، وبالطبع لم أنسَ صديقي ڤيني ڤرانس. مشيتُ في الشوارع متباهيًا بنفسي، تجتاحني موجات الحماس الشديد، «سوف أحقق الأحلام» هذا ما رددتُه في نفسي.

في المنزل أحضرنا سفرةً رائعة، قامت أدولفين بملئها تمامًا بالمأكولات التي نحبها والتي لم نحظَ بفرصة تذوقها منذ وقتٍ بعيد، لحوم مشوية، قطع أسماك



الفيليه من أجل روجر، حلويات بالقشدة الفاخرة، وحلوى الكراميل بالبندق من أجل ڤيني ڤرانس الذي ذهبتُ إلى منزله وأصطحبتُه معي .. كان يومًا رائعًا علينا جميعًا.

رغم التعاقد إلّا أنني بقيتُ ألعب ضمن صفوف الفريق الثاني لأندرلخت، في ستٍ وسبعين مباراة استطعتُ إحراز ثلاثة وثلاثين هدفًا، كان ذلك رقمًا قياسيًا في الفريق. وصلنا نهاية الموسم وكان الدوري البلجيكي مجنونًا في ذلك العام، لأن أندرلخت وستاندرد لييج انتهيا بالتساوي في النقاط، جلست الجماهير في كل مكان تفكر، من سوف يحسم الدوري؟ كذلك اجتمعتْ إدارة كل فريق وبدأتْ في بحث خطةٍ جيدةٍ لأجل المباراة النهائية، فقد قُرر أن الحسم سيكون عبر مواجهةٍ فاصلة من مباراتين ذهابًا وإيابًا. كتبتْ الجرائد الورقية وكذلك الإليكترونية الكثير عن الموقعة الفاصلة، لاقت المباراة أصداءً كبيرة في كل مكان في بلجيكا.

في مباراة الذهاب كنتُ أتابع المباراة من المنزل كباقي المشجعين، رافقني روجر و چوردان وقيني ڤرانس وبعض الأصدقاء من الضاحية، كان ذلك شيئًا صعبًا على نفسي، لكن في اليوم الذي سبق مباراة العودة تلقيتُ اتصالًا من مدرب الفريق الثاني، قال لي فيه:

- مرحبًا، أهلًا روم، ماذا تفعل؟

قلتُ:

- سأذهب للعب كرة القدم في الحديقة

لكنه قال عبر الطرف الآخر من سماعة الهاتف:

- لا لا، احضر بحقائبك الآن

ولم تكن لدينا تدريبات يومها، فسألتُه:

- لماذا؟

- الفريق الأول يريدك .. الآن يجب أن تكون في الملعب



أجبتُه في دهشة، غير مصدقٍ لما أسمعه، بكل ما أملكه من حماس، قلت:

- نعم؟!

لم يعطِني فرصةً للإجابة، أغلق السماعة في الجهة الأخرى.

نهضت سريعًا، اجتزتُ الشوارع مُنطلقًا بأقصى ما لديّ، ذهبتُ للملعب فورًا ومنهُ إلى غرفة خلع الملابس، بينما وقفتُ آخذ قسطًا من الراحة وأتأمل المكان سألني عامل الملابس :

- أي رقم تريده أيها الطفل؟

- أعطني الرقم 10

ضحك العامل بصوتٍ مرتفع وهو يغمغم:

- طفلٌ حالم

كنتُ صغيرًا ولا أخشى أحدًا، كان لاعبو الأكاديمية يرتدون الأرقام من 30 فما فوق، لكنني أردتُ رقمًا مميزًا كاللاعبين العظماء، وأمام عدم توافر ذلك، حصلتُ على رقم 36. قلتُ لهُ وأنا أوجه الحديث أيضًا إلى نفسي:

- ثلاثة زائد ستة تساوي تسعة، هذا رقم جيد، لذلك أعطني 36.

ذلك اليوم .. شاركتُ ضمن التدريبات الختامية مع الفريق الأول لأندرلخت، في صباح اليوم التالي ذهب ڤيني ڤرانس لمنزلي يسأل ما إذا كنتُ سأذهب معه للعب في الحديقة، فأخبرتْه أدولڤين أني ألعب بالخارج، وعندما سألها: أين؟ قالت بكل فخرٍ:

- في النهائي، مع أندرلخت

علمتُ بعد ذلك أنَّهُ حزن حُزنًا شديدًا لأني لم أخبره بالأمر.

* * *



توجهت الحافلة نحو ملعب أندرلخت، كونستانت ڤاندن ستوك، وأمام الملعب، نزلنا منها واحدًا تلو آخر مُنظمين تمامًا، مشى الجميع باتجاه الملعب، وكانوا يرتدون ملابس رياضيةً بسترة رائعة إلَّا أنا، كنتُ أرتدي سُترةً رياضية بشعة، وكانت كاميرات القنوات الرياضية التي حصلتْ مُسبقًا على حقوق بث المباراة قد رُصَّتْ على الجانبين تنتظر وصولنا، لكن جميعها كان مُصوبًا في وجهي، لكني لم آبَه لذلك، خبأتُ كفّيَّ في جيبيَّ، حاولتُ أنْ أبدو كمن هو واثقٌ من نفسه، عندما تتفهم أنك المسؤل عن حياتك، وأنَّ ما مِن أحدٍ سوف يعينك أو ينقذك، ما مِن أحدٍ سوف يصلحك أو يساعدك، فأنت لا تهتم، اهتمامك بمثل هذه الأشياء يُعد تضييعًا لوقتك ومجهودك، ببساطة أنتَ فقط من يملك القدرة على تحمل مسؤوليتك والمضي بحياتك قدمًا، بمجرد أن تقوم بهذا، حياتك ستنطلق، لا يهم من أين أتيتَ، لا يهم مُطلقًا، هناك من أتوا عبر الصحراء القاسية و الغابات الموحشة، هناك من أتوا عرايا، وولدوا في أسوأ الظروف، لكنهم نجحوا لأنهم فقط لم يأبهُوا للمظاهر بقدر ما اهتموا لما سوف يصبحون عليه

إن تحملوا المسؤولية، لا يهم من هي والدتك، ماذا تفعل، من هو والدك وأين وصل في أعماله، ما يهم هو الآن، هذه اللحظة الحاسمة، ومدي استعدادك لها، فمن أجل النجاح يجب أن تتحرر من الماضي وتنظر إلى الأمام، وهذا ما فعلته هذه الأثناء.

بمجرد أن وضعتُ قدمي في غرفة خلع الملابس بدأ هاتفي في الانفجار من الاتصالات، كان الجميع يراني على شاشة التلفزيون، تلقيتُ خمسًا وعشرين رسالة في ثلاث دقائق، كان أصدقائي مجانين حقًا، سألوني :

- لماذا أنتَ في الملعب؟

- روم ما الذي يحدث؟

- لماذا أنتَ على الشاشة؟

لم أُجِب أيًّا منهم، الشخص الوحيد الذي أجبتُ رسالته كان ڤيني ڤرانس، لم يكن صديقًا كان أنا بطريقة ما، رجلي الذي أعتمد عليه، لم يعاتبني أنني لم أخبره، لم يسألني غاضبًا: «لماذا أخفيتَ الأمر عني؟»



اهتم فقط لما أنا فيهِ، وهذا شيءٌ رائعٌ بشدة في الصداقة التي جمعتنا، كانت رسالته حماسية حيثُ لم يهتم إلاّ لأنني في الملعب، فكتب يحمسني ويزيد من عزيمتي:

- روم .. لا يوجد من هو أفضل منك، مزق الشباك يا رجل

أرسلتُ إليهِ :

- لا أعرف إذا كنتُ سألعب أو لا، لا أعرف ما يحدث، لكن فقط واصل مشاهدة التلفزيون

بدأت المُباراة، لم أكن ضمن صفوف الأحد عشر لاعبًا الذين دلفوا إلى أرضية الملعب، جلستُ على مقاعد البدلاء ضمن الصفوف الاحتياطية، كنتُ الأصغر سنًا فيما بينهم، لكنني كنتُ ذا بنية ضخمة، كانت المباراة صعبة للغاية، مضى نصف الوقت وكنا مُتأخرين بهدف. في الدقيقة الثالثة والستين طلبني المدرب، ركضتُ إليهِ وعمري ستة عشر عامًا وأحد عشر يومًا، لن أنسى



ذلك أبدًا. كانت المدرجات مُمتلئة عن آخرها بمهاويس كرة القدم من عُشاق أندرلخت، ملأْث قلبي الرهبة، على الرغم من ذلك لعبتُ جيدًا جدًا، و مع ذلك خسرنا المباراة في ذلك اليوم، لكني كنتُ بالفعل أشعر كأنني في الجنة، لقد وفيتُ بوعدي لأمي وجدي، و كانت تلك هي اللحظة التي عرفتُ فيها أننا سنكون على ما يرام جدًا في أقرب وقت.

***



المسيرة المُظفرة

أندرلخت - 2010م.

جاءت فترة الإعداد للموسم الجديد جيدةً للغاية، استطعتُ إحراز عددٍ وفيرٍ من الأهداف في المباريات الودية التي لعبناها، كذلك استطعتُ لفت انتباه المدير الفني الذي لم يستطع إخفاء إعجابه بطريقة لعبي، وعمل على تطويرها .. قال:

- كنتَ في ليرس تلعب وحدك، من خلفك عشرة لاعبين يمررون إليك الكرة كي تسددها بيسراك في المرمى، وكنتَ متفوقًا. لكنك الآن لستَ في ليرس، أنتَ في أندرلخت، غير أنك لن تجد من خلفك هذا الكم من اللاعبين يُخدِّمون عليك، عليك أن تلعب بكلتا قدميك وتستخدم رأسك، عليك أن تخلق لنفسك فرصًا وتتعود على اللعب الجماعي أكثر.

كانت نصائحهُ هامةً وفارقةً معي، خاصة أن اللعب في أندرلخت بالفعل يختلف تمامًا عن اللعب في صفوف



أيّ فريقٍ آخر، فجميع الفرق أمام أندرلخت تُقاتل بشراسةٍ في محاولةٍ منهم لإثبات الذات وخوفًا من أن يتلقوا هزيمةً ثقيلة.

مع بداية الموسم كنتُ قلقًا أن يتركني المدير الفني حبيس مقاعد البدلاء كما فعل مدرب الفريق الثاني من قبل، لكن هذا القلق لم يستمر طويلًا. بعد ثلاث مباريات من بدء الدوري، كنتُ أجلس على مقاعد البدلاء أشعر بشيءٍ من القلق، أتساءل: «متى سوف تتاح لي فرصة لمس الكرة في الملعب؟»

كانت المباراة في الشوط الثاني عندما طُلب من جميع البُدلاء القيام بعمليات الإحماء اللازمة قبل الدفع بأحدنا إلى ساحة الملعب، عندها وفجأةً تصاعد عبر مكبرات الصوت، صوتُ المذيع الداخلي الذي جلس في المدرجات وسط عشرات الآلاف من المشاهدين للمباراة مفعمًا بالتحمُّس الذي لم يتمكَّن من احتوائه، وذُهل ذهولًا شديدًا لمّا رأي حجم اللاعب صغير السن الذي سمع وقرأ عنهُ في الصحف ووردته أيضًا معلوماتٌ تفيد بمشاركتهِ قبل المُباراة، قالوا عنه



القاطرة البشرية الآتية من قلب أفريقيا، قالوا أحد الأسود القادمة من الكونغو، لكنه عندما رآني أقوم بالإحماء لم يتخيَّل أن أكون بهذا الحجم الضخم رغم صغر السن المكتوب أمامه في ورقة تحتوي على معلومات جميع اللاعبين، على مسمعٍ من ملايين المشاهدين أنصفني وقال صارخًا ومُلحِنًا :

- كينغ .. كونغ .. بلجيكاااااااا، مُستقبل الشباب البلجيكي يُشارك الآن مع أندرلخت في الدقيقة الثامنة والستين من عمر المباراة بديلًا للمدافع فيكتور بيرنااااارديز.

رغب المدرب في إخراج بيرنارديز المُدافع وإشراكي كمهاجم، كانت المباراة تحتضر وأراد إنقاذ النتيجة، كانت ضِد فريق ستاندارد لييج، خسرناها بنتيجة 1 إلى صفر، لكنني لعبتُ فيها جيدًا جدًا واكتسبتُ بفعل إجادة اللعب طوال الاثنتين والعشرين دقيقة التي شاركتُ فيها مكانًا أساسيًا في الفريق.



عدتُ للمنزل، شعرتُ بالحزن للخسارة، جلس روجر إلى جواري وبدأ يحفزني؛ لا يوجد مكسبٌ دائم، لابد من خسارة كي تستحضر عزيمتك وقوتك لتفوز بعد ذلك، هكذا قال.

في المُباراة التالية كُنتُ مُتحمسًا للغاية، كنتُ موقنًا أن المدرب سوف يزج بي ضمن الأحد عشر لاعبًا الأساسيين من بداية المباراة، لم يكن روجر بالمنزل، ذهب إلى العمل، لم أستطع مقابلته كي أتحدث معه وأحصل منْهُ على النصيحة، شعرتُ بالخيبة جراء ذلك.

عند خروجي من المنزل باتجاه مكان إقامة المُباراة أخبرتُ أدولفين أنني سوف أسجل اليوم هدفي الأول مع أندرلخت تحديدًا في هذه المُباراة، وسألتُها:

- هل تصدقين؟

وكما جرت العادة، ردّدتْ قائلة:

- ستفعل .. أثقُ أنكَ ستفعل



ثَمَّة شعورٌ رائعٌ يخالج صدرك عندما يكون هناك شخصٌ يثق بك في كل وقتٍ وحين، يجعلك دائمًا تصدق حلمك ويدفعك نحو تحقيقه.

كانت المُباراة أمام زولته فاريجيم، تحديدًا في يوم 28 أغسطس 2009، حديث أدولفين قبيل المُباراة جعلني مُصرًا تمامًا على إحراز هدف، لم يكن مُتاحًا لي أن أخيب أملها، لم يكن مثل هذا الخيار مطروحًا على الإطلاق، قبيل المباراة بدقائق وردتني مُكالمةٌ هاتفيةٌ وكانت من روجر، لم ينسَني، إنَّهُ شيءٌ رائع ألَّا ينسى، هذا ما قلتُه لنفسي وأنا أستقبل المكالمة، جعلني اتصاله أبتهج، استمرت المكالمة ما يقرب من دقيقة واحدة ليس إلَّا، قال فيها :

- إلعبْ وكأن لا أحد من حولك، عليك أن تكون خفيف الحركة، لا تدخل وسط الزحام، استغل فرص التصويب من خارج الصندوق. لا تنسى، التصويب هو حلٌ فعالٌ جدًا أمام زولته فاريجيم، غير ذلك سوف تكون المباراة صعبة.



كان روجر يعرف الفريق جيدًا، حيثُ ورد إليَّ فيما بعد أنَّهُ تابع مبارياتهم على موقع اليوتيوب على مدار الثلاثة أيام المنصرمة قبل المباراة بغيَة اكتشاف طريقة لعبهم ومساعدتي، وجد أنهم يلعبون بطريقة التكتل الدفاعي أمام مرماهم، يشكلون زحامًا شديدًا، مما يجعل الخصم يجد صعوبةً في اختراق صفوفهم والتسجيل في مرماهم.

طوال مُدَّة المُباراة كافحتُ وقاتلتُ لأجل إحراز الهدف، لكن كما قال روجر، كانوا يصنعون زحامًا شديدًا أمام المرمى طوال الوقت، إلى أن حلّت الدقيقة التاسعة والثمانون وقد أوشكتْ المباراة أن تلقى حتفها، فقد لاحت لي فرصة التسديد من بعيد، كانت المسافة ربما تزيد عن الثلاثين مترًا، وهي ليست بالمسافة القليلة التي يمكن التصويب منها وإحراز هدفٍ، خاصة وإن كان حارس مرماهم مُتميزًا، عند ذلك تذكرتُ نصيحة روجر، (التصويب هو حلٌّ جيد)، لكنني ترددتُ للحظة، «المسافة كبيرة للغاية، المرمى



بعيد»، هكذا قلتُ، لكنَّ صوت أدولقين أتى صارخًا داخل رأسي:

- صوب يا روووووووم

وفعلتُ دون تردد، فانطلقتْ الكرة كقذيفة هاون لا يمكن لأحدٍ أن يتصدى لها، صاروخية لا تُصد، استقرت داخل المرمى وسط ذهول لاعبي الفريقين والمشاهدين في المدرجات وملايين المشاهدين عبر الشاشات. بعدها نفد الوقت لتنتهي المُباراة بفوز أندرلخت بذلك الهدف. كان هدفي الأول في الوقت القاتل من عمر المباراة بمثابة كتابة شهادة تعارفٍ موثقةٍ بيني وبين جماهير أندرلخت، تغنت الجماهير طيلة الليلة باسم اللاعب الأسمر العملاق الذي أنقذ أندرلخت من الهزيمة التي كانت ستكون الثانية على التوالي.

استمرت المسيرة المظفرة ما تبقى من الموسم الذي أنتهى عليّ وقد تصدرتُ قائمة الهدافين في الدوري برصيد خمسة عشر هدفًا، حصد أندرلخت لقبه



الثلاثين وحصدتُ لقبي الأول. لم أكتفِ بذلك، قمتُ أيضًا بتسجيل أربعة أهداف للفريق في بطولة دوري أبطال أوروبا والتي يشار إليها دائمًا بدوري الأبطال (Champions League)، وكانت الأهداف الأربعة أهم وأغلى من الخمسة عشر هدفًا التي أحرزتُها في الدوري المحلي البلجيكي، هكذا أبلغني روجر فيما بعد، لأنها تسببت في لفت انتباه أعين سماسرة الأندية الكبرى إليّ.

في الموسم الثاني كنتُ في أعلى حالات الانضباط النفسي الناتج عن الشعور بالنجاح الساحق، الصحافة في كل مكان تتحدث عن اللاعب العملاق روووووم، هداف الدوري الذي لا يتوقف عن التسديد، الجماهير في كل مكان ما إن تراني حتى تبدأ في الصراخ والإشارة إليّ. في المباريات استطعتُ الحفاظ على مكاني في التشكيلة الأساسية والثابتة نسبيًا في أندرلخت، لم يستطع أي مُهاجمٍ آخر أن يجعلني أجلس بديلًا على مقاعد البدلاء، استطعتُ تسجيل خمسة وعشرين هدفًا هذا الموسم، أُغدقت عليّ الهدايا من



الشركات الراعية والمشجعين وبعض الأصدقاء في النادي، لكن هذا لم يكن كافيًا لحصول أندرلخت على الدوري للمرة الثانية على التوالي، وخسرنا اللقب.

***

إنتِكاسة

أندرلخت - أواخرَ 2010م

انتهت فترة الإعداد للموسم الجديد والتي كانت في هولندا نهايةً مشوشة، سيئةً وغير متوقعة، فعلى غير العادة ظهرتُ بمستوى هزيل، يقول المدرب إنَّهُ غير مُبشرٍ تمامًا، وصفه بالضعيف، قال لي مُردِّدًا ومحذرًا وهو يشير بسبابته في وجهي:

- الغرور .. الغرور .. الغرور هو أول أعداء النجاح، الظن بأنك وصلتَ للقمة، التراخي، كل هذه الأشياء تهدم وتحطم وتجعل المرء يتعرض للفشل.

ساءني حديث المدرب، لم يرُقْ لي على الإطلاق، شعرتُ أنه تهكمٌ لا محل له، وأنَّ كل شيءٍ سيكون على ما يرام بمجرد بدء الموسم الجديد وخوض المباريات الرسمية. فأنا في نهاية الأمر لاعبٌ كبيرٌ الآن، اعتادت قدمي على التهديف، كما أنها باتت تعلم الطريق إلى المرمى جيدًا وتحفظه. لكن شيئًا من هذا لم يحدث.



جاءت بداية الموسم سيئةً للغاية، ظهرتُ في التدريبات وأيضًا في المباريات دون المستوى المُتعارف عليهِ والمرغوب فيهِ والذي تأمله جماهير أندرلخت، فشلتُ مرارًا في إحراز الأهداف، شعرتُ أن الكرة تمانع وتعارض أن تدخل الشباك، وصل الأمر حد إطلاق الجماهير صفارت الاستهجان عند نزولي إلى الملعب، أحرزتُ في النصف الأول من الموسم أربعة أهدافٍ فقط، مُقارنةً بأحد عشر هدفًا في منتصف الموسم قبل المنصرم وخمسة عشر في منتصف الموسم المنصرم. كان هذا الموقف سيئًا للغاية وغير مبشر، كما أنَّهُ أدى لتوتر الأجواء بيني وبين جماهير أندرلخت.

في فترة الراحة بعد انتهاء النصف الأول من الموسم كان أندرلخت مُتأخرًا، يقبع في المركز الرابع، وهو ما رفضتْه الجماهير وأعضاء النادي بشدة وسبب ضغطًا شديدًا على إدارة الفريق وعليّ.

قامت الإدارة بعمل مؤتمر داخلي للأعضاء واللاعبين ناقشت فيه مستوى الفريق، وضحتْ كذلك ما تنتوي



فعله في النصف الثاني من الموسم، اتفقت الإدارة في النادي على صرف المستحقات للاعبين وكذلك مكافأتهم من أجل تحفيزهم على اللعب جيدًا في النصف الثاني من الموسم وإعطائهم فترة راحة قصيرة مدتها أسبوعٌ واحد.

عشية عيد الميلاد بدأت الإجازة، حصلتُ على مستحقاتي بجانب المكافأة التى وعد بها أندرلخت، ارتأيتُ أنَّ عليّ استغلال ما أملكه جيدًا، سوف أتخذ الإجراءات اللازمة لسلامتي مع العائلة والوصول إلى مكان آمن مُبكرًا، لن أُسقط نفسي في الفخ الذي أسقط روجر نفسهُ فيه، قررتُ أنَّ عليّ استخدام ما أملكه في شراء بعض الأشياء التي ماتزالُ ناقصةً لدينا، كذلك تصحيح بعض الأمور التي كانت متوقفة لقلة المال.

قضيتُ الأسبوع كاملًا بمرافقة العائلة، قمنا فيهِ بنقل سكننا من الضواحي الشعبية إلى سكنٍ آخر وسط المدينة يطل على الشوارع الرئيسية، يليق بوضعنا الجديد. كذلك قمتُ بالتنقل عبر شارع مير وعدة شوارع تجارية أخرى برفقة الأم السيدة أدولفين



وچوردان الصغير. حصلنا على الكثير من الأشياء، ملابس وأجهزة كهربائية وإليكترونية، مُعدات منزلية، بجانب بعضٍ من المفروشات. كنا نُنشئ بيتنا من الصفر.

كانت نظرات الانبهار من المعجبين تحيط بي في كل مكانٍ تطأه قدماي منذ ظهوري في أندرلخت قبل موسمين، رووووم .. رووووم .. رووووم .. هكذا تناديني جماهير أندرلخت، في كل مكانٍ داخل بلجيكا، ثمَّة مُشجعون مُتابعون يعرفونني جيدًا، يقتربون لالتقاط الصور الشخصية بجانبي والتحدث إليَّ. «أصبحتُ معروفًا جدًا لدى الناس، ليتك يا جدي موجود الآن لأروي لك ذلك» .. هكذا رددتُ في نفسي كثيرًا. لكن ثمَّة أمرًا مستفزًا بات يحدث مؤخرًا، الأمور تبدلت، بعض الجماهير ما إنْ تراني حتى تطلق صافرات الاستهجان بسبب تراجع مستوايَ وكان ذلك يغضبني بشدة.

* * *



انتهت الإجازة، عدتُ إلى أندرلخت، عادت المباريات مُجدَّدًا، على غير ما تمنيتُ انتهت المباراة الأولى في النصف الثاني من الدوري أسوأ نهايةٍ ممكنةٍ ومفاجئة، تلقينا هزيمةً ثقيلةً من نادي لوكيرين الذي كان يتذيل قائمة الدوري وقتَها، سجلوا أربعة أهداف خططية رائعة، في المقابل وقبل نهاية المباراة بدقيقة واحدة استطعنا تسجيل هدفٍ وحيدٍ في مرماهم، كان عن طريق خطأ أحد مدافعيهم.

بعد المباراة تعرض الفريق بالكامل لانتقاداتٍ حادة، أغلب الجماهير ألقتْ باللوم عليّ، تساءلت الجماهير أين روم؟ ماذا يفعل؟ لماذا لا يسجل؟. السيء في الأمر أنهم بدأوا مُناداتي باللاعب الكونغولي، من أصول أفريقية.

غادرتُ الملعب وسط صافرات الاستهجان من الجماهير، شعرتُ أنني في أسوأ حالاتي النفسية والذهنية، توجهتُ إلى غرفة خلع الملابس، لم أستبدل ملابسي كما في العادة، فقط حصلتُ على حقيبتي وغادرتُ وحيدًا باتجاه الفندق.

* * *

بمرور الأيام، اتّسعتْ الفجوة بين روم والجميع، جماهير أندرلخت، چوردان، ڤيني ڤرانس، حتى أدولڤين، هي الأخرى غاضبة. فور إلقائي بنفسي على الفراش داخل غرفتي في السكن، وجهتُ لنفسي هذا السؤال:

- أين أنا؟ لم أعُد روم الذي عهدتهُ.

كان الهاتف الجوال لا يتوقف عن إزعاجي بعد اختفائي في نهاية المباراة، قمتُ بإغلاقه، عدتُ للبحث عن إجابةٍ للسؤال، المؤسف في الأمر أنني لم أستطع الحصول على إجابةٍ حقيقيةٍ مقنعة .. بدأتُ في مراجعة ما حدث مؤخرًا منذ انطلاق فترة الإعداد وحتى نهاية النصف الأول من الموسم.

وجدتُ أنَّ الشهرة بجانب تواجدي في صفوف أندرلخت قد فرضتْ عليَّ حياةً جديدةً، أعتقد أنها ضريبة الشهرة، فقد تبدلتْ دائرة علاقاتي، اهتماماتي وأولوياتي، لم أعد مِلكًا لنفسي 100%، أصبحتُ مِلكًا



للفريق والواجب تجاههُ، وجنون المُشجعين الذين يطالبونني دومًا بالمزيد من التألق وإحراز الأهداف.

وجدتُ أيضًا أنَّ ڤيني ڤرانس اعتاد الاتصال بي دائمًا طيلة الموسمين اللذين قضيتُهما في صفوف أندرلخت، يفعل ذلك من أجل أن يدعمني، قبل كل مباراةٍ كان يتصل ليحمسني، يطالبني أن أكون الأفضل، عند كل هدفٍ يرسل رسالة على الهاتف في لحظة التسجيل، يهنئني، يخبرني أنَّهُ فخورٌ للغاية بما أفعله، كان يفعل ذلك رغم معرفته المُسبقة أنني لن أرى رسالته كوني متواجدًا في أرضية الملعب، لكنهُ كان يفعل.

اعتدتُ بعد كل مباراة أن أحتفل مع بقية الفريق بالفوز ثم التوجه إلى المنزل للاحتفال مع أدولڤين قبل استدعاء ڤيني ڤرانس لنخرج سويًا نحتفل وحدنا بطريقتنا الخاصة، كنا نتناقش في المباراة، نعيد التحدث عنها لحظة بلحظة، نضحك سويًا، كان كثيرًا ما ينفعل على أحد اللاعبين في فريقي إن توانى عن تمرير الكرة إليّ وعلى اللاعبين من الفرق المنافسة الذين يلعبون ضدي بعنف، كان يخبرني دائمًا:

- كنتُ أتمنى أن أكون إلى جوارك في أندرلخت، أعتقد أنى كنتُ سأساعدك كثيرًا في أن تصبح الأفضل، لكن أنتَ الآن الأفضل على أية حال، وأنا أحب ذلك.

في الستة شهور الأخيرة تبدلتْ بعض الأمور، لم تكن هناك فرص سانحة للإجابة على جميع اتصالات ڤرانس، انشغلتُ عنهُ في التدريبات، في اجتماعات المدير الفني، وفي قاعة المحاضرات أيضًا، بيد أنَّ أوقات فراغي كانت قليلةً للغاية وحتى إن توافرتْ كنتُ أقضيها مع الأصدقاء الجدد، ثم بدأتُ أحتفل بالفوز في المباريات مع باقي الفريق وأكتفي بمهاتفة أدولڤين وروجر دون الذهاب إليهما، لقد تغيرتْ دائرة علاقاتي واهتماماتي، أصبح الآن لديَّ أصدقاء جُدد جميعهم لاعبون أو إداريون في أندرلخت.

لم تتبدل أمور العلاقات الشخصية فقط، تبدل أيضًا اهتمامي بالدراسة والنجاح الشخصي في دروبٍ أخرى غير كرة القدم، قل اهتمامي بالدراسة، انقطعتُ عن الذهاب إلى دروس تعليم اللغتين الهولندية والفرنسية، تفرغتُ فقط لكرة القدم والأصدقاء في الفريق. ونتج



عن ذلك حصولي على درجاتٍ سيئة للغاية في عامي الجامعي الثالث، و بناء حاجز نفسي بيني وبين قيني قرانس، وشعوري أنني أصبحتُ حبيسًا لكرة القدم فقط.

في صباح أحد الأيام الشتوية، استيقظتُ مُستهلَكًا، إرهاق، صداع، مزاج سيء، كأني خضتُ عراكًا في نومي. لا شيء جديدًا باستثناء أنني أغضبتُ الجميع، أتوجه إلى المرحاض، أتبوّل، أستحم، أغسل أسناني، أرتدي ملابس قطنية خفيفة واسعة، أرتديها بالعجلة المعتادة، لكن هذه المرة دون الطاقة الكافية للاستعجال، فلا شيء ضروريًا يتوجب عليّ فعله. أعود إلى الفراش، أمسك بالهاتف، أعيد تشغيله، وأستلقي على الفراش مجدّدًا، واضعًا فُوطَةً بيضاء منسوجة من القطن المصري الفاخر مُبللة بالماء البارد على عيني، في محاولة مني للحصول على بعض السكينة والهدوء، بجانب خفض درجة حرارة رأسي التي تكاد تنفجر من ألم الصداع، الذي بدا وكأنه يعاقبني على كثرة التفكير.



يهتز الهاتف، يرتفع صوته، نغمة أعرفها جيدًا، وضعتُها خصيصًا للسيدة أدولڤين. أستقبل المكالمة سريعًا، قبل أن أتحدث يأتي الصوت سائلًا بحدة من الجهة الأخرى:

- أين روم؟

الغضب بادٍ تمامًا في صوتها ..

اعتدلتُ في الفراش وأنا أزيح الفوطة البيضاء من فوق عينيّ، أجبتُ سؤالها مُستغربًا، لماذا تسأل عني بصيغةِ الغائب؟ أنا من يتحدث إليها ثم إنها تعرف جيدًا أنَّ لا أحد غيري يمسك بالهاتف، توجستُ خيفة أن يكون مكروهٌ ما قد حدث:

- أنا هُنا .. في السكن، أندرلخت، تعرفين جيدًا أين أنا

- أريدهُ هنا على الفور

- تريدين من؟ ... أدولڤين .. هل حدث مكروه ما؟



- فقط أحضره على الفور

أغلقتْ سماعة الهاتف في وجهي بعد أن تحدثتْ إليَّ بحدة لم أعهدها في صوتها من قبل، شعرتُ أن شيئًا ما مُريبًا يحدث، تساءلتُ:

- لماذا تتحدثُ إليَّ كأني شخصٌ آخر؟

نهضتُ من الفراش على الفور بعد أن شعرتُ بمزيدٍ من القلق يتسرب في داخلي، لم أجمع أيًا من أغراضي، كنتُ في عجلةٍ شديدةٍ من أمري، تجهزتُ للتحرك صوبها مباشرةً، تفصلني عن أنتويرب مسافة (٦١,٦ كم)، مسافة يمكن قطعها في ساعةٍ واحدةٍ فقط في الظروف العادية، إنْ قطعتُها عبر طريق E19 السريع.

* * *

دلفتُ إلى غرفة المعيشة، كانت جالسةً تُشاهد التلفاز، دونما حراك و دون أن تهتم إليّ، بدتْ لي باردة المشاعر تمامًا كأنها جبلٌ جليدي في مدينة فوستوك الواقعة في القارة القطبية الجنوبية. لم تلتفتْ، لم

تنهض لتحتضنني كما العادة في كل مرة. دنوتُ منها، توقفتُ أمامها مُباشرةً، دون أن تلتفتَ إليَّ، سألت بصوتٍ بدت فيه الحدة والغضب:

- أين چوردان؟

مُرتبكًا:

- لا أعرف، ربمااا .. لديه تدريبات

- أين روجر؟

- لا أعرف، ربما في عمله أو ...

- أين ڤيني ڤرانس؟

- لا أعرف ..

- أين وصلتَ في محاضرات تعلم الفرنسية والهولندية؟

- ....

- ما هو تصنيفك من حيث النجاح لهذا العام الجامعي؟

ألقتْ عليّ ما يزيد عن خمسة عشر سؤالًا، لم تكن لديّ إجاباتٌ حاسمة على أيٍّ منها، قامت من مقعدها، أمسكتْ ذراعي بقوة وقالت:

- چوردان على أعتاب الاحتراف في نادٍ إيطالي، عالم كرة القدم بكاملهِ يعرف وأنتَ شقيقه لا تدري شيئًا، لأنك لا ترد على اتصالاته ولا تتصل به، روجر أصبح لديه عدة أعمالٍ أخرى بجوار إدارته للمزرعة، ڤيني ڤرانس يمر بضائقةٍ نفسيةٍ وذهنيةٍ، ربما سببها الأول هو تخليك عنه، هجرك لصداقته، لم يحضر اختباراته الجامعية، توقف عن ممارسة كرة القدم ليس فقط في أي نادٍ بل نهائيًا، والدته قالت إنه يعاني من اكتئابٍ سريري، وأنتَ؟ صديقه المقرب، لا تعرف عنه شيئًا. أمرٌ مقزز لعين.

إنها لكُوميديا سوداء أن تُصبح هكذا، كمن زَها بنفسه، فأصبح سجين المرايا، يقف أمامها طيلة الوقت مُعجبًا بنفسه، والحياة من حوله تسير، يستفيق وقد أصبح



قديمًا باليًا. هذه الطينة التي أنتَ عليها الآن جُبِل منها الفشلة، نصفها استهتارٌ ونصفها توانٍ عن القيام بدورهم، يجب عليك الآن أن تعرف لماذا ناديتُك كمجهولٍ وكأني لا أعرفك، لأنك لو كنتَ روم لأجبتَ على جميع الأسئلة، لأن روم لم يُجبَل من طين الفشلة، المستهترين، بل من طينٍ لا يعرف الاستسلام، لا يتوانى عن واجباته تجاه أحبائهِ، لا يسمحُ للحياة والشهرة أن تختطفهُ منهم.

إنَّ النجاح في شيءٍ ما يبدو ناقصًا ولا يُعد نجاحًا إذا ما تسبب في فشلك في أشياء أخرى، فشلتَ عن مراعاة شقيقك، في دراستك، حتى ڤيني ڤرانس، ڤيني ڤرانس صديقك المقرب، الذي كان يتقاسم معك ومعنا كل شيءٍ عندما لم نكن نملك أي شيء، ڤيني ڤرانس الذي أمسك بذراعك وبكى عندما بكيتَ في مباراة ليرس، أنتَ أهملتَه عندما احتاج إليك.

لا عذر لك، عليك أن تراجع نفسك الآن وإلَّا سوف تخسر كل ما ربحتَه في الأيام الماضية



أنهتْ حديثها، أشاحَتْ عني بوجهِها.

- أنا آسف ..

خرجتْ الكلمة من أعماق روحي بعدما شعرتُ بالتقصير في حق الجميع، شعرتُ بالخزي من نفسي.

التفتتْ إليَّ مُجدَّدًا، قالت:

- لا أرغبُ في اعتذارٍ منك، أرغبُ في أن تتفهم أن حُب الآخرين لبعضهم البعض هو الشيء المُميز جدًا الذي يدفعهم للنجاح أكثر، هو الذي يؤجج الرغبة في داخلنا كي نُصبح أفضل مما نحنُ عليه، النجاح الحقيقي تكمن قيمته في أن تكون دائمًا موجودًا في خدمة من تحبهم، النجاح يجب أنْ يلهمك القوة التي تساعد بها الآخرين، لا الانشغال عنهم ونسيان دورهم في حياتك. يجب أن تمنح الآخرين جزءًا من نجاحك لأن العطاء وحده يعزز من نجاحك ويجعل نورك يشع في قلوب من حولك دونما أن يُنسى، فنحن لا ننسى كل من منحنا ضوءًا ولو بسيطًا وقت عتمتنا، من جبر فينا



كسرًا، كل من حاول إماطة الأذى عن طريق قلوبنا، الطيبون حاضرون بأفعالهم حتى وإن غابوا.

إن كان عليك الاعتذار لأحدٍ، فهو نفسك، ومن ثم صديقك ڤيني ڤرانس، وحده من يستحق أن تذهب إليه وتعتذر، لأن الصديق موقفٌ، لا عُمرٌ ولا عِشرةٌ، وأنتَ تخليتَ عنه، عليك أن تفهم أن هذه الأرض كُروية، وأطول مسافة يمكن أن تفصل بين اثنين هي حين يدير كلٌّ منهما ظهره للآخر.

* * *

آثرتُ السير على الأقدام مُنتقلًا مِن الشوارع الرئيسية حيث السكن الجديد باتجاه الشوارع الخلفية، مارًا عبر الضواحي الشعبية والأزقة الضيقة، حتى وصلتُ إلى منزل ڤيني ڤرانس، على مقربةٍ من منزلنا القديم، منزل الفئران، كان ذلك لشيءٍ في نفسي، رغبةً في تذكيرها بما كنتُ عليه قبل وقتٍ قليل.

في منزل ڤيني ڤرانس، استقبلتني والدتهُ الأم چيني بحفاوةٍ شديدةٍ كما في السابق، معاملتها لم تتغير أو

تتبدل بمرور الوقت أو تغيُّر الأحوال، ما تزال الأم چيني كما هي، كان ڤيني مُستلقيًا في الفراش، يتنفّسُ ببطءٍ كمن توقفتْ أجهزة جسده الحيوية عن العمل، رافضًا مُقابلة أحد، معرضًا عن الخروج، مُتجنبًا الاختلاط مع العامة، كان كل ذلك يحدث دونما أن يعطي لأحدٍ من عائلته سببًا لما يمر به.

قالت والدته إنَّهُ ليس بخير، يعطي ردّاتِ فعلٍ مبالغة، يرقص على أيّ أغنية، هادئةً كانت أو صاخبة، ثم يصمت فجأة، يبدي الاهتمام بأي فكرة، ثم يعرض عنها دون أسباب، يضحك على أسخف نكتة ، لكن لو أمعنتَ النظر في وجههِ قليلًا، لوجدتَه في الحقيقة يبذل جهدًا رهيبًا ليشعر بأي شيء، يفعل كل ذلك في مُحاولةٍ منه لإخفاء الألم.

انتبه لوجودي، التفتَ إليَّ، حدّق فيَّ عبر غشاوة من نعاس، عند رؤيتي ارتسمتْ على ملامحه ابتسامة باردة، بدا لي فيها الكثير من العتاب أكثر من الحزن أو أي شعورٍ آخر، كأنه يخبرني أن مجيئي مُتأخرٌ، لم أجد الكلمات المناسبة التي يجب علي قولها، أخبرتُه:



- أريد أن نخرج سويًا

- إلى أين؟

- أينما شئتَ

ضحك ضحكةً قصيرةً في قرارة نفسه على النحو الذي يضحك فيه الناس عندما لا يعرفون ما يقولون. ثم قال بعجلة، ولكن بصوتٍ عالٍ كأنَّه يحدِّث طفلًا يعاني من مشكلة في السمع:

- لا أريد

ران صمتٌ مربكٌ بيننا، قلتُ مُستغربًا:

- ڤيني .. هذا أنا .. روم

ابتسم مُجدَّدًا، هذه المرة ابتسامة ساخرة، أعقبها بالقول:

- أتريد اصطحابي؟

ثم توقف، وأضاف:

- إلى أين؟

- تقول الأم چيني إنك انقطعتَ عن الدراسة، عن زيارة روبل بوم أو ليرس، حتى إنك لم تعد تمارس كرة القدم. علينا أنْ نتناقش في ذلك، ماذا بك يا رجل؟

مُجدَّدًا أطلق العنان لابتسامة باردة، سيئة، كانت تؤذيني، شعرتُ على إثرها أنَّهُ يعاتبني على كل حرفٍ ينطقُ بهِ لساني، كأنه يخبرني:

- أنت سبب كل ذلك

لم أكن أعرف ماذا فعلتُ أو ماذا أفعل. سألتُ نفسي:

- هل كان كل ذلك لأنني فقط ابتعدتُ وانشغلتُ عنه قليلًا؟

قبل أن أجدَ إجابةً خرج صوتهُ فجأة، قائلًا:



- حسنًا .. لنغادر يا روم .. لنخرج، سوف أبدل ملابسي سريعًا ونغادر سويًا

خرجنا من المنزل، تساءلت: إلى أي مكانٍ سوف نتوجه؟ ربما نذهب إلى روبل بوم، أو نتوجهُ إلى ليرس، نتقابل مع بعض الأصدقاء القُدامى، ربما نذهب إلى أحد المطاعم الكبيرة في وسط المدينة، نتناول معًا بعضًا من القهوة أو المثلجات، على أي حالٍ يجب عليَّ إخراج ڤيني ڤرانس مِما هو فيه.

كان بعض الجيران الذين نعرفهم يرددون أغنيةً شعبيةً هولندية، تبادلتُ معهم التحية، بينما ڤيني ڤرانس مر عليهم مرور الكرام، كأنه لا يعرفهم، اجتزناهم سويًا، واصلتُ السير في خطٍ مستقيمٍ عبر الشارع، ثم انحرفتُ إلى اليمين، بعد ذلك إلى اليسار، تسبب شرودي أن أسبق ڤيني ڤرانس، سبقتُه بخطوتين فقط ليس إلَّا، قبل أن أصل إلى مفترق طرق، وكانا اتجاهين مختلفين أحدهما يأخذنا إلى منزلنا القديم والآخر يأخذنا عبر ممرٍ طويلٍ يصل بنا إلى شوارع الضواحي،



ومنها يمكننا أن نتوجه الى الشوارع الرئيسية، استوقفني ڤرانس مُناديًا:

- رووم .. روم .. تمهل قليلًا

- نحنُ لن نذهب في هذا الاتجاه

مُستغربًا سألتُهُ:

- إذًا .. إلى أين؟

- تريث، سوف تعرف بعد قليل

كان يتحدثُ بصوتٍ هاديءٍ، بدا لي مُريبًا بشدة، أمسك بيدي من المعصم، اصطحبني خلفه دونما حديث. كان يفصلنا عن المنزل القديم بضعة أمتارٍ قليلة ليس إلَّا. توقف بي أمام باب المنزل مباشرةً، كان مغلقًا منذ أن غادرناه، لم يعد أيٌّ مِنا إلى هُنا.

- افتح الباب، إن لم يكن معك مفتاحهُ فاكسره



قال هذا حقًا، كان يعني قوله بكل جدية، وقفتُ حائراً في مكاني، شيءٌ من الاستغراب الممزوج بالدهشة انتابني عند هذه اللحظة، لكنني بالرغم من ذلك نفذتُ ما أراده، للحظ الجيد كنتُ أحمل نُسخة من مفتاح باب المنزل ضمن مفاتيحي الجديدة، كنتُ أحمله فقط كي أتذكر دائمًا ما عانيتُه هنا.

فُتِحَ الباب، دلفنا إلى الداخل.

توقف في منتصف الرواق مباشرة، كان خربًا تمامًا، الأتربة في كل مكان، براز الفئران أينما وقعتْ عينٌ يمكنها رؤيته، بدأ يستطلع المكان بعينيه، وكان يبتسم في ألمٍ كلما التفتَ بوجهه في زاويةٍ ما من المكان، كل شيءٍ ما يزالُ في مكانه، فقط مُغطى بالأتربة وبعض أثار المياه المتسللة عبر السطح وقت هطول الأمطار، الثلاجة القديمة قابعة في مكانها، المنضدة الصغيرة ما تزالُ تقف على ثلاث أقدام، حتى الحذاء القديم الممزق ما يزال مُعلقًا على الحائط في الزاويةِ، بينما الفئران تهرول في كل مكان، لا أعرف في هذه المرة إن كانت خائفةً مِنَّا أم أنها تحتفل بعودتنا إلى هنا.



ترقبتُهُ مُستغربًا وقد اعترتني حالةٌ من الريبة بسبب ما يفعله، وإذا به يقول:

- كثيرًا ما جمعنا هذا المكان، كنتُ في كل مرةٍ آتي إليك حاملًا شيئًا ما يُفرحك، ربما لعبة جديدة حصلتُ عليها من عائلتي، أو نوعًا ما من الطعام، كثيرًا ما كنتُ أحضر حاملًا حلوى الكراميل بالبندق، كنتُ أعرف أنك تحبها بشدة

- كنتُ في كل مرةٍ آتيك بشيءٍ ما يفرحك أرى في عينيك نظرات السعادة، كثيرًا ما تشكرني على ذلك ظنًا منك أني أعطيك الشيء الجيد الذي يسعدك بلا مقابل، لكنك في الحقيقة كنتَ مُخطئًا جدًا، مُخطئًا تمامًا وبشدة يا روم.

في حقيقة الأمر، الشخص الوحيد الذي أعطى كثيرًا بلا مقابل هو أنتَ، لقد أعطيتَني أعظم ما يمكن للإنسان أن يحصل عليه، طيلة سنوات العمر التي قضيتُها بالقرب منك، أعطيتَني الأمان

- ...



- نعم يا روم، الألفة التي تكونث فيما بيننا بثت في روحي الأمان، وإنَّهُ لأفضل ما يمكن الحصول عليه في علاقةٍ ما، سواء على مستوى العلاقة مع العائلة أو مع الأصدقاء، أو حتى العلاقة مع الفتاة التي تواعدها.

لا يمكن لي أن أنسى عندما كنتُ في الصف السادس وكنتُ ألعب ضمن صفوف روبل بوم، سخر أحدهم وزملاؤه من ليونتي، أشار إلى أني مدللٌ صغيرٌ، جعل مني موضع سخرية أمام الآخرين، عندها اعترضتُ على حديثه، حاول أحدهم أن يعتدي عليَّ وكنتُ ضئيل الجسد، تمكن مني الخوف، فصرختُ: روووووم. لم تكن قريبًا مني بالقدر الذي يجعلك تسمع، لم أستطع رؤيتك بعد أنْ التفوا حولي، أتذكر جيدًا عندما لمعث عيناي بالدموع، بعد أن ظننتُ أني سوف أتلقى ضرباً مبرحاً وموجعاً، كيف أنك ظهرتَ من العدم وكنتَ أضخم منّا جميعًا، على الرغم من كونك كنتَ خجولًا إلّا أنك ضربتَهم ضربًا مُبرِّحًا يا روم.

أتعرف يا روم؟ لطالما أحببتُ لقب «صديق روم» في المدرسة، الشارع، وحتى في الحديقة العامة، عندما كنا



نلعب كرة قدم الشوارع جنبًا إلى جنب، رغم أن صداقتي معك كلفتني خسارة كل الأصدقاء، كانوا يكرهون كونك من أصول أفريقية، كنتُ أراك بعينٍ مُختلفة، أراك صديقي والمعنى الحقيقي للأمان، لأجل ذلك آمنتُ بك، وتمسكتُ بعلاقتنا بقوة

- لم أنسَ عندما تمسك بك كشافة ليرس، يومها .. قلتَ لهم لا أنتقل دون چوردان وڤيني ڤرانس، لقد أوقفتَ مستقبلك على وجودي، قالوا : نأخذ چوردان، كررتَ لهم بإصرارٍ مُستفِزٍ: لا أنتقل دون ڤيني ڤرانس

لثوانٍ قليلة شعرتُ بحالة ارتباكٍ وتوترٍ شديدة في المكان، قلتُ لهُ في محاولة مني لتهوين الأمر عليه :

- أنا هُنا، لم يتغير شيءٌ ڤيني ڤرانس. ثم ما دخل كل ذلك بانقطاعك عن الدراسة والتدريبات؟ لقد علمتُ أن حياتك تقريبًا شبه متوقفة، إنك لا تغادر السرير يا رجل

ارتسمتْ على ملامحه ابتسامةٌ ساخرةٌ مما أقوله، قال وقد لمعتْ دمعة حزينة فى عينيه بدا أنَّهُ لم يستطع مقاومتها:

- الأماكن تفقد جمالها عندما يغيب عنها من ارتدناها معهم سابقًا، ما قيمة الأشياء الجميلة إن لم يتواجد مَنْ كنا نتشاركها معهُ دائمًا.

إني وحيدٌ من دونك يا روم، لقد حاولتُ مرارًا زيارة روبل بوم، في كل مرة لا أجدك هناك أشعرُ بالألم، كان يهون عليَّ الأمر تواجدك في مكانٍ أفضل، وأني أطمئنُ عليكَ من حينٍ لآخر، لكن حتى هذا لم يعد بإمكاني الحصول عليه، أنتَ أوقفتَه. أمَّا عن الجامعة، فكنتُ أذهب إليها كي أقابلك هناك أيضًا من وقت لآخر، لكنك مؤخرًا انقطعتَ عن الحضور، حتى إن حدث وحضرتَ، فإنك تتجاهلني.

يا روم .. يقول مارتن لوثر كينج: «في النهاية، لن نتذكر كلمات أعدائنا، بل صمت أصدقائنا» وأنتَ بصمتك تؤذيني، حتى لو كان دون قصدٍ منك



حالةٌ من الوجوم ارتسمتْ على ملامحي، رد فعل من هول الصدمة كأنني قد تلقيتُ صفعة قوية، حالة من الضياع والشعور بالغربة تمكنتْ من قلبي، عند هذه اللحظة أدركتُ أني تخليتُ عن صديقي الحقيقي، أن ما يمر به سببه الحقيقي هو أفعالي، هو أنني أمسيتُ سجين اللحظة، لحظة الشهرة والنجاح جعلتني أنساه، لقد أفقدتُه الشعور بالأمان الذي كان يشعر به كلما كنا سويًا.

للحظة .. وقف كل منّا ينظر للآخر نظرةً مليئةً بالحزن والدموع والعتاب، انتهت اللحظة باحتضان كلٍ منا للآخر، كان حُضنًا أذاب جبل الجليد الذي بُني بسبب ابتعادي عنه.

كان الباب ما يزال مواربًا، دلفتْ منه أدولقين، نظرت إلينا نظراتٍ مملوؤةً بالحب، قالت:

- أخبرتني چيني أنكُما خرجتما سويًا، شيءٌ ما أخبرني أني سوف أجدكما هُنا، لذلك أتيتُ

ردَّدنا معًا وقد كان كلٌ منا يجفف دموع عينيه ويبتسم:

- نحن بخير

- طالما أنكما معًا، سوف تبقيان بخير، هذا هو الدرس الذي عليكما أن تفهماه، وجودكما سويًا قوة، من النادر والصعب في هذه الأيام أن تجدا شخصًا بديلًا يحبكما كما تحبان بعضكما البعض، أنتم شقيقان منذ نعومة أظافركما، ويجب أن تبقيا هكذا ما حييتما.

***

المُنعطف الخاطئ

أندرلخت - بداية 2011م

مُلئث المدرجات بالجماهير، حماسهم الشديد في التشجيع بجانب الصياح بصوتٍ عالٍ بشدة مكّن العامة في ضواحي المدينة وأطرافها من سماعهم، الجهاز الفني لكلا الفريقين تواجد في المكان المُحدد له قبل بداية المُباراة بدقائق، كلٌ يرتب أوراقه، كذلك تواجد المعلق الداخلي في مكانه المخصص خلف شاشة البث المباشر التي تمكنه من رؤية كل شيءٍ في الملعب، وصلث للمعلق قائمة بأسماء وتشكيلة كلا الفريقين، بدأ في إذاعة أسماء اللاعبين وسط تهليل وصياح المشجعين من الجمهور عند سماع اسم كل لاعب.

لم يكن اسمي مُدرجًا ضمن قائمة اللاعبين المقرر مشاركتهم في المباراة، فوجئثُ بأني أُخرجثُ من التشكيلة الأساسية لها، لم يكن لديَّ علمٌ مُسبقٌ بهذا القرار، اتخذوه رغم أهمية المباراة الشديدة للفريق، خاصةً بعد تعثُرنا في المباراة السابقة وتأخُرنا للمركز



الخامس، تُركتُ في مقاعد البُدلاء، تعمد المدرب أن يتجاهلني تمامًا، ربما كان عقابًا، ربما محاولةً أخيرةً منه أن يعيدني إلى الطريق الصحيح.

بعد مرور تسعين دقيقة، جاءت نهاية المباراة، فاز أندرلخت من دون مشاركتي بثلاثة أهدافٍ دون مقابل من الفريق المنافس، استاءت أدولقين تمامًا لما آلت إليه الأمور، لم تتصل بي، كانت مُعتادة عند نهاية كل مباراة أنْ تهنئني على الفوز أو تؤازرني بعد الهزيمة، هذه المرة تعمدتْ الصمت، وليس أقسى من الصمت عقابٌ، كذلك فعل روجر بدوره هو الآخر، امتنع عن محادثتي، أمّا ڤيني ڤرانس فاكتفى بإرسال رسالة نصية تحوي علامة استفهامٍ بجانبها وجهٌ حزين.

تلك اللحظة، أدركتُ من صميم روحي، وفي قرارة نفسي، أنَّ ماهو أسوأ يقترب، ليس رويدًا رويدًا وعلى نحو غير محسوس، إنما في لحظة واحدة وفي وثبة واحدة كبيرة.



كانت السنوات السابقة غير متشابهات، تارةً في فقرٍ وضياعٍ يصحبه ألم، وتارةً في نجاحٍ وتفوقٍ. الأيام الأخيرة كانت جيدة، جيدة للغاية، أيامًا مليئة بالأحداث الإيجابية المختلفة، لكن على المرء أن ينتبه، ألَّا يأمنَ للأيام فتعصف به وتسقطه أرضًا، ففي اللحظة التي تعتاد فيها على إيقاعٍ جيدٍ للأيام، تجدها وقد تركتْك غير مستعدٍّ لفصل جديد شائك وسيء. كل ما أعرفه هو أنَّ موسمًا جديدًا من الأحداث في طريقه إليَّ، وعليَّ الاستعداد لمواجهته.

داخل الغرفة، في مقر الإقامة، جلستُ أفكر «ماذا يحدث؟ وماذا بعد؟» أربعة أيام مُتبقية تفصلنا عن المباراة التالية، المُقرر لها أن تكون ضد كلوب بروج، والذي حمل اللقب سابقًا ثلاث عشرة مرة، وهو أيضًا الفريق المُحتل للمركز الثاني، أي أنَّهُ الوصيف حاليًا، والمرشح للحصول على بطولة الدوري الممتاز لهذا العام إذا ما تعثر الفريق صاحب المركز الأول، الفارق بين أصحاب المراكز الخمسة الأولى كان نقطة أو اثنتين بين كل مركزٍ وآخر على أقصى تقدير، أي أنَّ



خسارة أي فريق لمباراة واحدة، سوف تكلفه المركز الذي يحتله.

كان اليوم الأول، بعد المُباراة المنتهية، مُقررًا له أن يكون إجازة تامة، لا تدريبات، لا محاضرات، يليه يومان من التدريبات، على أن تعقبهما في اليوم الثالث مُحاضرة عامة عن الفريق المُنافس الذي سنواجهه، يلقي بالمُحاضرة الجهاز الفني للفريق، يشرح طريقة لعبه، نقاط قوته، نقاط ضعفه، أفضل الطرق التي علينا اتباعها للنيل منه وتحقيق الفوز، وشرح أدوار اللاعبين في المباراة. لم يكن هذا شيئًا جديدًا، إنما بروتوكولًا ثابتًا مُتعارفًا عليه في أندرلخت.

دون أن أفعلَ شيئًا، لقىَ يومي الأول حتفه، قضيتُه كاملًا في الفراش، عادة ما أستيقظُ من النوم مُبكرًا، أستفيق، أقضي حاجتي، أستبدل ملابس النوم بأخرى رياضية، أتوجه إلى صالة الألعاب للتدريب، أتنقل بين الأجهزة، من جهاز إلى آخر، بالترتيب حسب خطة مُسبقة أعدها مُدرب الأحمال الخاص بأندرلخت، أتعمد القيام بالتمارين الشاقة لوقتٍ إضافي، في محاولة



مني للحفاظ على لياقتي البدنية وقوتي الجسدية بجانب القوة الذهنية. هذا اليوم، لم أفعل أيًّا من ذلك. استفققتُ من النوم يرافقني شعور أني وحيد، متروك كسمكةٍ في قاع صحراء، إنَّ ما في رأسي لم يعُد عقلاً، بل صندوق قمامة، صندوق قمامة كبيرًا. أذهب إلى الحمام أكرر النظر في المرآة، لا شيء جديدًا، أرى اكتئابًا، خوفًا، هزيمةً، كومة ذقنٍ داكنة، وسوادًا منكبًا أسفل عينيَّ، ولفمي مذاق لبنٍ منتهي الصلاحية. أنظر لنفسي وأتساءل:

- لمَّا كل ذلك؟

ماذا عساي أن أفعل؟

ماذا عساي أن أكون؟

بلا إجاباتٍ، أخرج مِن الحَمّام، أشعر بالسلبيّة المفرطة، لا أذكر أني كنتُ شيئاً سلبيّاً سيئًا قط، لم أكن سوى فتى حالم وشغوف، مُستعدٍ للموت من أجل الفوز دومًا .. كنتُ نشيطًا في المدرسة، ماهرًا في حصص الأحياء



والرياضيات، فليغفر ليّ الرب، إني أكره الرياضيات، لم أكن أبدًا ذا نفعٍ فيها، لكن دون ذلك فإن كل ما مررتُ بهِ في حياتي نجحتُ به، إنَّ بقائي حيًا إلى الآن هو نجاحٌ ساحق .. لذا؛ ما الذي أفعله الآن؟ لقد سألتنا المعلمة ذات مرة:

- حين تكبرون، ماذا تريدون أن تصبحوا؟

أغلب الأولاد قالوا رجال مطافيء، آخرون قالوا أطباء، البعض تمنوا لو يصبحون رجال شرطة، أمَّا ڤيني ڤرانس فقال وقد استبد في عينيه الحماس:

- أريد أن أمتلك آلة تصويرٍ فوتوغرافي حديثة، كاميرا، وأسافر إلى أفريقيا، كينيا أو الكونغو مثل روم، أريد أن أصور الغابات والحيوانات في بيئتها الأصلية.

أنا الوحيد الذي قلت بأني أريد أن أصبح لاعب كرة قدم مشهورًا في أندرلخت. لقد وجدوا أن هذا الأمر مُضحكٌ. ولدٌ بدينٌ بدا لي كأنهُ من أبطال مصارعة السومو يجلس في أول الصف، كان يضع يده على فمه



ويضحك بشدةٍ ولعابه يسيل. كنت أتمنى أن أفتح في مؤخرته ثقبًا آخر، حتى يتعلم كيف يحترم طموحات الآخرين. المهم .. أنا الآن لستُ سائق تاكسي، ولا بائع بطيخ، ولا مهرج سيرك، ولا أي شيءٍ غير ما تمنيتُه، فلماذا أنا بائسٌ؟ مُستسلم هكذا كمن فقدتْ جنينها في الشهر الأخير من الحمل؟ لا أعرف. كل ما أعرفه أني مؤخرًا أصبحتُ أعاني من الصداع و الأرق بشكلٍ دائم، وأني بحاجة إلى النوم. أعتقد أنَّهُ اكتئابٌ سريري، أو أنني واهم أقنع نفسي بذلك فقط.

على أيّ حالٍ، هذا اليوم لم أكن في حالةٍ جيدةٍ، قضيتُه تارة في الفراش أستمع بعضًا من الموسيقى الهادئة وتارة أخرى في غرفة المعيشة أشاهد الأفلام الأمريكية التي صدرتْ مؤخرًا، لكنَّ شيئًا من هذا لم يغير حالتي، لم يثرني، مازلتُ أشعر بالدوار والأرق.

في المساء، ازداد الأمر سوءًا، انتابني شعورٌ أسوأ وأسخف، حالةٌ مزريةٌ تمكنتْ مني تمامًا، حاولتُ الحصول على بعض الهدوء والسكينة من خلال الاستحمام بالماء البارد مع سماع نوع آخر من



الموسيقى، لكن من دون جدوى، توتر شديد ينتابني، لا أعرف ما الذي حدث، هل تخاصم معي العالم فأعطاني ظهره؟ أو أنَّ الربَّ في السماء توقف عن دعمي؟ أو ربما أنه أشار للأقدار أن تعترضني رغبةً مِنهُ أن يدفعني للبحث عن الطريق الصحيح.

في اليوم الثاني .. لازمني حظٌّ وافرٌ مِن الصداع، وكان شيئًا متوقعًا تمامًا، فالعقل يعاقبك بالصداع عندما تنهكه في التفكير. استمرت الحالة المزرية في السيطرة على عقلي لساعات، إرهاقٌ ذهني وجسدي تمكن مني، انقض على عزيمتي فخارت قواي، ثم حلَّ عليَّ قليلٌ من الاستسلام. على أثر ما أشعر به من غضب ناتج عن إطاحة المدرب بي من التشكيلة الأساسية، بجانب حالة التوتر التي أمر بها، تغيبتُ عن التدريبات هذا اليوم، كان منوطًا بي الحضور للتدريب هذا اليوم تحديدًا، على الأقل أحاول أن أثبت للمدرب أني مُلتزم، راضٍ عن قراراته، خاضعٌ لرغبته. كانت المباراة المرتقبة هي الأهم في الدوري هذا العام، والتي ستكون ضد فريق ستاندار لييج الملكي، متصدر



للبطولة، و هو واحدٌ من أكثر الأندية شعبيةً في بلجيكا، شأنه شأن أندرلخت. وتُعد هزيمته من قبل أندرلخت بمثابة الفوز مبارتين متتاليتين، إذ أنَّ الفوز يعني خسارته لثلاث نقاط، مما يعني إيقاف تقدمه نحو اللقب، وإضافة ثلاث نقاط لرصيدنا مما يعني تقدمنا في المراكز.

رنَّ جرس الهاتف بصفة دورية ومُتكررة، لا يتوقف عن إزعاجي ولو ثوانيَ قليلة، اتصالاتٌ واردةٌ من إداريي الفريق، الأصدقاء، العائلة، وغيرهم. لم تكن لي طاقة أو رغبة في تلقي اتصالٍ من أحد، أغلقتُ الهاتف. «بعد قليل يزداد قلق المتصلين، ربما يأتي بعضهم إلى هنا، ربما مدير أعمالي، أو أحد إداريي الفريق، ربما يأتي روجر أو أدولقين» هكذا قلتُ لنفسي.

لم أكن في احتياج لملاقاة شخصٍ ما سوى ذاتي، لا أحد منوط به أن ينقذني عند هذه اللحظة سوى روم، لم أعد ذلك الطفل الصغير الذي تأتي له أدولقين وتنقذه. واجهتُ نفسي، وجدتُ أن سبب كل تلك الخسارات المتتالية هو أنا.



- لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟

- لاأدري

انقضى اليوم كئيبًا، انتصف الليل، تلك اللحظة كان عليَّ أن ألتزم بالسكون والثبات التام، كمن يلتقط أنفاسه استعدادًا لمعركة فاصلة.

غادرتُ محل الإقامة المخصص لي من قبل النادي، توجهتُ للمكان الوحيد الذي يمكنني فيه الحصول على أمانٍ وسلام، لن يصدق أحد أين ذهبتُ، ذهبتُ إلى أصدقائي القدامي، الفئران في منزل أنتويرب.

مُجدَّدًا عبر طريق E19، انطلقتُ في اتجاه أنتويرب، قطعتُ مسافة واحد وستين كيلومترًا في ستٍ وأربعين دقيقة فقط، كانت الشوارع خالية نسبيًا، كثيرًا ما تكون هكذا في هذه الأوقات المتأخرة من الليل. وصلتُ المنزل داخل الضواحي الشعبية عند الثانية والربع بعد منتصف الليل، كانت الكهرباء مقطوعة بفعل الأمطار، ثمَّة ظلامٌ حالك في المكان،



أضأتُ مصباحًا زيتيًا كان معلقًا على الحائط، كنتُ أعرف مكانه جيدًا، وكيف أنسى؟ من الصعب أن تنسى من أضاء لك الدرب يومًا مُظلمًا. الأمطار ماتزال تنزل بغزارة، الفئران تجري في كل مكان، ربما تتراقص على صوت أنغام تساقط المطر، أو أنها تتراقص لعودتي إليها مهزومًا.

أمسكتُ بالمنضدة ذات القدم المثلومة، رفعتُها، تحركتُ باتجاه زاوية محشورة، وضعتُها أرضًا، وقد جعلتُ القدم المثلومة في الخلف، بحيث تتكئ على الحائط. جلستُ فوقها. قطراتٌ من المطر تتسلل عبر ثقوب السقف المتهالك، حاملةً معها بقايا أتربة مع براز الفئران، تنزل على القبعة فوق رأسي، تعبر فوقها، تسيل على كتفيَّ، تُبلل ملابسي غالية الثمن، اتسخ حذائي ذو الماركة المميزة، رائحة عطنة منتشرة في المكان، ثمَّة أشياء تطير في الجو، في الغالب صراصير، لازلتُ أكرهها بشدة أكثر من الفئران، رغم ذلك لم أحرك ساكنًا، جلستُ ثابتًا في مكاني دون حركة لثلاث ساعات متتالية، فقط شهيقٌ وزفير. توقفت الأمطار



قرب الساعة الخامسة، عادت الكهرباء بعد ذلك بقليل، ثم أتى الصباح.

فعلتُ ذلك عقابًا لنفسي. لإدراكي أني على خطأ، يقول كيركجارد: «إن الخطر الأعظم على الإطلاق هو فقدان الذات، لأنه يحدث بهدوءٍ شديدٍ، كما لو أنه لا شيء حدث على الإطلاق». لا يمكن لأي خسارة أخرى أن تحدث بهدوء كخسارتك لذاتك، أي خسارة أخرى من المؤكد أنك ستلاحظها، لذا إذا ما وجدتَ نفسك على الطريق المؤدي لخسارة ذاتك، عليك بعقابها من أجل ردعها بسرعة، ذلك من أجل أن تعود إلى الطريق الصحيح.

اليوم الثالث ... اِستَشرَى القلق بجانب الغضب في قلب أدولفين بعدما علمتْ باختفائي، هاتفتْ روجر وچوردان وكذلك ڤيني ڤرانس، سألتْهم إن كان أحدٌ منهم لديه خبر عني، لكن من دون جدوى. تفاقمَ الوضع في النادي، قرر المدير الفني بعد اجتماعه بإدارة الفريق فرض غرامة مالية كبيرة عليّ، بجانب منعي من المشاركة مع الفريق الأول، على أن تكون مشاركتي



في التدريبات مع الفريق الثاني مرة أخرى كما كنتُ سابقًا قبل موسمين ونصف. كان هذا أسوأ ما حدث لي، وأسوأ ما يمكنني أن أتوقعه. عند ذلك اكتشفتُ أن المرء قد تسوء حياته بالكامل لمجرد خطأ صغير، أو استهانته بمشكلة ما ظن أنها لا شيء.

قضيتُ اليوم كاملًا داخل منزل أنتويرب، كما أنا دونما حراك، الباب مغلق، لا طعام، لا تلفاز، لا هاتف، ولا أخبار، فقط زجاجة من المياه وحدها بقيث برفقتي.

في المساء، غفوتُ قليلًا، أو ربما لا، لا أعرف إن كنتُ غفوتُ أم غبتُ في إغماءة قصيرة. حين استفقتُ لم أدرك كم مضى من الوقت، كان الجو ما يزال مُضطربًا في الخارج، شعرتُ بالإعياء، لم يكن واضحًا لديَّ إن كان هذا ناتجًا عن الاستغراق في النوم بملابس مبللة أسفل المطر، أو أنَّهُ ناتج بسبب امتناعي عن الطعام، أو من الهواء المخنوق بالرائحة العطنة والذي لا يتغير في الداخل، وربما أن جسدي هو الآخر يتمرد عليَّ ويعاقبني. كنتُ أزفر بأنفاسٍ مسموعة، محاولًا طرد هذا الألم الغريب من رأسي، مُحاولًا استجماع قواي



الذهنية في فكرة أن أعود إلى حالتي الطبيعية. فجأة .. حضرتْ أدولقين، دلفتْ من الباب، نظرتُ إليها باستغراب مُتأملًا، شعرُها غيرُ مصفف، وجهها بطبيعته دون آثارٍ لأدوات التجميل، ترتدي ملابس قديمة، بالية بعض الشيء، تحمل حقيبة كبيرة. بدا لي وكأنها عادت للمعيشة في أنتويرب مرة أخرى.

واصلتُ الجلوس في مكاني مُغمض العينين، ثم محاولًا التحديق فيها، ثم مغمض العينين مجدَّدًا، ثم حدّقتُ فيها مستغربًا أكثر، بدورها هي الأخرى وقفتْ في مكانها، بالقرب من الباب، حدّقتْ فيَّ، لم تضع الحقيبة أرضًا، رغم الإنهاك البادي في ملامحها من أثر حملها كل هذه المسافة التي توجب عليها مشيها في الأزقة الضيقة حتى تصل إلى هنا. اتكأتْ بيدها على الحائط، نظرتْ إليَّ مُمتعضة، كان الحائط مُتسخًا بالطين على أثر أمطار الليلة الماضية، بدت لي كما لو أنها تحاول التماسك، لكن بجهد كبير، بحيث يمكن في أي لحظة أن تنهار، فعلتْ كل ذلك وهي تُبديه، تعمدتْ عدم إخفاء ما تشعر به. قلَّبتْ عينيها في صمت وهي

تومِيء برأسها يمينًا ويسارًا مُستاءة، تنتقد الفوضى، ليس في المكان، بل الفوضى في حياتي وما آلت إليه الأمور. ترقرقتْ دمعةٌ في عينيها، انحدرتْ بسرعة حتى وصلتْ بين شفتيها، قالت والدموع تتلألأ على شفتيها :

- أنتَ هنا؟! .. ماذا تفعل؟

لم تكن تسعى للحصول على إجابة، كانت تسألني فقط لتؤكد أنَّهُ هُنا تكمن المشكلة، وسرعان ما تضيف مقولتها مُجدَّدًا تؤكدها:

- أنتَ هُنا؟!

تقولها وكأن هذا اتهام، ثم تسترسل في الحديث مرة أخرى:

- ما الذي يجبرك أن تُعرّض نفسك وتُعرضنا لكل هذا الشقاء؟ تهرب! تستسلم! وكيف بعد هذا ترجو أن تكون قويًا و سعيدًا؟



لم أجد شيئًا أقوله، ران صمتٌ من جانبي، صمتٌ شعرتُ به هي مخيّبًا للآمال، كانت تنتظر مني إجابة حاسمة، لكني خشيتُ إن تحدثتُ أن يتّخذ النقاش بيننا مُنعطفاتٍ أخرى، كان صمتي اعترافًا بأني على خطأ، ومعترفٌ بذلك.

استرسلتْ في الحديث وقد زادت حدة بكائها:

- إلى متى ستبقى على هذا النحو؟ ألا تستحق الحياة المحاولة؟ وإذا كان لا بد من الشقاء، أليس من الأفضل أن تشقى بشرف؟

قالت كأنها تحثني بكل ودٍّ على عدم الخضوع لأهوائي الصبيانية، وأن أستفيق للمسؤلية. ثم أضافت:

- كيف أشرح لك أني ومنذ سنواتٍ لازلتُ مُتعبةً من الطريق، والناس، والأحلام التي لم تتحقق بعد، وحذري، وتردّدي، وقلة الحيلة، مُتعبة من غدٍ وهو لم يأتِ بعد، ومن الأمس وهو قد انتهى، والأيام والوعود وصبري وطول بالي، ومن التعقّل والتأني والغضب



ونوبات الجنون .. كيف أشرح لك كل ذلك دون أن تشعر أني دراما أو أني فقدتُ عقلي؟

غرستُ رأسي بين كفيَّ، وبكيتُ .. كان يمكن لكل هذا أن يتغير لو أنها سحبتْ يدي واحتضنتني، كانت الحياة لتأخذ مُنعطفًا أفضل لو أنها احتضنتني قائلة: «هيّا، فلنعد إلى المنزل».

لكن عوضًا عن هذا، ولأنها تعرف أن الأمر أكبر من أن ينتهي بمعانقة، وأن الأمر ليس خاصًا بها فقط، هناك فريق ومؤسسة كبيرة أغضبهم ما فعلتُه، قررت المواجهة. لم يكن بيننا أبدًا أي إمكانية للخلاف، إن مفهوم الأمومة لديها مرتبط بشعورها بالمسئولية الكاملة تجاهي، كأن الرب سيحاسبها على التقصير في الدفع بي لأقصى مستويات النجاح.

لثوانٍ قليلة، نظرتْ داخل عيني مُباشرة، قبل أن تُزيل الدمع عن خديها وشفتيها، كان ذلك قبل أن تضع حقيبتها أرضًا، ثم توجهتْ جنوبًا بضعَ خطوات وصلتْ فيها إلى جوار الثلاجة، كانت هناك مكنسة قديمة،



مُتهالكة، بالية، أمسكتُ بها، شرعتُ في تنظيف المكان. كان الكثير من الكلمات تتحرك على لساني، لكني لم أستطع قط أن أنطق بواحدةٍ منها، بعد دقيقة، تجرأتُ قليلًا، عندها خرج صوتي هامسًا مُتهدجًا:

- أدولفي ...

قاطعتني بجدية وقد تصاعدتْ نبرة صوتها رويدًا رويدًا أثناء التحدث:

- شششششش .. لا أريد أن أسمع شيئًا، خيبتَ أملي، أحزنتَني، أخلفتَ وعدك لجدك وليّ أيضًا

توقفتْ عن الحديث لبرهة من الوقت، نظرتْ إليَّ بعينين دامعتين فيهما خيبةٌ وحسرة، ثم قالت مُتهكمةً ساخرةً تُكرر على مسامعي وعدي القديم لها، وهي تترك مسافة بين كل جملة والتي تليها وتملأ المسافة بالنحيب:

(لا تقلقي أدولفين .. أنا هنا .. سوف يصبح كل شيء .. بخير .. غدا سوف ألعب .. سوف ألعب لأندرلخت ..

سوف ألعب لمنتخب .. بلجيكا .. سوف ألعب حتى في .. كأس العالم .. وأحرز الأهداف في البرازيل .. إن شئتي)

توقفتْ عن الحديث، أشاحت بوجهها عني ونظرتْ في اتجاهٍ آخر، أعطتني ظهرها، ثم شرعتْ تكمل تنظيف المكان وما يزال صوت نحيبها عاليًا، صوتها وهي تبكي سحق روحي تمامًا.

هذه اللحظة تحديدًا شعرتُ بإخفاق، إحباط، فشل، عجز، هذه الكلمات المناسبة والوحيدة القادرة على شرح ما حدث لي مؤخرًا، كل ما أمكنني فعله لحظتها هو محاولة الحفاظ على وجه مستقيم، لا يجعل الأمر يبدو بذلك السّوء، كنتُ أشعر بخيبة من نفسي، خزي، عار، كلُ شعورٍ سيء يمكن وصفه كان في قلبي وقتها، لقد كان إحساسًا مؤذيًا، وكأني سبحتُ في بركة من الثلج، أطرافي ظلت ترتعش، فؤادي مقبوضٌ، روحي هالعةٌ كأنها ترى الموت، لقد كان إحساسًا مؤذيًا وحسب. كنتُ قبل حديثها أنوي الاعتذار، لكن بعدهُ وجدتُ أنَّ الأمر أثقل مِن أن يُحل باعتذار، لقد ظللتُ

أفكر في الأمر، لدرجة أن معدتي قد أصيبت بالاضطراب وأُصبتُ في رأسي بالدوار.

دق جرس الباب، ارتفع صوتٌ مألوفٌ ينادي:

- روم .. رووووم

دُفعَ الباب من الخارج، دخل من فوره، كمن يعلم يقينًا أني بالداخل، لم أخيب ظنه يومًا، أو ربما مراتٍ قليلةً مؤخرًا، كان وجه أدولفين بمواجهته تمامًا، أشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر، خشيَة أن يرى الدموع تملأ عينيها، كتمتْ صوت نحيبها، تحركتْ صوب غرفة نومها القديمة دونما حديث، دخلتْ وأغلقتْ الباب من خلفها.

شاهد ما يحدث دون تعليق، اكتفى بلعبه دور المشاهد، مُجدَّدًا جلستُ في مكاني، على المنضدة، تحرك باتجاهي، جلس على الأرض إلى جوار المنضدة تمامًا، كانت الأرض مُتسخة للغاية، ما تزال آثار ما فعلتْه الأمطار باقيةً فيها، لم يأبه لذلك، جلس فقط.

لدقيقة واحدة ساد الصَّمتُ المكانَ، تحدث ڤيني ڤرانس بعد ذلك دون أن ينظر إليَّ، فبدا لي كمن يتحدث إلى نفسهِ:

- قبل أيام، تمكن مني الملل، خرجتُ أتجول في شوارع أنتويرب الرئيسية، أمرٌ بائس أن تمشي وحدك وسط الشوارع المزدحمة وأنتَ الذي أعتدتَ أن يكون لك رفيق لا تمل من وجوده، وجدتُ زحامًا شديدًا أمام دار عرض UGC، بعد السؤال والنظر نحو اللافتات المُعلقة علمتُ أنهُ العرض الأول لفيلم بوليودي (إسمي خان)، هكذا كان اسمه، وكان (شاروخان) الممثل الشهير يلعب فيه دور البطولة.

يتحدث عن عظمة الإنسانية في مواجهة أقسى الظروف، وكيف أنَّ خان الذي يُعاني من مرض التوحد (متلازمة أسبرجر) استطاع التغلب على كل ظروفه الصعبة كي يصل إلى هدفه.

مُستغربًا نظرتُ إليهِ، شعرتُ للحظة أنَّهُ يهذي، يأتي إلى هُنا، في هذا التوقيت السيء، يدخل دونما حديث،



يجلس إلى جواري وسط كُل هذا الخراب، والرائحة العطنة، ثم يحدثني عن مشاهدته فيلمًا هنديًا.

«أي ذنبٍ سيءٍ ارتكبتُه في حياتي كي يُفعَل بي ذلك؟»

هكذا قلت في نفسي وأنا أمعن النظر إليهِ مُستغربًا. وقبل أن أنطق بكلمة أقاطعه، أكمل حديثه قائلًا:

- لما يقرب من الثلاث ساعات شاهدتُ الفيلم بعناية، كان رائعًا، أثار حماسي الطفلُ جويل ووالدته، ماما چيني، ليس لأن والدته تحمل اسم والدتي، چيني، لا لا، إطلاقًا، إنما لإصرارهما على بناء الكنيسة التي تهدمتْ بفعل العاصفة الشديدة التي ضربتْ بلدتهم ويليمينا المتواجدة في ولاية جورجيا، في بادئ الأمر تظن أن أمر إعادة بناء الكنيسة مُستحيلٌ في ظل الفقر والخراب الذي أحدثتْه العاصفة، لكن سرعان ما تتفهم أن لا شيء مُستحيل أمام إصرار المرء، مهما كان ضعيفًا، فالقوى الحقيقية يا روم لا تكمن في عضلات المرء أو موهبته فقط، بل في إصراره على النجاح.



الأجمل من ذلك، أنك ما إنْ تنتوي فعل شيء وتشرع فيهِ، يُسخر لك الرب كل ما هو حولك لمساعدتك. بعد بناء الكنيسة، اجتمعوا داخلها للاحتفال، رددوا أغنيةً حماسية، أثق أنها سوف تروق لك، تقول: سوف نتغلب على الظروف، سوف ننتصر يوماً ما، في أعماق قلبي، أنا فعلًا أومِن بذلك، سوف ننتصر يومًا ما، سنسير يدًا بيد، سنسير جنبًا إلى جنب، في يومٍ ما، في أعماق قلبي، أنا فعلًا أومِن، سنعيش في سلام، في يومٍ ما، يجب علينا جميعًا أن نكون أحرارًا، يجب علينا جميعا أن نكون أحرارًا، في يومٍ ما

We shall overcome

We shall overcome

We shall overcome some day

Oh, deep in my heart

I do believe

We shall overcome some day



شيءٌ ما أثلج صدري بعد سماع حديث ڤيني ڤرانس، لم يكن يهذي كما توقعث، بل كان يعرف ما يفعله جيدًا، أراد أن يخبرني بأننا سوف نتغلب على الظروف، النجاح يكمن في الإصرار وتكرار المحاولة مرةً بعد مرة، لا في القوة أو الموهبة فقط.

تصاعد جرس هاتفه فجأة، أخرج الهاتف، أجاب من فوره:

- مرحبا

جاء الصوت في الطرف الآخر من السماعة، وكان يتحدث بسرعة كمن أكل لتوه قطعةً من فلفلٍ حارٍ للغاية ويريد التخلص من آثار لسعته:

- ڤيني ڤرانس؟

- نعم ..

- ديرك چاسيلينكيكس يتحدث، هل تعرف شيئًا عن روم؟ أندرلخت بالكامل تبحث عنه، إدارة فريقه



تحاول الوصول إليه منذ ساعات من دون جدوى، تحدثوا إلى جين كينديرمانسم، منسق برامج الناشئين في أندرلخت، والذي بدوره لم يستطع الوصول إليه فقرر الاتصال بي، هل تعرف طريقة للوصول اليه؟

في التمرين الأخير الذي يسبق المباراة بيومٍ واحدٍ أُصيب المهاجم البديل لي، لم يعد هناك بديلٌ عن وجودي، كان يتوجب عليهم عقابي كما حُدِدَ مُسبقًا، لكنهم ارتأوا أن مصلحة الفريق أولًا، لم تستطع إدارة الفريق أن تصل إليّ، فتواصلوا مع جين كينديرمانسم منسق برامج الناشئين في أندرلخت، في محاولة منهم للوصول إليّ، بدوره قام بالاتصال بديرك چاسيلينكيكس الرجل الذي اكتشفني في روبل بوم وساعد في انتقالي إلى أندرلخت، فقام بدوره هو الآخر بالبحث عمن يمكنه من التواصل معي، ووجد أنه ڤيني ڤرانس.

خرجتْ أدولڤين من غرفتها، كنتُ ممسكًا بالهاتف ومازلت أتحدث. وقفتْ بالباب، واتكأتْ بكلتا يديها على الحائط تنظر إليّ، بعد أن سمعتْ كل شيءٍ دار



بيني وبين ڤرانس، كذلك المكالمة الهاتفية، كانت نظرتها توحي إليَّ كمن تنتظر ردَّة فعلي، نظرتُ في عينيها مُباشرة، ابتسمتُ في ثقة وأنا أخبر چاسيلينكيكس عبر سماعة الهاتف وكان الكلام مواربًا، لها وله:

- أنا هُنا .. لا تقلق

كانت المباراة في مساء اليوم التالي، مُقررًا لها أن تكون في ملعب موريس دوفراسن، ملعب فريق ستاندر لييج الذي يقع في مدينة لييج، وهي مقاطعة تفصلها عن أنتويرب مسافة (١٣١,٨ كم) تُقطع في ساعة واحدة وعشرين دقيقة، عبر طريقE19، ومنه إلى طريق E40، الذي يقودنا مباشرة إلى لييج، ومن ثم ملعب المباراة.

كان ڤرانس قد وقف على قدميه عند تلقيه مكالمة چاسيلينكيكس قبل دقائق، وددتُ عند انتهاء المُكالمة لو أحتضنه، أو أُلقي بنفسي بين ذراعيه، وددتُ كذلك أن أحتضن أدولڤين، تنقلتُ بعينيَّ فيما بينهما، أقسم



إنني احتضنتهما بروحي عند تلك اللحظة، تنفستُ الصعداء، زفرتُ أوجاعي التي عانيتُ منها الأيام الثلاثة المنصرمة، ابتسم ثلاثتنا لبعضنا البعض، عزمتُ لحظتها أن أحتضنهم مودعًا، انتويتُ التحرك صوب مدينة لييج مباشرة، على أن ألتقي بعثة الفريق هناك في الصباح، لكن هَزيم رعدٍ شق السماء، أخذ يتكرر مع البرق، ثم تساقط المطر بغزارة مرة أخرى.

دائمًا ما رددتْ أدولفين، أنَّ المطر كله خير في خير، كانت تُحبه منذ طفولتها في الكونغو، وحتى عندما أتت إلى أنتويرب، ظلت علاقتها بهِ مُحببة إلى قلبها. لكن هذه المرة وضعنا هطول المطر في مأزقٍ كبير، المكان غير مُجهز تمامًا للمبيت فيه، بجانب رغبتي في الانتقال إلى لييج، المياه تنهمر من السقف، حتى إنها في دقيقتين تجمعتْ أسفل أقدامنا.

نظر ثلاثتنا لبعضنا البعض نظرةً ذات مغزى، تعني ما الذي علينا فعلهُ الآن؟ وكانت الأمطار يتزايد هطولها فوق رؤوسنا، احتضن ثلاثتنا بعضنا البعض وانفجرنا ضاحكين، الأمطار شيء يجلب السعادة.



رن جرس الباب، دلفتْ منه مُباشرة الأم چيني، والدة ڤرانس، نظرتُ إليها مُستغربًا:

- حتى هي تعرف أننا هُنا؟!

هكذا سألتُ نفسي، وأجبتُ: ربما أخبرها ڤرانس أنه آتٍ إليَّ

قالت الأم چيني وهي تنظر إلينا:

- ما الذي تنتظرونه؟ هيّا إلى المنزل

اندفع ثلاثتنا في اتجاه الباب الذي تقف فيه الأم چيني، خرجتْ من الباب، من خلفها أدولڤين ثم ڤرانس، توقفتُ فجأةً، تذكرتُ أمر شيءٍ مهم.

قالت أدولڤين:

- لماذا توقفتَ؟ أسرع

فأجبتُ:



- حقيبتُكِ بالداخل، سوف تتبلل ملابسك

ضحك ثلاثتهم بصوتٍ مرتفعٍ وهم ينظرون إلى بعضهم البعض، بدا لي أن هناك شيئًا ما لا أفهمه، أو أنني أُصبتُ بالغباء فجأة .. قالت الأم چيني وهي تزيح بعض قطرات الأمطار التي بللتْ وجهها وشعرها:

- لا تشغل بالك بالحقيبة، إنها مليئة بأوراق الكرتون والأكياس القديمة الفارغة

* * *

رغم انقطاع الكهرباء، بالقرب من المدفأة الفخارية جلس أربعتنا، كان الإحساس بدفء العائلة أقوى من دفء حرارة المدفأة، إحساس بالأمان يصاحبه هدوءٌ نفسي يخيم على المكان، كانت ضواحي أنتويرب مفعمة بالهدوء ليلًا ونهارًا، وإذا ما أغلق المرء النوافذ وأسدل الستائر فإنه بذلك يُصبح في منأى ومعزل عن العالم الخارجي تمامًا كأنه يحيا في وادٍ وسط الصحراء.

بينما نتبادل أطراف الحديث ونحن نتناول مشروبًا ساخنًا أعدته السيدة چيني، قلتُ لأدولفين:

- سقط قلبي عند رؤيتك تحملين الحقيبة، سقط أكثر عند بكائك، تملكني الهلع، هل كان ذلك تمثيلًا؟ الحقيبة فارغة! لا تحوي سوى بضعة أكياس وأوراق كرتونية! أنا حقًا غاضب

هزت الأم چيني رأسها مُعترضةً، وقد بدا الامتعاضُ على وجهها، ثم قاطعتني لائمةً إيَّايَ برقَّة مُتناهية:

- لا يحق لك لومها، بل عليك شكرها مرارًا، الأم هي الأم، جُبلتْ من طينٍ مليء بالمودة والرحمة تجاه العامة، فما بالك بطفلها؟

كانت الأم چيني قد شارفتْ على الخمسين من العمر، لكنها على عكس عمرها، تبدو في منتصف العشرينات على أقصى تقدير، فهي ممشوقة القوام، رشيقة، لها جسدٌ رياضي، شقراء اللون، شَعْرها بهِ صُفْرَةٌ ذَهبيَّةٌ



خلابة، كانت تعمل مُعلمة فيما سبق، لكنها توقفتْ عن التدريس منذ سنوات، ودتْ أن تكون ربة منزل فقط.

مازحًا وجهتُ إليها الحديث :

- ربما أنتِ من أشارت إلى أدولڤين بفعل ذلك

انفجرت أدولڤين وڤيني ڤرانس ضاحكين، بينما قالت الأم چيني :

- لو أنَّ رأسك فيك، للاحظتَ أن الحقيبة خفيفة للغاية، وأنَّ أدولڤين تتصنع كونها ثقيلة، ثم إنها حقيبة ڤيني ڤرانس القديمة، كان يذهب بها معك في الرحلات وإلى النادي

ضحكنا كما لم نضحك منذ وقتٍ طويل، ثم أعدتُ تشغيل الهاتف. مُباشرة وردني اتصالٌ من إدارة النادي، وأظهر المُتصل أنَّهُ فقط يطمئن عليَّ وعلى العائلة :

- خشينا لو أن مكروهًا طالك أو أحد أفراد عائلتك



طمأنته :

- نحن بخير تمامًا، جميعُنا بخير

دون الخوض في أسباب تغيبي عن المران ليومين متتاليين، قال على نحو مُتردِّد :

- بعثة الفريق سوف تتحرك من أندرلخت باتجاه لييج عند الثانية عشرة منتصف النهار، عليك اللحاق بهم أمام النادي

- لا أعرف إن كنتُ سألحق بهم في أندرلخت أم لا، أنا حبيس في أنتويرب، بفعل الأمطار وانقطاع الكهرباء، كذلك أعتقد أنهم أغلقوا الطرق الرئيسية نتيجة الضَّباب الكثيف، لكن.. على أيّ حال، إذا لم أستطع التوجه إلى أندرلخت في الصباح، فسوف أتقابل معهم في لييج قبل المباراة

- روم .. هل أنتَ واثقٌ من حضورك؟

- بالطبع، أنا حاضر، ثق في ذلك



أشار ڤيني ڤرانس إليّ بيدهِ رافعًا إبهامه، علامة تدل أنَّهُ راضٍ عمّا قلتُه، بدتْ على وجه أدولڤين علامات السعادة بجانب نظرة حانية وابتسامة رضا، أما السيدة چيني فقد نظرتْ إليّ نظرة مُحيرة، كانت ذات مغزى، اتضح فيما بعد أنَّ هُناك شيئًا ما يدور في رأسها، إذ قالت:

- جيد أنك أخبرتَه بذلك، ففي الصباح سوف نزور جامعة أنتويرب، حيث إنَّ عالمة البيولوجيا الجزيئية كريستين ڤان بروكهوڤن رتبتْ لمحاضرة كبيرة، كنوعٍ من رد الجميل لهذه الجامعة العريقة التي درستْ فيها. من المقرر للمحاضرة أن تكون حول عوامل النجاح والتميز والدعم النفسي للشباب، سوف يُقدِّمُها ويديرها واحدٌ من أبرز الخريجين من الجامعة بحضور أربعة من أفضل المتحدثين التحفيزيين، أصحاب القصص المُلهمة.

أبدى ثلاثتنا، أدولڤين، ڤيني ڤرانس، وأنا، حماسنا إلى هذه المحاضرة، في حين أن الأم چيني أضافت



بطريقة بدتْ وكأنها تذكرتْ شيئًا مُهمًا للغاية كان ضائعًا منها :

- بمناسبة الدعم النفسي، لديَّ شئٌ آخر أود مُشاركته معكم، سيرةٌ ذاتية قرأتُها قبل شهور .. أعتقد أن هذا وقتٌ مُناسب لأتشاركها معكم.

طوال الوقت، نتقابل مع أشخاصٍ تجمعنا بهم أوقات، طالت أو قصرت، كانت عابرة أو توطدت، طيبة أو سيئة، في النهاية هذه العلاقات أساس بنائها تبادل المنفعة، جميع الناس، جميعهم بلا استثناء، يدخلون حياتك لهدفٍ ما، حتى والدك، ينتظر منك يومًا ما أن تكبر وتعيله كما أعالك في الصغر.

شخصٌ واحدٌ فقط مُستَثنى من هذا الأمر، إنَّهُ الأم، الكائن الوحيد في العالم الذي يعطي بلا مقابل، يُفني وقته، حياته، وصحته، في سبيل تربيتك، وجعلك قويًا، قادرًا على مواجهة المُجتمع، وكل ذلك بدون مقابل، ووحدها الأم فقط قادرة على فعل ذلك.



في 18 سبتمبر 1951، ولد بنجامين، تحديدًا في ديترويت، ولاية ميشيغان، بالولايات المتحدة الأمريكية، وعلى مدار عشر سنوات ظن أنَّهُ غبيٌ، في العام 1961، كان في الصف السادس، أعلى قيمة حصل عليها في اختبار، كانت صفرًا. تعرّض لسخرية زملائه الذين لقبوه بالتلميذ الغبي، مما أثر على حالتهِ النفسية، فأصبح سريع الغضب والانفعال، حتى إنه آذى زميلًا له مُسببًا له جراحًا في رأسه بعد قتال بينهما على خزانة في المدرسة، وقام بطعن طفل آخر بسكين. على أثر تلك الحادثة تم استدعاء والدته، السيدة سونيا كارسون، أخبروها بما فعله، بجانب أخبارها أنَّهُ يعاني من غباءٍ مُفرط، ويتوجب عليها نقله إلى مدرسة خاصة بالأطفال ممن لديهم أعاقة ذهنية.

قلتُ في حماس:

- وماذا بعد؟

بينما علق ڤيني ڤرانس ساخرًا:

- جميعُنا أغبياء بطريقةٍ ما

استرسلتْ الأم چيني مُكملةً حديثها :

- عادت سونيا مُصطحبةً بنجامين إلى المنزل، رفضتْ أنْ تصدق أو تعترف أنَّ ابنها غبيٌّ، قررتْ دفعه للسيطرة على أعصابه وأن تحثهُ على توجيه طاقة الغضب إلى طاقة إيجابية. لدى عودتها للمنزل، أوقفتْه أمامها، قبضتْ على معصمه بكلتا يديها، وأخبرتْه :

- أنت فتى ذكيٌّ، أنت فقط لا تستخدم هذا الذكاء. إنْ واصلتَ التفكير بهذه الطريقة، وهذا العنف، وأقنعتَ نفسك بأنك غبي، ستقضي بقيَّة حياتك تنظف الأرضيات في مصنع رخيص، وتلك ليست الحياة التي أريدها لك، وليست الحياة التي تتمناها لنفسك، وليست تلك بالحياة التي يريدها الرب لك

فيما بعد .. حاولتْ جاهدةً أن تساعده، لكنه حقًا كان مُستسلمًا لكونه يعاني من الغباء، وأنَّ عقلهُ عاجز عن



الاستيعاب، إلَّا أنها اكتشفتْ الطريقة الصحيحة التي يجب أن تُدار بها الأمور. ذات يوم، كانت سونيا كارسون تزور طبيب أعصاب، أستاذًا في جامعة كاليفورنيا. وجدتْه وقد امتلك مكتبة كتبٍ تحوي أعدادًا تُقدَّر بالآلاف من الكتب المُنوعة، فسألتْه:

- دكتور، هل قرأتَ كل هذه الكتب؟

باقتضاب، أجابها :

- أغلبها ..

من ثم سألها :

- لماذا؟

فأعادت عليه السؤال:

- بل لماذا أنتَ؟

قال وهو يشير على رأسها وقد وضع سبابته وسط جبينها تمامًا:



- عندما تقرأين الكثير من الكتب يصبح لديكِ الكون بأسره هنا

عادت إلى المنزل، وجدتْ إبنيها بنجامين و كيرتيس يتناولان الطعام بجانب بعضٍ من التسالي وهم يشاهدون التلفاز، قامت بإغلاقه على الفور، وقد تمكنتْ منها حالة من الحنق الشديد كانت باديةً على ملامحها، إذ كانت تزفر بأنفاسٍ مسموعة. سألاها غاضبين:

- لماذا تفعلين ذلك؟

- أنتما تشاهدان التلفاز كثيرًا

- الآخرون يفعلون نفس الشيء

- لا شأن لكما بالآخرين

وأضافت مُتهكمة:



- العالم بأكمله مليء بالآخرين، وليست لديَّ رغبة في أن تكونا منهم، من الآن فصاعدًا سوف تتابعان اثنين من البرامج في الأسبوع

صارخًا اعترض كيرتيس:

- اثنين في الأسبوع؟ هذا جنونٌ

أكدت الأم:

- بالإضافة إلى أن هذا سوف يكون بعد الانتهاء تمامًا من واجباتكما المنزلية

سأل بنجامين يائسًا:

- وماذا سنفعل في معظم أوقات فراغنا؟

أجابته الأم وقد رفعت حذاءها، أمسكت به في يدها، وبدأت تلوح لهما به:

- عظيمٌ أنك سألتَ، سوف تذهبان إلى المكتبة، تنتقيان كتابين لهما علاقة بما تدرسانه، وفي نهاية الأسبوع



ستقومان بتسليمي تقريرًا عمّا قرأتماه

مُجدَّدًا صرخ بنجامين:

- كتابين في الأسبوع؟! لا أستطيع قراءة واحدٍ في شهر، من المؤكد أننا سنموت بدون التلفاز

لوحت الأم مُهددةً بالحذاء وهي تصرخ:

- وستبدآن الآن، لِمَ تُضيعان كل هذا الوقت في مشاهدة التلفاز؟ إذا استغللتُما هذا الوقت بطريقة صحيحة في المواهب التي أعطاها لكما الرب، فلن يطول الوقت حتى يشاهدكما الناس على التلفاز.

منذ تلك اللحظة، دأبث سونيا على دفع ابنيها للقراءة والدراسة، حيث حددّث لهما جدولًا أسبوعيًا قاسيًا بقراءة كتابين أسبوعيًا وتقديم ملخص لما قرآه، ومنعتْهما مشاهدة التلفزيون واللعب، علماً أنها لم تكن تقرأ أو تكتب، ولكنها أوهمتْ طفليها بذلك وبقراءة ملخصاتهما مُبديةً إعجابها وتشجيعها لهما.

بعد عامين فقط، تحديدًا في نهاية الصف الثامن، ذهبتْ شهادة الطالب في الإنجاز الأكاديمي الأعلى إلى بنجامين.

ثم .. الآن، ونحن في نهاية العام 2011م، من هو بنجامين؟ إنَّهُ بنجامين سولومون كارسون، مُدير جراحة المخ والأعصاب لدى الأطفال في مستشفى جونز هوبكنز في ولاية ماريلاند منذ عام 1984 وحتى الآن، ماذا أيضًا؟ إنَّهُ رائدٌ في جراحة المخ والأعصاب، تشمل إنجازاته عملية الفصل الناجحة الوحيدة لتوأمٍ ملتصق من مؤخرة الرأس، إجراء الجراحة العصبية على جنين داخل الرحم، أداء أول فصل ناجح تمامًا للتوائم الملتصقة من الرأس من النوع الثاني، وتطوير أساليب جديدة لعلاج أورام الدماغ الجذعية، وإحياء تقنيات استئصال نصف الكرة المخية للسيطرة على نوبات الصرع، كما أنَّهُ أصبح أصغر رئيسٍ لجراحة أعصاب الأطفال في البلاد في سن الثالثة والثلاثين. وقد تلقى أكثر من ستين درجة دكتوراه فخرية حتى الآن، وعشرات تنويهات الجدارة



الوطنية، وكتب أكثر من مائة منشورٍ حول جراحة الأعصاب. مُنح وسام الحرية الرئاسي في عام 2008، وهي أعلى جائزة مدنية في الولايات المتحدة، ها هو بنجامين.

فتحتُ فاهي عن آخره، لا أصدق، استمعتُ للقصة مُندهشًا تمامًا وأنا أفكر كيف تحولتْ الأمور هكذا، أمر لا يعقل، كذلك ڤيني ڤرانس والأم أدولڤين، جميعنا كنا منصتين بشغف، عند ذلك أضافت الأم چيني نهاية قولها:

- لم ينتهِ الأمر بعد، بنجامين في آخر ظهور له على التلفاز، صرح قائلًا، لن يكون أوباما آخر رئيسٍ أسود للبلاد، إشارة منه أنَّهُ قد يترشح يومًا ما لرئاسة الولايات المتحدة، وثِقوا .. لو أراد ذلك .. فسوف يحصل عليه. إن مفتاح نجاح المرء ليس في قوته بل في عزيمته، وبنجامين لا يعرف اليأس، فقد بثت فيه والدته عزيمةً لا تتوقف. في النهاية، عليكم أن تعرفوا أن كل امرأةٍ بداخلها أم، كل أم ترى من تحبهُ طفلًا، أيًّا كان حجمه أو عمره، كما أنها تود لو تصنع من طفلها



رجلًا عظيمًا. لذا يا بُنيَّ، عليك ألَّا تستاء مما فعلتُه أدولقين، هي فقط تريدك أعظم من بنجامين.

***

مُحاضرة النجاة

جامعة أنتويرب – بدايات 2011م

كان الهدوء سائدًا داخل القاعة، رغم تجاوز تعداد الحاضرين فيها الألف شخص. على الحوائط عُلِّقت لافتاتٌ مُتفاوتة المساحات، كُتب فيها بعض العبارات التحفيزية، وفي مواجهة الباب وُضعت لافتة كبيرة كتب عليها عنوان المحاضرة : (النجاة)، أسفل العنوان دوِّنت تفاصيل عن المُحاضرين والقائمين عليها، قُرر للمحاضرة أن تبدأ في العاشرة، بينما امتلاء القاعة حدث قبل أن نصل للتاسعة، القائمون على إدارة المُحاضرة قاموا بإذاعة بعض الموسيقى والأغاني الحماسية، أبرزها كانت أغنية إنجليزية شهيرة، اسمُها (حتى أنهار Till I Collapse)، للمطرب الأمريكي (إمينيم – Eminem)، والتي تفاعل معها الحاضرون تفاعلًا كبيرًا، وكانت تقول :

أحيانًا تشعر بالتعب .. فتشعر بالضعف .. وحين تشعر بالضعف ترغب فقط بالاستسلام .. لكن يجب عليك

البحث في داخلك لكي تجد تلك القوة الكامنة .. وتخرجها .. وتجد دافعًا لكيلا تستسلم .. ولا تتراجع .. مهما كنتَ تشعر برغبةٍ شديدةٍ في أن تسقط على وجهك مُنهارًا .. لا تستسلم .. لا تستسلم .. عليك أن تجد نفسك.

* * *

في تمام العاشرة، دخل المُحاضر من الباب، شابٌ بلجيكي خَمْرِيٌّ اللَّوْنِ، من أصول أفريقية، قصير، له جسد وقوام رياضي، ذو ملامح باشَّة، له أسنان ناصعة البياض كأغلب الأفارقة، الابتسامة لا تفارق شفتيه وملامح وجهه. لحق بِهِ مجموعة من الأشخاص، مؤلفة من الرجال والنساء مُتفاوتي الأعمار، أغلبهم تعدى منتصف الثلاثين من عمره، بدا للحضور أنهم شخصيات هامة، ربما هم المتحدثون التحفيزيون وبعض من مساعديهم بجانب بعضٍ من العاملين بالتدريس في الجامعة.



نظرتْ الأم چيني إلينا بوجهٍ انشرحتْ أساريره، قالت بشغف :

- الآن تبدأ المحاضرة، أعدكم أن تحصلوا على شيءٍ مميز لن تنسوه أبدًا، ما حييتم، لقد اعتدتُ حضور مثل هذه المحاضرات قبل سنوات

تحرك المُحاضر باتجاه المنصة المُعدة له مُسبقًا، بينما تحرك مَن تبعوه باتجاه مقاعد الصف الأمامي من القاعة، وكانت متروكةً فارغةً حيث إنها قد خُصصتْ لهم مُسبقًا. كان أحدهم وهو عاملٌ في الثلاثينيات من عمره يعمل في الجامعة قد اندفع يسبق المحاضر باتجاه المنصة، اقترب من الميكروفون المتصل لاسلكيًا بمكبرات الصوت الموزعة في القاعة، كان قد اختبرهُ مُسبقًا عدة مرات، لكنه أصر أن يختبره مرةً أخيرة تأكيدًا منه على أنّ كل شيء على ما يرام. اختبر الميكروفون، تأكد أنَّهُ يعمل بشكلٍ جيد، أشار بعلامة التمام لعمال آخرين، كانوا موزعين في أماكن مُرتفعة ومُختلفة من القاعة بالقرب من السماعات، تأكد منهم أن كُل شيءٍ في مكانه يعمل جيدًا. بادلوه

نفس الإشارة. عند مرور المُحاضر بجوار العامل، قام بتوجيه الشكر إليه وقد ارتسمتْ على شفتيه نفس الابتسامة التي لا تفارقهما.

اعْتَلى المنصة، فهدأتْ القاعة تمامًا، من ثم بدأ حديثهُ قائلًا:

- مرحبًا بالجميع، أهلًا بكم، اسمي هو چاك أنتا ديوب، مُصنف كأحد أبرز خريجي هذه الجامعة، لذا؛ تم اختياري اليوم كمُقدمٍ ومديرٍ لهذه الاحتفالية والمحاضرة، وهو شرفٌ كبير أعتز به. أودُّ في باديء الأمر، توجيه رسالة شكرٍ للسيدة الموقرة، عالمة البيولوجيا الجزيئية السيدة كريستين ڤان بروكهوڤن، كونها خططتْ ورتبتْ لهذه الاحتفالية، اعتبارًا منها أنَّهُ جزء من حق الجامعة عليها.

ضجت القاعة بالتصفيق الحار، بينما نهضتْ عالمة البيولوجيا الجزيئية من مقعدها في الصف الأول وتوجهتْ نحو المنصة، كانت امرأة خمسينية، أنيقة المظهر، ترتدي سترة جلدية حمراء، أسفلها قميصٌ



أصفر، بينما وضعتْ فوق كتفيها وشاحًا ذا لونٍ أسود، وكان ذلك في إشارةٍ منها إلى علم بلجيكا الذي يتألف من الألوان الثلاثة ذاتها. وكانت متوسطة الطول، ريانة الجسد، شَقْراء، شعرُها قصيرٌ يمِيلُ إلى صُفْرَةٍ ذَهبيَّةٍ، وشقراء الجسد أيضًا، ترتدي نظارةً أنيقة تظهر منها عيناها النجلاوان بلونهما الرمادي، ولها ابتسامة مميزة، بدت عند ظهورها امرأةً ناضجةً لكنها أقل كثيرًا في العمر مما هي عليهِ.

استقبلها المُحاضر چاك أنتا ديوب بترحابٍ شديدٍ للغاية، فتبادلا التحية والعناق قبل أن يتراجع من فوره خطوتين للوراء سامحًا لها أن تصعد إلى المنصة.

قالت مكررة بنبرةٍ أوحت بامتنانها الشديد للتصفيق الحار الذي كان مايزال مُستمرًا تضج به القاعة :

- شكرًا لكم جميعًا، شكرًا لكم، شكرًا لكم ..

ثم صمتت لثوانٍ قليلة في انتظار أن يتوقف التصفيق، وما إن هدأت القاعة مرة أخرى، شرعت في الحديث،



قالت :

- هذا اليوم قد أُعِد خصيصًا مِن أجلكم، لذا لا أريد أن أطيل عليكم، فقط لديَّ ما وددتُ قوله لمراتٍ عديدة ولم يحالفني الحظ، لأجل ذلك رتبتُ لهذه الاحتفالية، وأعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لقول ما وددتُ قوله دائِمًا.

لقد ولدتُ هُنا، في أنتويرب، تحديدًا في التاسع من أبريل - نَيْسان للعام 1953، أي قبل ما يقرب من نصف قرنٍ مِن الزمان. في مراحل الحياة المُختلفة، وخاصة مرحلة الشباب والمراهقة، حدث مرارًا أن أصابني الظن بأنني تعرضتُ للفشل، وربما تسلل اليأس إلى قلبي في مراتٍ عديدة، إلى أن وصلتُ هنا، في إحدى بنايات هذه الجامعة، فعلمني أحدهم درسًا غير مسار حياتي، قال لي: «إن الربّ عادلٌ، لم يخلق أحدًا ليكون فاشلًا وآخر ناجحًا، لم يخلق أحدًا أيضًا ليكون ذكيًا وآخر غبيًا، إنما خَلقنا ليختبر عزيمتنا، فمن تمسك بعزيمته وإصراره يمكنه اجتياز كل العقبات، وغير ذلك، يواجه الفشل». ومنذ تلك اللحظة، أنا أتشبثُ بالعزيمة



والإصرار كطوقِ نجاة، لذا حصلتُ على شهادة العلوم من هذه الجامعة، مِن ثم توالت الإنجازات التي أدت إلى جوائز، أغلبها جوائز وتكريمات عالمية. ثم مرت عليّ سنوات، سنواتٌ عديدة، طوال الوقت، كل ما أردتُ قوله هو شُكرًا لمن علمني أنَّ العزيمة هي مفتاح السر للنجاح والتميز، شُكرًا من أعماق قلبي وروحي، شُكرًا جامعة أنتويرب فلولاكِ لم أكن ما أنا عليه الآن. وأنتم جميعًا، عليكم أن تقولوا شُكرًا، لكل من ساهم في بناء شخصياتكم وجعلها تتقدم للأمام، لكل من خلق فيكم شيئًا جيدًا. و شكرًا لكم.

ضجت القاعة بالتصفيق الحار مُجدّدًا، بينما تراجعتْ السيدة كريستين خطوتين للوراء بعد أن هبطتْ عن المنصة، في محاولةٍ منها لإخفاء دمعة محبة واعتراف بالامتنان لكل ما مضى. من ثم توجهتْ عائدةً نحو مقعدها وهي تغالب دموعها. بينما اعْتَلى چاك أنتا ديوب المنصة مرة أخرى، ثم قال بصوتٍ مُفْعَمٍ بالنَّشاط والحيويَّة وموجاتٍ عاتيةٍ مِن الحماس:



- مرحبًا بكم مُجدَّدًا، أنتم هنا اليوم في جامعة أنتويرب، لأجل التواجد في هذه المُحاضرة التي تتحدث عن كيفية النجاة من الصعوبات، لأنكم تعتقدون أن بعض الحوادث السيئة، لا نجاة منها، لأنكم تعتقدون أن الإمكانيات البشرية لها حدود، لكنكم لا تعلمون أنّ إمكانيات البشر مُذْهِلة حقًا، بجانب أنَّها تتعدى كل الحدود التي خُيّل لكم يومًا أنَّ لا شيء بإمكانهِ تجاوزها. ولذلك نحن هنا، من أجل أن نقدم لكم الأفكار التي بشأنها أن تساعدكم في أن تتخطوا كل الحدود، وأن تقوموا بتنفيذ أحلامكم على أرض الواقع.

موضوع المُحاضرة سيكون: (النجاة).

لدينا ثلاثة ضيوفٍ، مُتحدثين تحفيزيين، سوف تلتقون بهم بعد قليل، كلٌّ منهم لديه قصة مُلهمة، قد تكون قاسية للغاية، لكنهُ تعلم مِن خلالها درسًا غير مسار حياته للأبد، وصنع منهُ شخصًا آخر. سوف يصعدون للمنصة تباعًا من بعدي، يخبرونكم بما لديهم، من ثم نتناقش معكم فيما يجب علينا إدراكه وتعلمه



من تجاربهم الخاصة. المحاضرة مُقسمة لثلاث مراحل، قُرر أن تكون مدة كل مرحلة ثلاثين دقيقة كاملة، تعقبها عشر دقائق هي فترة التقاط أنفاسٍ قصيرة.

ثم أضاف وهو يشير بيدهُ إلى أحد الجلوس في الصَفّ الأول:

والآن، أقدم لكم مُتحدثنا التحفيزي الأول : آرون لي رالستون، صاحب ال 35 عامًا، من ولاية أوهايو، الولايات المتحدة، يعمل مُهندسًا بجانب أنَّهُ يمارس رياضة تسلق الجبال واستكشاف الأودية. وهو أحد أشهر المتحدثين التحفيزيين في الوقت الحالي.

ما إن أنهى چاك حديثهُ، نهض رالستون من مقعده في الصَفّ الأمامي وتحرك في اتجاه المنصة برشاقة وخطى ثابتة، بدا على إثرها واثقًا من نفسه. كان شابًا متوسط القامة، نحيف الجسد، شحيحَ اللِّحيةِ، يرتدي قميصًا أزرق أنيقًا، لهُ ياقة حمراءُ برّاقة اللون، ولم يكن له شارب. تبادل التحية مع چاك أنتا ديوب ومِن ثم



وقف خلف المنصة. وبملامحَ باشَّة ترافقها ابتسامة صافية، بدأ حديثه، قائلًا:

- مرحبًا بالجميع، كما قال چاك اسمي هو آرون رالستون، أو هكذا يدعونني، وأعتقد أنَّهُ شيءٌ رائع للغاية أن أكون ضيفكم في أنتويرب، بلجيكا. وسوف يكون أروع كثيرًا لو أنني استطعتُ إفادتكم بشيءٍ ما مما سأقوله لكم. وأعدكم أنَّهُ سيحدث.

في البداية، أود أن أخبركم بأنَّهُ ليس في الكون مِن صُدفٍ، إنّها علاماتٌ، علامات يجب أن يتبعها ويتعقبها قلبك ليجد ما يبحث عنه، لذا؛ يجب عليكم الأخذ بالعلامات والأسباب وتوخي الحذر دائمًا.

في مساء الجمعة، الخامس والعشرين من أبريل، قررتُ الذهاب في رحلة مِن أجل تسلق الجبال في الأخاديد العظيمة، انتويتُ تحديدًا الهبوط إلى داخل شق وادي بلو جون. أثناء إعداد حقيبتي سمعتُ على تردد إذاعة محطة ال b.b.c البريطانية، المُتحدثة التحفيزية أنجلا لي دكورث تقول: «مفتاح النجاح، ليس الموهبة،



وليس الذكاء، كذلك ليس جودة ما يتيحهُ لنا المجتمع من خدمات تعليمية، مفتاح النجاح يكمن دائمًا في العزم والإرادة على النجاة، في الإصرار على تحقيق ما نود تحقيقه بجانب التجهز لحدوث الأسوأ مع الحذر والاحتياط دائمًا».

ماذا فعلتُ عند سماع ذلك؟ فقط لا شيء، لم أهتم. وقد كان ذلك خطأ فادحًا، كان عليَّ الاحتياط والتجهز للأسوأ كما قالت، بجانب استحضار أقصى ما يمكن من العزيمة.

انتهيتُ من تجهيز الحقيبة التي حوَت عبوة مياه، بعضًا من الطعام المُخصص لمثل هذا الرحلات، كاميرا مشحونة جيدًا، بعض الأحبال، وقصافة صناعة صينية رخيصة ذات سكين مزدوجة. ثم خرجتُ إلى وجهتي مِن دون أن أخبر أحدًا، وقد كان هذا أغبى ما فعتُله في حياتي، فأنا بذلك قد انتهكتُ ألف باء قواعد الرحلات عندما لم أترك خطة تفصيلية عما أنوي فعله، وعن أي وجهه أتوجه إليها.



صباح السبت، السادس والعشرين من إبريل - نيسان 2003، وصلتُ بالسيارة إلى منطقة هورسشو، وهي أقصى مكانٍ يمكن الوصول إليه بالسيارة. تبقى على شق وادي بلو جون مسافة سبعة عشر ميلًا أخرى، أي ما يساوي سبعة وعشرين كيلومترًا، جميعها من الأراضي الصخرية القاحلة والمنحدرات الصعبة التي لا يدخل إليها العامة، لذا توجب عليَّ إكمال الطريق بالدراجة الهوائية، وفعلتُ.

عند الحافة في بداية الفتحة العلوية من شق بلو جون، وجدتُ صخرة طباشيرية ضخمة، ربما وزنها يتعدى خمسمائة كيلوجرام، وكانت تقف منتصبة على سنٍ مُدبب صغير جدًا، يكاد يكون بحجم حبة البندق، مما أصابني بالدهشة والاستغراب، تساءلتُ: كيف لكل هذا الحجم أن يقف على هذا السن المُدبب؟. مِن ثم تدخلتُ فيما لا يعنيني، حاولتُ جاهدًا تحريكها، استخدمتُ كلتا يديَّ ولم أفلح، حاولتُ دفعها بالقدمين، ركلتُها مرةً بعد مرة، ووجدتُ صعوبة في تحريكها، ظننتها راسية كالجبال. وقد كان هذا الاعتقاد قمة



الحماقة والغباء، نعم فظنك واعتقادك أن شيئًا ما في هذا العالم ثابت لا يتحرك هو حماقة، وخاطيء تمامًا، كل شيء في الكون من حولنا يتحرك حتى وإن بدا لنا غير ذلك.

راقني ثباتها كما ظننتُ، أعجبني المنظر، قررتُ الحصول على عدة صور معها لنشرها فيما بعد، ويبدو أن ذلك أغضبها. ربما أنَّ بعض الأشياء تستكين في عزلتها، يروقها أن تبقى في مكانها مجهولة لا يعرف أحدٌ بشأنها.

بعد إلتقاط الصور، تعديثُها، ثم شرعتُ في الهبوط داخل شق وادي بلو جون. بدون مُقدمات حدث ما لم أتوقعه، تحركتْ الصخرة من تلقاء نفسها، كأنها قررتْ معاقبتي على أنني اقتحمتُ خلوتها وقمتُ بتصويرها، فسقطتْ عليّ. حاولتُ تفاديها وفشلتُ، حاولتُ صدها، فتدحرجتْ فوق يدي مُباشرة، وحاصرتْها في جانب الوادي على عمق كبير ربما يصل لثلاثين مترًا.



كلُ شيءٍ حدث في ثوانٍ قليلة، فقط غمضة عين، فجأةً .. وجدتُ نفسي مُعلقًا بين جبلين صخريين، داخل شق وادي بلو جون، على بعد سبعة عشر ميلًا من أقرب إنسان. عندما فكرتُ أن أقرب شخص حيٍّ على بعد هذه المسافة، كاد قلبي يتوقف من الفزع. حاولتُ جاهدًا تحرير يدي، لكن من دون جدوى. انقضَتْ الساعات واحدة تلو الأخرى، حلّ الليل، عم الظلام، ساد الهدوء، تعالى صوت حَفِيفٍ آتٍ من كل مكان، «ربما هواء، ربما صوت حشرات الجعل أو أنها حيَّة تحوم من حولي بعد أن شعرتْ بسخونة جسدي أو أنها اشتمتْ رائحة هرمون الخوف الصادر مع أنفاسي»، هكذا اعتقدتُ.

انقضتْ عليَّ أربعٌ وعشرون ساعة وأنا محشورٌ في ذلك الشق، ساعاتٌ حرجة، صعبة، بائسة، فكرتُ في طرق مختلفة أتمكن على أثرها من تحرير نفسي والخروج من الوادي، لم أجد. تسرب اليأس إلى قلبي، «بالتأكيد سوف أموت هنا». هكذا قلت وردَّدتُ في نفسي مرةً بعد مرة، حتى صدقتُ الأمر وبدأتُ أستسلم.



بعد مُضي أربعٍ وعشرين ساعة، في يأسٍ تام، فتحتُ حقيبتي، أخرجتُ الكاميرا، ثبتُّها فوق الصخرة، بدأتُ تسجيل فيديو، قلت فيه: الساعة الآن الثالثة مساءً، الأحد، السابع والعشرين من أبريل - نيسان، العام 2003م، الآن تكتمل أربعٌ وعشرون ساعة على حصاري داخل وادي بلو جون. اسمي آرون رالستون، أبواي هما دونا ولاري رالستون، من أنغلوود، كولورادو. أيُّ شخصٍ، يحصل على هذا، يمكنه الاحتفاظ بالمسجل، لكن أرجوه أن يحاول الاتصال بوالديَّ، وأن يعطيهما هذا الشريط، سأكون ممتنًا له.

عند هذه الكلمة توقفتُ عن الحديث، نعم .. توقفتُ وأوقفتُ تسجيل الفيديو، ثم دخلتُ في نوبةٍ من البكاء الهستيري. إنني أسجل فيديو أخيرًا قبل وفاتي، لقد تمكن مني اليأس تمامًا. كنتُ أدرك مدى أهمية تسجيل هذا الفيديو، فأنا سأموت في هذا المكان النائي، من المؤكد أن جُثتي سوف تتعفن وتتحلل قبل أن يأتي أحدهم إلى هنا، لن يتبقى سوى هذه الكاميرا وهذا



الفيديو. لذلك تمالكتُ نفسي مُجدَّدًا، ثم أكملتُ تسجيل الفيديو. قلتُ:

كنتُ أهبط وادي بلو جون بالأمس، حيث انطلقتْ هذه الصخرة الطباشيرية (وقمتُ بتصوير الصخرة)، وتدحرجتْ على ذراعي، والآن ذراعي محاصر، لون الإبهام أزرق ورمادي، إنَّهُ بدون دورة دموية منذ أربعٍ وعشرين ساعة، لذا أعتقد أنَّهُ مات، طعامي قليل ، لدي حوالي 300 أو 400 ملليلتر من المياه، وهذا كل ما لديّ من الماء، وأنا على بعد عميقٍ في الأسفل، إنني أموت هنا، سأذوي وأتلاشى هنا مع ذراعي المحشورة في هذا المكان، عندما يقتلني الجفاف في نهاية المطاف.

في هذا اللحظة تحديدًا تعالى صوت الحَفِيف، ومر شيءٌ ما في الأعلى، فتساقطتْ من فوقي قطعٌ من الحصى وبعض الرمال، ظننتُ أن هذا شخصٌ ما، فبدأتُ في الصراخ: «مرحباااا، هل من أحدٍ بالأعلى؟ أنا هنا بالأسفل، النجدة، النجدة، النجدة».

كنتُ أصرخ بجنونٍ لا يُصدق، كان الأمل الوحيد لبقائي حيًا هو أن يأتي أحدهم إلى هنا وينقذني. لكن شيئًا من هذا لم يحدث. قلتُ: «لن يأتي أحدهم لينقذك دائمًا، عليك معرفة أنك وحدك من عليه إنقاذك».

بعد دقيقة، هدأتُ من روعي، أدرتُ الكاميرا، وقمتُ بإعادة تشغيل ما صورته، أردتُ أن أرى ما قمتُ بتسجيله، رأيتُني وأنا أصرخ في هلعٍ بأعلى ما يمكن، وقد امتلأتْ ملامحي بالخوف. أغلقتُ الكاميرا غير راضٍ عما شاهدته، «لم تكن جبانًا من قبل»، هكذا قلتُ لنفسي، ثم أدركتُ القاعدة الأولى التي يجب على المرء أن يتبعها في مثل هذه الأمور؛ (لا تفقد أعصابك).

نعم، عند وقوعك في مأزقٍ كبير، عليك ألّا تفقد أعصابك، تحلى بالهدوء، استنشقْ بعض الهواء جيدًا، دع الهواء يدخل إلى رئتيك بكثرة، ثم رتب أوراقك؛ أين أنتَ؟ ما هو حجم المشكلة؟ ما هي إمكانياتك المُتاحة لحل هذه المُشكلة؟ ولا تيأس مهما كان الأمر بذلك السوء الذي تتوقعه.



رتبتُ أوراقي، نظرتُ إلى ما أملك، معي بكرة من الحبال، طعام يكفيني لثلاثة أيام، المياه تكفيني لأربعة أيام إذا ما اقتصدتُ في الشرب وكان الجو رطبًا، معي قصافة حديدية، ربما أستخدمها في شيءٍ ما.

القاعدة الثانية كانت: (إياك أنْ تكون متشائمًا)، التشاؤم يجلب اليأس، فكر في الأشياء الجيدة التي سوف تحدث لك بعد أن تتحرر من مشكلتك هذه، لأن ذلك من شأنه أن يعطيك دافعًا قويًا من أجل التحرر.

ثم .. ماذا حدث؟

مائة وسبعة وعشرون ساعة كاملة بقيتُ فيها مُحاصرًا داخل وادي بلو جون، ما أبقاني حيًا لم يكن الذكاء، لم تكن الموهبة، لم يكن التعليم، إنمَّا مقولة آنجيلا دي كورث التي سمعتُها قبل الخروج من المنزل، نعم، ما أبقاني حيًا هو العزيمة والإرادة كما قالت أنجيلا.

جلستُ في كل دقيقة أراقب ما يحدث، الماء ينقص رويدًا رويدًا، الطعام بدأ ينفد فعليًا، طاقتي تقل بمرور



الوقت، اليأس يحاول جاهدًا أن يتسرب إلى داخلي، أحاربه، أتشبث بالأمل. ثم نفدت المياه في منتصف اليوم الرابع، أصبح الأمر في ذُروة الصعوبة، الموت أصبح حتميًا، عند هذه اللحظة بدأتُ أضحك في هيستيريا، قلتُ في نفسي: إن هذه الصخرة قد تكون من العصر الطباشيري (الكريتاسي)، أي أن عمرها أكثر من 65 مليون سنة، أو أنها ظلت تنتظرني منذ الزمن السحيق. منذ أن كانت جزءًا من نيزك يسبح في الفضاء قبل بلايين السنين، ومنذ أن كنتُ أنا نطفة ضئيلة في بطن أمي، كان بيننا هذا الميعاد الحتمي الذي رتبه القدر دون رحمة، بكل دقة في لحظة بعينها. ظلت الصخرة تسعى إلى هذا المكان تحديدًا طيلة عمر الأرض، وظللتُ أنا أسعى إلى هذا المكان منذ ميلادي، حتى التقينا، ليكون حتفي هُنا.

ضحكتُ، ثم صرختُ، ثم ضحكتُ، ثم صرختُ مُجدَّدًا بأعلى ما يمكن للمرء أن يفعل، قلتُ بإصرار: لن أموت اليوم، ولن تقتلني هذه الصخرة.



أمسكتُ بالقصافة المعدنية، حاولتُ استخدامها في تكسير الصخرة، لكن من دون فائدة، كانت الصخرة صلبة للغاية، بيد أني اكتشفتُ أن نجاحي في كسر جزء منها سوف يتسبب في سقوطها للأسفل على ذراعي، بالتالي تُحشر ذراعي أكثر. تمكن مني العطش، شعرتُ بالموت يحوم حولي، أخرجتُ كيسًا بلاستيكيًا من الحقيبة، قمتُ بوضعه أسفل المثانة، تبولتُ فيه، ثم حُلّت المُشكلة. قريبًا لن يكون هناك ما أتبوله، الموت آتٍ مرة أخرى.

مُجدّدًا صرختُ: لن أموت مع هذه الصخرة، ثم قررتُ فعل أكثر شيءٍ مجنون قد يفعله إنسان، قررتُ بتر يدي المحاصرة من جانب الصخرة. كان سلاح القصافة باردًا، لم يكن حادًا، كما أنّهُ صغير للغاية، لكن الحياة تتطلب ما هو أكثر من ذلك، تتطلب التضحية.

لمدة خمس ساعات كاملة، قمتُ بعملية بتر يدي من المعصم، تعرضتُ لألمٍ عظيمٍ لا يُطاق، أقصى ما كنتُ آمله في تلك اللحظات، هو ألّا أفقد الوعي، قمتُ بتقطيع الجلد الخارجي، ثم اللحم، ثم قطعتُ الشرايين



والأوردة والأحبال العصبية واحدًا تلو الآخر، ثم جاءت مرحلة تكسير العظام.

كنتُ ملطخًا بالدماء كأنني تعاركتُ مع خنزير وحشي أو دبٍّ قطبي. لكن .. العرق ينزف من جميع أنحاء جسدي الجاف بلا ماء، كنتُ أتصفى، أتجفف. في النهاية حُررتْ يدي، كنتُ أشعر بإعياءٍ شديد رغم أنَّ المشكلة لم تنتهِ بعد، بقي عليَّ تسلق شق الوادي للأعلى، ثم السير على الأقدام مسافة سبعة عشر ميلًا كاملة.

وماذا بعد؟ قبل أن أغادر الوادي لوحتُ للصخرة، قلت: وداعًا مؤقتًا، سوف أعود إليكِ مُجدَّدًا. بعد المشي لما يقرب من العشرة أميال، قابلتُ بعض المغامرين من متسلقي الصخور، كنتُ في حالةٍ رثة، الدماء تنزف من ذراعي، ملابسي ممزقة ومبللة تمامًا بالدماء، صرختُ فيهم: ساعدوني، لقد وقع لي حادث وقطعتُ يدي.

استطعتُ الحصول على بعض الماء منهم، قال أحدهم:

- تحتاج للراحة، توقف قليلًا لتتنفس

نظرتُ إليه مبتسمًا وقلتُ :

- لا وقت للراحة، أفضل متابعة المسير كي أعود مُجدَّدًا لهذه الصخرة

ثم ماذا؟ تزوجتُ بعد ثلاث سنوات، وعدتُ مجدَّدًا لتسلق الصخور وهبوط المنحدرات والأودية، لكنَّ شيئًا واحدًا تغير؛ أصبحتُ أخبر زوجتي بمكان وجهتي في كل مرة أخرج فيها. وها هي يدي كما ترون، بدون قبضة وكف، فقط جهازٌ حديدي.

بعد كل ما أنصتم إليه الآن، هل تظنون حقًا أنكم تواجهون صعوبات؟ أو أن هناك شيئًا ما يستحيل عليكم تجاوزه؟

كانت الثلاثون دقيقة الممنوحة لآرون رالستون قد انتهتْ بالفعل، لذا أنهى حديثهُ وعاد إلى مقعده في الصف الأمامي مُجدَّدًا، ضجت القاعة بمشاعر متضاربة، البعض بكي تعاطُفًا وهو يشاهد يد آرون



رالستون المقطوعة، البعض بكي بعد أن تخيل مُعاناة رالستون، لكن ما أجمع عليه الجميع، أنهم وقفوا في أماكنهم يعبرون عن الامتنان والاحترام الشديدين لما سمعوه بالتَّصفيقِ الحار والحماسة منقطعة النظير.

كانت هناك عشر دقائق مُقرر لها أن تكون استراحة، قبل أن يعود المُحاضر جاك أنتا ديوب مُجدَّدًا ليعتلي المنصة، ثم يقوم بتقديم المتحدث التحفيزي الثاني. قالت الأُم چيني:

- صحيح .. لا يعلم المرء مِنَّا مدى مقدرته على التحمل إلَّا عند لحظات وقوعه تحت طائلة الاختبارات الشاقة

بينما قالت أدولڤين:

- لولا الصعوبات ما أصبح المرء قويًا، إننا ندين بالشكر للأوقات الصعبة التي خلقتْ منا أقوياء بإمكانهم الاعتماد على أنفسهم، وكشفتْ لنا حقيقة ما نستطيع فعله.



لم يبدِ ڤيني ڤرانس أي ردَّة فعل، بدا شاردًا غير مُبالٍ بما يحدث، بينما شعرتُ من أعماقي بالحماس الشديد، وددتُ لو تبدأ مباراة أندرلخت في تلك اللحظة، قلتُ: لو أن المباراة بدأت الآن، أعتقد أنني سوف أخرق الأرض من شدة الحماس.

بعد مُضي عشر دقائق، اعتلى جاك أنتا ديوب المنصة مرة أخرى، مُبتسمًا وجّهَ حديثهُ إلى السيد رالستون، قال :

- لا أعرف كيف نشكرك على ما قدمتَه لنا، في الحقيقة أنتَ أفضل مثالٍ قد يُحتذى به في مواجهة الصعوبات. شكرًا جزيلًا لك.

من ثم وجه حديثه للضيوف في القاعة، بعد أن ضم كفيه على بعضهما، فبدا كأنه يتوسل للحاضرين، قال:

- خذوا بالعلامات، تفاءلوا، لكن توقعوا الأسوأ، استعدوا دائمًا وتحلوا بالعزيمة. وقتَ الشدة استنشقوا الهواء، دعوه يدلف إلى رئتيكم و كأنكم في مُنتزهٍ أو



وسط حديقة عامة، تجهزوا دائمًا للتضحية من أجل النجاة. الحياة لم تخلق للضعفاء.

والآن .. مع المتحدث التحفيزي الثاني، الظاهرة البشرية، وأقوى رجلٍ في العالم، الملقب بالرجل الحديدي كما قيلَ عنه، السيد ديفيد غوغينز، صاحب ال 35 عامًا، حيث أنَّهُ ولد في السابع عشر من فبراير 1975م، داخل ضاحية بوفالو، بولاية نيويورك، الولايات المتحدة.

نهض غوغنز من مقعده في الصف الأمامي، تحرك صوب المنصة، فظهر للجميع، شابًا أسود، طويل القامة، له عضلاتٌ بارزة، عينان سوداوان ضيقتان وحادتان. تحرك بخطوات سريعة وثابتة بدا على أثرها مُتلهفًا لما يفعله وواثقًا بشدة من نفسه. تبادل التحية مع جاك أنتا ديوب قبل أن يعتلي المنصة. ثم بملامح جادة وصوتٍ عالٍ قال دون ترحيبٍ أو مقدمات:

- طوال الوقت، مُذ كنتُ صغيرًا، لم أكن أكترث لشيء، غير مُبالٍ، لا أحُب أن يأخذني أحدهم دائمًا على محمل



الجد، لأنني في الحقيقة لستُ إلهًا، ولستُ نبيًّا، أنا مجُرد كائن صغير، يحاول أن يبقى مُحافظاً على مزاجه لنهاية اليوم، وتلك كانت المُعضلة.

نشأتُ في أسرةٍ أساءتْ مُعاملتي، قضيتُ سنوات دراسة الثانوية باعتباري أحد الأطفال السود، في بلدة إنديانا الصغيرة، لقد نشأتُ في مكانٍ مُنحدر، أتيتُ من خلفية فظيعة، تم مناداتي بالزنجي في كل يومٍ من حياتي أثناء نشأتي. كان مقر جماعة الكوكلوكس العنصرية يبعُد عن مسكني حوالي عشرين ميلاً، ابن أحد البارزين في هذه الجماعة جلس خلفي في الصف لسنتين متتاليتين، وكان يناديني طول الوقت بالزنجي. كان عليّ أن أتحمل التسلط والتنمر الذي لا يتوقف، زملاء الصف ينظرون إليّ في شفقة فأشعر بالخزي الكبير، العار، الضعف والوهن، ولا أحرك ساكنًا.

بسبب الضغوط النفسية المحيطة، بالكاد استطعتُ التخرج بمعدل درجات Gpa 1.6، أي ما يساوي 71%. اللامُبالاة بجانب الضغوط النفسية، أدت لزيادة وزني إلى أن وصل إلى ثلاثمائة كيلوجرام، أصبحتْ رائحتي



كريهة، أصبتُ بحساسية شديدة، ومرض خلايا المنجلية، كل ذلك بجانب مرض قلب وراثي تسبب لي بثقب في القلب كان بحجم رقاقة بوكر. في أحد المرات كتب لي ذلك الشخص ابن العضو البارز في الجماعة العنصرية على مفكرتي، سوف نقتلك أيها الزنجي. أخذتُ ما كتبه وتوجهتُ إلى مدير المدرسة، الذي قال لي: لقد أخطأوا في تهجئة كلمة زنجي.

كانت هذه أفضل نصيحة استطاع أن يعطيها لي، كان يخشى منهم، تلك اللحظة أدركتُ أني وحدي، ما من أحدٍ هنا لمساعدتي. لم يكن لي أصدقاء، ابتعد عني الجميع، طوال الوقت كنتُ محط سخرية وتهكم، لذلك كنتُ دائمًا مجرد طفلٍ يشعر بالخوف وعدم الأمان، كبرتُ وأنا أشعر باللين والضعف، وصاحب ذلك عدم احترام للذات.

في أحد المساءات، وكان اليوم سيئًا للغاية، تعرضتُ للتنمر والتهكم مُذ خرجتُ من باب المنزل، في طريق العودة للبيت من العمل، رافقتْني صديقةٌ كان ثمة حب قد نشأ فيما بيننا، ظهر بعضٌ من أعضاء جماعة



الكوكلوكس وتعمدوا إيذائي، أحدهم تحرش بالفتاة أمام عيني ولم أستطع فعل شيء، حتى إنَّه تعرض بي شخصيًا، ووقفتُ عاجزًا تمامًا عن فعل شيء. هربث الفتاة من بين أيديهم بصعوبة وهي تبكي.

عدتُ للبيت، وجدتُ الصراصير تجتاح المكان، قمتُ برش الصراصير، ماتت في الحال، لم أدفعها خارج المنزل، تركتُها مُلقاةً على الأرض، جلستُ أمام التلفاز، قمت بتشغيل قناة ديسكفري، كنتُ غاضبًا أكثر مما يمكن تحمله، الغضب كان يجتاح روحي. على أرضيّة الغرفة، صرصاران يصارعان الموت، تفصل بينهما مسافة نصف متر، خلعتُ قميصي، جلستُ أشاهدهما يصارعان الموت. رائحةٌ نتنة قوية تنبعث من القميص، رائحة لا تُحتمل، على قناة ديسكفري، رأيتُ بعض الرجال يخوضون تدريب القوات البحرية الخاصة «سيل». ويخوضون تدريبات أسبوع الجحيم، وكل ما يفعلونه هو أنهم يتدربون بشراسة فقط. كُنتُ محبطًا طوال الوقت، لم أكن أذهب لأي مكان غير العمل، كنتُ



بالضبط ما قال الجميع بأنني سأصبح عليه، والذي كان «لا شيء».

نظرتُ من النافذة باتجاه السماء، قلتُ: طفح الكيل، إنَّ الرب لا يريد لي أن أحيَّا هكذا، هذا ليس أنا. توجهتُ إلى الحمام، فتحتُ خلاط الماء وكان تالفًا، وقفتُ مثل الصنم أسفل فتحة الصنبور، مُتجمِّدًا أحيانًا أو مشويًّا أحيانًا أخرى من تحت الماء، الذي إمّا يكون ساخنًا أكثر ممّا ينبغي فيبرد بعد ذلك برودة الثلج، أو يتحوَّل إلى بارد ليصبح بعدئذٍ ساخنًا إلى درجة الغليان، فلا يصبح دافئًا قليلًا أبدًا، وفي حين كنتُ أغسل وجهي بالصابون انهرتُ باكيًا، مِن ثم قررتُ أن أتوقف عن قول «لماذا أنا؟» قررتُ البدء في ركل بعض المؤخرات لهؤلاء المتنمرين. وهذا وضعني على الطريق لتحويل نفسي إلى أقوى رجلٍ على قيد الحياة.

لم يكن لديَّ ما أخسره، وهذه ميزة جيدة، إذ أن الشخص الذي لا يملك شيئًا يخسره، يصبح لديه طاقة لفعل كل شيءٍ بلا خوف. قلتُ:



«الطريقة الوحيدة التي يمكنني أن أجد بها نفسي هي من خلال تهيئتها للمرور بأسوأ شيء ممكن. معظم الناس يبتعدون عن المواجهة، عن بذل الجهد، لكنني لا أرغب في أن أكون من العامة»، لذا؛ التحقتُ بالجيش الأمريكي، بدأتُ أتدرب، دون كللٍ أو ملل.

ثم ..

أصبحتُ العضو الوحيد في الجيش الأمريكي الذي قام بإتمام تدريبات فرقة سيل على أكمل وجه مرتين، أصبحتُ عضوًا في مدرسة الجوالة، ثم عضوًا بسلاح الجو التكتيكي وتدريب ضباط المراقبة، أنهيتُ التدريب المدمر للرجال السيء السمعة والمعروف باسم أسبوع الجحيم، ثلاث مرات بما في ذلك مرّتان في سنة واحدة، أصبحتُ الشخص الوحيد الذي بدأ وانتهى من التدريب بكسور متعددة بسبب الإجهاد وأصبتُ بالفتاق.

خدمتُ أثناء القتال في العراق، عملتُ حارسًا شخصيًا لرئيس الوزراء العراقي، حملتُ ذات مرة رقم غينيس



القياسي العالمي لأكثر تمرينات الرفع التي يتم إجراؤها خلال أربعٍ وعشرين ساعة، عند أربعة آلاف وثلاثين مرة، ركضتُ في ثمانية سباقات متتالية مائة ميل، ركضتُ أكثر من سبعة آلاف ميل في سنة واحدة، وهوما يعادل الجري في مائتين وسبعة وستين ماراثون، ركضتُ ذات مرة في ماراثون وأنا مريض بالالتهاب الرئوي.

لماذا كل ذلك؟ لأنني قررتُ أن أتحول إلى وحش عصامي، بنى نفسه بنفسه، قررتُ ألَّا أصبح سُخرية للآخرين، أن أصبح أنا بطلي الذي أفتخر به.

في النهاية .. إن أفضل شيء حدث لي، أنه لا أحد ساعدني، لا أحد شعر بالأسف نحوي، لا أحد نظر لي، كان لابد أن أعرف، أنني لن أظل طفلًا صغيرًا طوال حياتي، وبالتالي فإن الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها التطور كانت أن أعاني، لذا ما أدركتُه هو أنه لكي أكون الرجل الذي أردتُ أن أصبح عليه يجب أن أعاني، نظرتُ لنفسي على أنني أضعف شخصٍ خُلق على الإطلاق، لكنني لم ألُمْ الله على أي شيء فعله بالنسبة



لي، فقد خلقني لنفسي، والآن عليَّ فعل شيء. إن الطريقة الوحيدة التي يمكنك بها أن تصبح أقوى، هي تهيئة نفسك لمواجهة أسوأ الأمور التي يمكن لأي إنسان أن يتحملها على الإطلاق. لا ضرر من مُعاناة بعض الألم والمُعاناة الجسدية في سبيل كسب الاحترام وتجنب الألم والمُعاناة النفسية الناتجة عن التنمر والقهر.

كلمتي لكم .. من الصعب البقاء صلبًا أو أن تُصبح قويًا عندما تعيش في قصر كبير في بيفرلي هيلز أو شارع الشانزليزيه، لانك لن تبذل جهدًا في شيء، سوف تصبح كفّاك رطبتين لينتين. لكن من السهل أن تصبح قويًا صلبًا، صعب الكسر، عندما تأتي من بيئة منحدرة وظروف قاسية. إذا كنتَ تعمل حدادًا، يداك موضوعتان وسط النار والصخور، فسوف تمتلك كفين حديديتين، فالشدائد تصنع الأقوياء. وشكرًا لكم.

أنهى غوغنز حديثه، نزل عن المنصة، تحرك من فوره عائدًا باتجاه مقعده. تعالت صيحات الحضور، ضجت

القاعة بالتصفيق الشديد، بينما انغمستْ جماعاتٌ متفرقة في القاعة في أحاديث جانبية عما سمعوه.

اندفع ڤرانس من مقعده خارجًا من القاعة، بطريقة أوحت أن شيئًا سيئًا قد حدث، استغربتُه، شعرتُ بأنه يخوض صراعًا داخليًا مع نفسه، نهضتْ من خلفه أدولڤين والأم چيني، وبدوري لحقتُ بهم.

وقف في الرواق المُطل على فناء المبنى، اتكأ بكلتا يديهِ على السياج الحديدي الذي يعلو السور، بينما توجهتْ أدولڤين برفقة الأم چيني للحصول على عبوات مياه وبعض المشروبات الباردة.

سألتُه:

- ڤيني .. هل أنتَ بخير؟

- نعم نعم .. أنا بخير

- لم أعتد عليك هكذا



- لا شيء روم .. فقط لا شيء

- مجرد مزاجٍ سيء

أوشكت العشر دقائق على الانقضاء، عادت أدولفين برفقة الأم جيني، دلفنا إلى القاعة مرة أخرى، وكان جاك أنتا ديوب في طريقه لاعتلاء المنصة مُجدَّدًا من أجل تقديم المتحدث التحفيزي الثالث.

اعتلى المنصة، وبدأ حديثهُ بالترحيب وقد وجهه للحضور عامة قبل أن يوجه حديثه لغوغينز بشخصه، قال:

- مرحبًا بالجميع .. أمَّا غوغينز فشُكرًا، شُكرًا لمائة عامٍ قادمة على ما قدمتَه لنا. لقد هزمت كل المبررات، تحديت كل الأعذار، أصبحت وبلا منافس ملك «اللا أعذار». وهذا ما يجب علينا جميعًا أن نفعله، نُنحي الأعذار جانبًا لكي نستطيع أن نستمر، وإلا فالفشل بانتظارنا دائمًا.



الآن .. مع مُتحدثتنا التحفيزية السيدة ليزا نيكولز، صاحبة ال 45 عامًا، حيث إنها ولدتْ في مايو - أيار للعام 1966م، في لوس أنجلوس، بولاية كاليفورنيا، الولايات المتحدة.

نهضت السيدة ليزا من مقعدها في الصف الأمامي، امرأة سمراء، متوسطة الطول، ذات ملامح باشَّة تصاحب وجهها ابتسامةٌ عريضة تسر الناظرين. تبادلتْ الترحيب مع جاك أنتا ديوب قبل أن تعتلي المنصة وتبدأ حديثها بالترحيب قائلة:

- أهلًا بكم جميعًا، أتشرف بحضوري هُنا فيما بينكم. بدايةً أودُّ تقديم جزيل الشكر إلى جامعة أنتويرب.

أمّا بعد .. عن تجربتي وما أود مُشاركته معكم، فدعوني أخبركم أن حياتي القاسية بدأتْ وقتما قلتُ نعم، وكان يتوجب عليّ قول لا. زوجي أصبح عنيفًا جسديًا معي، كنتُ ودودة دائمًا، لا أتذكر أبدًا أني كنتُ في علاقة مسيئة قبل ذلك، اعتقدتُ أني لم أكن من هذا النوع من النساء، اللواتي يمكن إيذاؤهن أو إساءة



مُعاملتهن، شفهيًا وعاطفيًا وحتى جسديًا، وأتذكر كيف انتهى الأمر أخيرًا، وشعرتُ بالامتنان لأنَّهُ انتهى وأنني على قيد الحياة، لأنَّهُ كانت هناك أيامٌ عندما كانت حياتي تحت التهديد، شعرتُ بالكثير من الذنب، الغضب، اللوم مرارًا لذاتي، لأنني ضعيفة. والأهم من ذلك كله شعرتُ بالعار من نفسي، وتساءلتُ، كيف وضعتُ نفسي في هذا؟ كيف جعلتُ نفسي مُتاحة هكذا؟ والسؤال الأكبر كان: كيف يمكنني الخروج من هذا؟ كيف يمكنني الانتقال من هذه المكانة الوضيعة؟

لقد مزقني زوجي بفعل العنف الجسدي والنفسي. بعد الانفصال، أصبحتُ محطمة، جثة منسية، أعيش على المساعدات التي تقدمها لي الحكومة. يومًا ما، نفد مني المال، كنتُ حزينة جدًا، كنتُ مفلسةً تمامًا، لم يكن لدي إلَّا أحد عشر دولارًا وبضع سنتات فقط، كان ابني جيلاني بحاجة إلى حفاضات وطعام، لم أكن أعلم ماذا يجب عليَّ فِعله. اضطررتُ للف جسده بمنشفة من القماش لمدة يومين.



ذهبتُ للطبيبة النفسية، أتذكر كيف كنتُ جالسة في مكتب الطبيبة على الطاولة، وسألتْني عددًا لا يُحصى من الأسئلة، غادرتْ الغرفة ثم عادت مع قطعة من الورق في يديها، وقالت: ليزا، لديكِ اكتئابٌ شديد، ويجب أن أقدم لكِ هذه الوصفة

نظرتُ إلى الورقة وكان مكتوبًا بها:

ليزا نيكولز - بروزاك prozac (مضاد للاكتئاب)

لم ألاحظ قدوم هذا المستوى من الحزن، أعتقد عندما يأتي الحزن فإنك لا تعلم أنه قادم، إنه شيءٌ صغير، ظرف واحد بسيط، ثم ظرف آخر، ولحظة أخرى تمر، وأنتَ لا تقول ما هو رأيك، لحظة أخرى عندما لا تقول ما يمليه عليك قلبك، لحظة أخرى عندما تقول نعم وأنتَ في حقيقة الأمر أردتَ أن تقول لا، لحظات أخرى عندما فكرتَ في الجميع قبل أن تفكر في نفسك، ثم تجد نفسك في عيادة الطبيب مُصابًا بإحباطٍ شديد أو اكتئاب سريري، سألتُ طبيبتي، هل يمكنني فعل شيء قبل شراء الدواء؟ هل يمكنني محاولة القيام بشيءٍ



آخر؟ لأنه عندما أخبرتِني أني حزينة للغاية، ما أدركتُه هو أني نسيتُ من أنا، أني أصبحتُ زوجة خرقاء، أم جيلاني، هذا كل ما كنتُ عليه، وبعد ذلك كنتُ المرأة التي تساء معاملتها، ثم كنتُ الابنة التي تحاول إخفاء سوء المعاملة عن أبيها و أمها، لقد نسيتُ من أنا .. هل يمكنكِ إعطائي فرصة ثلاثين يومًا أبحث فيها عن نفسي ثم أعود إليكِ؟

قالت الطبيبة: نعم نعم، بالطبع، عليك أن تكتشفي من أنتِ؟ ذكري نفسك من تكونين.

عدت للمنزل، علقتُ أوراقًا على الحوائط، كتبتُ فيها: ليزا، أنتِ معجزة لا يمكن تكرارها، ليزا، أنتِ جميلة بطريقتك الخاصة، ليزا، أنتِ تستحقين حبًا صحيًا، ليزا، أنتِ من مخلوقات الله، يجب أن تكوني فخورة بنفسك، يجب أن تغفري لنفسك، يجب عليك الابتعاد عن الشعور بالذنب، الأسف، الغضب، والندم. يجب أن تعودي تلك الفتاة المدللة من جانب أبيها ونفسها قبل الزواج.

قلتُ لنفسي: الحياة لا تعترف بالضعفاء، ولا تشفق عليهم. مرارًا كدتُ أموت قهرًا، فكرتُ بالانتحار مرة تلو مرة، ما أنقذني لم يكن الذكاء الاجتماعي، لم يكن المظهر الجيد فأنا بطبيعة الحال سوداء والبعض لا يروقهم المرأة السوداء لأنهم عنصريون. لم تنقذني الصحة البدنية فقد كنتُ ضعيفة البنية دائمًا، كذلك لم تنقذني نسبة الذكاء، ما أنقذني دائمًا هو الجَلَد.

الجَلَد؛ هو الصبر والمثابرة لتحقيق أهداف على المدى الطويل. هو امتلاك القدرة على التحمل. هو التشبث بمستقبلي ليلَ نهار، ليس فقط لمدة أسبوع أو شهر بل لسنوات، وكذا العمل بِكَدٍ لجعل ذلك المستقبل حقيقة. الجَلَد هو أن أعيش كأني في سباق الماراثون وليس سباق السرعة

بعد ثلاثين يومًا، عُدتُ إلى مكتب الطبيبة، قلتُ لها: الآن، أنا على استعدادٍ تام لبدء العلاج إذا لزم الأمر ومشاركة الأمر معكِ. سألتْني سؤالًا تلو الآخر تلو الآخر تلو الآخر مرة أخرى، وفي النهاية قالت: عندي سؤالان إضافيان لكِ يا ليزا، فهل تسمحين؟



قلت: ماذا؟

قالت: ما الذي قمتِ به خلال الثلاثين يومًا الأخيرة؟ وهل يمكنني استخدام ما قمتِ به مع المرضى الآخرين؟

قلتُ لها: ما قمتُ به هو أنني اكتشفتُ كيف أعود إلى نفسي، فلديَّ إيمانٌ راسخ بأنَّه عندما تكتشف قيمة نفسك الحقيقية، تصبح بخير.

في هذه اللحظة تحديدًا، تحسستُ بطن جيلاني، وقلتُ له: لا تقلق يا بني، أمك لن تكون مُفلسة أو مُحطمة أبدًا بعد اليوم.

كان قلبي يتقطع من الأسى، تمنيتُ لوأنَّ كل ذرة في جسدي تفنى لكي أتخلى عن كل شيءٍ وكل شخص وأولد من جديد، في تلك اللحظه تأكدتُ بأني وصلتُ إلى القاع، ووجب عليَّ النهوض ومغادرته.

ماذا فعلتُ؟ عملتُ بخزانة ملابس يُقال بأنها مكتب، كنتُ أضع المرايا بالأرجاء لكي تتسع قليلًا، جلستُ بها



خمس سنوات. بحثتُ عن أشخاص ناجحين لديهم حياة أريد أن أعيشها، كنتُ أحضر إلى نفس التدريب النفسي والتحفيزي ليس مرة واحدة أو مرتين، بل اثنتين وأربعين مرة مُتتالية. نعم هذا ما عنيتُه؛ اثنتان وأربعون مرة مُتتالية!! كنتُ أريد أن أُكمل جُملهم، أن أعرف ما يعرفون، كنتُ أريد أن أمشي، أتحدث، وأبدو مثلهم.

اخترتُ أن أكون من ضمن مجموعة من الأشخاص لأذهب الى إحدى الندوات التحفيزية، كنتُ فيها المرأة الوحيدة من أصول أفريقية. وبفترة وجيزة أصبحتُ أنا من يقود هذه الندوات، ولكني كنتُ مستعدة أن أكون طالبة أولًا.

كل يوم صباحاً كنتُ أقول لنفسي: «لا يوجد شيءٌ لأخفيه، لا يوجد شيء لأُثبته، لا يوجد شيء لأحميه، لا يوجد شيء لأدافع عنه». يا إلهي كم هو مريحٌ هذا الشعور عندما نستعيد طاقاتنا الضائعة في الدفاع والحماية ومحاولة إثبات أنفسنا لغيرنا من الناس.



كنتُ يوميًا أقول لنفسي: ليزا أنا فخورةٌ بكِ، ليزا أنا أسامحك، وأكمل الجملة بثلاثة أسباب، وكم كان وقعها صعبًا عليّ إلى حد البكاء، فقد كنتُ أتذكر ابني الصغير، ووالده المسجون، والعلاقات المليئة بالتعنيف الجسدي والنفسي، والمال الذي لم أستطع الحفاظ عليه. ولقد استمر هذا الشعور لمدة ستة أشهر. أيضاً كنتُ أقول: ليزا، أنا ألتزم ب ... وأكمل بالثلاثة أشياء.

عملتُ تسع ساعات صباحية، كنتُ أضع جيلاني في أحد مراكز الرعاية وأخرج للعمل، لآتي به الى المكتب الساعة السادسة مساءً وأعطيه بعض الألعاب ليتلهى بها لأكمل عملي الخاص إلى منتصف الليل.

كان يأتيني الراتب كل أسبوعين، وعدتُ نفسي بأن أضع جزءًا منه جانبًا وأكتب عليهِ (لتمويل حلمي). أنشأتُ حسابًا بنكيًا أسميتُه (الحلم).

لم أعد أنفق على شعري، أظافري، لم أعد أذهب لتناول الطعام خارجًا، منعتُ نفسي من أشياء كثيرة، لدرجة ظنَّت عائلتي أني جُننتُ أو أني أتعاطى المخدرات.

كنتُ أحول للبنك كل مرة 5% أكثر من المرة التي سبقتْها، حتى اضطررتُ للخروج من منزلي والعيش مع شريكة سكن مدمنة، كنتُ أضع مناشفَ تحت الباب لكي لا يدخل الدخان إلى الغرفة، كنتُ أنام مع ابني على سريرٍ واحد. بعتُ مقتنياتٍ كبيرةً وكثيرة حتى أمول حلمي، قللتُ عدد الساعات التي أعملها في عملي الخاص وأخذتُ وظيفة جديدة حتى أحصل على المال. بعد ثلاث سنواتٍ ونصف، توجهتُ إلى المصرف، أخبرتُهم باسمي، كنتُ فقط أريد أن أعرف المبلغ الذي وصلتُ إليه، ولكن عندما أخبرتُهم باسمي صرخوا جميعًا، والتفوا حولي، حتى المدير، ثم سألوني:

- هل أنتِ صاحبة تمويل الحلم؟

- فقلتُ: نعم ..

- قالوا: أخبرينا ماهو حلمك؟

- قلتُ: لا أدري .. ولكن لا بد وأنَّهُ يحتاج إلى مال



أحضروا ورقة فيها قيمة المبلغ، لكن لم أصدق ما رأتهُ عيناي، كان المبلغ اثنين وستين ألف دولار. قرأتُه وقلتُ:

- اثنان وستون ألف دولار؟!

علق المُدير:

- نعم .. اثنان وستون ألف دولار

كررتُ لهم اسمي مرة أخرى ليتأكدوا، فقالوا إنَّهُ لكِ يا ليزا، فقلتُ لا أعلم، فلم أعرف أحدًا من عائلتي لديه عشرة آلاف أو حتى خمسة آلاف دولار في البنك، فضلًا عن هذا الرقم، وإذا بهم جميعًا يبكون. خرجتُ من البنك، قلتُ لابني جيلاني: أظن بأن حياتنا ستتغير كثيراً.

ذهبنا الى مطعم ماكدونالدز، لأول مرة منذ وقتٍ طويل نفعل ذلك، نعم فقد كنتُ مُستعدة بأن أجوع حياتي كلها لكي أشتري مستقبلي، أشتري احتمالاتي، أعطي حلمي فرصة. ليس من المفترض بنا أن نترك



أحلامنا على الوسادة عندما ننهض كلَّ صباح. أن نتركها خلفنا بالمنزل لنحقق حلم شخصٍ آخر. روح الإنسان لا تهتم بالاقتصاد. روح الإنسان لا تهتم بإذا ما كان أبو الطفل داخل السجن. روح الإنسان لا تهتم بالماضي أو بإذا ما كنتَ تعرضتَ لتحرش أو ما إذا كانت عائلتك محطمة أو فقيرة.

ما تهتم به روحك فقط هو ماذا ستخلق للمستقبل قبل أن تموت، لأنك ما إنْ تصل للحافه حتى يأمرك عقلك بالرجوع الى الخلف، فهو مصمم ليبقيك بأمان. روحك وحدسك يريدانك أن تحلق، يجب أن تستمع الى روحك وتغامر لتحلق، فأنتَ ترى الكثير من الناس يحلقون وأنت واقفٌ على الحافة خائفٌ من السقوط .

أنا هنا لأقول لك اقفز، اقفز فهناك ثلاثة احتمالات؛ إمّا أن تقفز وتحلق، أو أن تقفز وتسقط على شيءٍ ما ناعم، أو أن تقفز وتسقط بقوة، ولكن بكل الحالات ستقف مجدداً. أكبر مخاوفك ليس بأن تسقط، أكبر مخاوفك هو أن تعيش طول حياتك بدون أن تعرف كيف تحلق. أنتَ خائف من أن تغادر هذه الحياة بدون



أن تُعرِّف العالم حقيقتك، بدون أن تُعرف بصمتك، بدون أن تُعرف مساهماتك. فأنا امرأةٌ عادية تختار كل يوم أن تقوم بقرار استثنائي. لذا؛ الآن أصبحتُ رائدة في مجال تطوير الشخصية. أصبحتُ ليزا نيكولز التي تعرفونها.

في النهاية .. رسالتي لكم : اللحظات الرائعة في حياتك مصنوعة من القرارات الصغيرة التي تقوم باتخاذها، ليزا نيكولز لم تتخذ قرارًا كبيرًا للدخول في علاقة مسيئة، لقد اتخذتُ قرارًا صغيرًا بالتنازل عن كرامتي، لقد اتخذتُ قرارًا صغيرًا آخر بالبقاء عندما رأيتُ أول علامة على أنه لم يحترمني بالطريقة التي أستحق أن أُعامل بها، لقد اتخذتُ قرارًا صغيرًا عندما عبرتُ الحد وتقبلتُ تلك اللحظة من عدم الراحة، وسمحتُ لكلماته بأن تعوضني عن سلوكه، إنَّ مهمتك أن تقع في حُب نفسك أولًا، فلا أحد سيريك كيف تحب نفسك، ويجب عليك أن تُظهر كيف تحب نفسك .. ليس لك فحسب، لكن يجب عليك أن تُظهر للأشخاص الآخرين كيف يحبونك، وأنك أول مثالٍ



على ما يبدو عليه الحب، والطريقة التي تحب بها نفسك هي الطريقة التي سيحبك بها العالم، لذلك عندما تقول إنك لستَ بحاجة للراحة إذن فنحن نصدقك، عندما تقول لا، لا تقلقوا عليَّ أنا بخير، فنحن نصدقك. عندما تقول لا، لستُ بحاجة إلى مساعدة، فنحن نصدقك، عندما تقول أنا بخير بمفردي، فنحن نصدقك، لذلك إليكم ما أدركتُه؛ الكلماتُ قوية، الكلمات تعكس الحياة، حياتك هي مظهر مادي للمحادثة التي تجريها في رأسك، وهي مظهر مادي للكلمات التي تخرج من فمك، وإذا كنتَ ترغب في صنع حياة أفضل، فلتجرِ مُحادثة أفضل، إذا كنتَ ترغب في إجراء محادثة أفضل، فلتفكر تفكيرًا أفضل، ليس عنهم ولكن أولًا عنك، وإذا استطعتَ الشعور الآن بشيءٍ يثير في روحك هذا الإحساس القليل الذي لا يمكنك حتى وصفه، إذًا فأنتَ مازلتَ في اللعبة، لم تنتهِ بعد، لم يفتْ الأوان بعد، سواء كنت في العشرين، أو الأربعين، أو الخمسة والخمسين، أو السبعين، أو أيًّا كان عمرك، لم يفت الأوان أبدًا للبدء من جديد، والوقوع في الحب بجنون مع الحياة التي أُعطيتْ لك، أيًّا كانت ظروفك،

لا تيأس، أنا ليزا نيكولز، جئتُ من ضاحية فقيرة في جنوب لوس أنجلوس، اضطررتُ للقتال ثلاث مراتٍ في الأسبوع للعودة إلى المنزل من المدرسة، طُردتُ من الكلية، كنتُ أعتبر شخصًا غير كفءٍ أكاديميًا، لدي عُسر في القراءة، حتى يومنا هذا، أنا الشخص الذي كان يعيش على المساعدات الحكومية، أنا تلك المرأة التي خرجتْ من علاقة مُسيئة. لكن أنا أيضًا تلك المرأة التي قامت بتأليف سبعة من أفضل الكتب مبيعًا، أنا أيضًا تلك المرأة التي هي الرئيس التنفيذي لمشاريع بملايين الدولارات، أنا أيضًا المرأة التي لديها علامة تجارية دولية، تلامس أكثر من ثلاثين مليون شخص في السنة، في حياتي نقط سيئة؟ نعم، لكن بعد نجاحي، أنا أستخدم كل هذا بمثابة وسام، أنا بخير مع ذلك، نجاحي جميل بمناسبة ذلك .. لذا لا تسمح لأحدٍ بأن يضع لك مُسمى، أنتَ أكبر من أي مُسمى، أنا امرأة قبل أن أكون أمًا، أنا امرأة قبل أن أكون رئيسًا تنفيذيًا، أنا امرأة قبل أن أكون ابنة، أنا امرأة قبل أي شيء.



أخيرًا، أقول لكم كأخت، أيًّا كان ما مررتم به، أيًّا كان السن، لم ينته الأمر بعد، في الواقع إنها مجرد بداية. شكراً لكم.

أخلث ليزا نيكولز المنصة وهي تبكي بكاءً شديدًا، وكأن كل ما عانته قد شعرث به وهي تُعيد سرده، عادت باتجاه مقعدها وقد اهتزَّت القاعةُ بالتَّصفيقِ الشديد، ضجت بالتشجيع الهستيري من جانب الحاضرين وقد صاحب تشجيعهم البكاء على ما سمعوه، كلمات ليزا ودموعها الصادقة وهي تتحدث اخترقث قلوبهم جميعًا، جعلتهم يتعاطفون معها ومع أنفسهم.

كانت أدولفين والأم جيني تبكيان تعاطفًا معها طيلة فترة تحدثها، بينما كنتُ أنصتُ بشغف شديد في محاولة مني لحفظ ما تقوله، فكل مقولة رددتْها تستحق أن تدوَّن وتعلق في ركنٍ من أركان المنزل أو أن تُحفظ جيدًا داخل العقل.



عاد جاك أنتا ديوب باتجاه المنصة، وهو ينظر في ساعتهِ نظرةً خاطفة قبل أن يقترب من الميكروفون، كانت الساعة على مشارف الثانية عشرة صباحًا، حيث إن ليزا قد استغرقتْ عشر دقائق إضافية بعد الوقت المُحدد لها. أوحتْ نظرته للحضور بأنَّهُ يتأكد إن كان هناك مزيدٌ من الوقت في عمر الوقت المحدد للمحاضرة أو لا مِن أجل إنهائها. لكن ما حدث كان على عكس المتوقع، فبعد أن وقف خلف الميكروفون قام بالتعقيب على حديث السيدة ليزا نيكولز والثناء عليه قائلًا:

- ليزا نيكولز، نحنُ جميعًا فخورون بكِ، لستِ وحدك الفخورة بذاتك. وأعتقد أنَّ جميع الحضور عليهم مراجعة ما قلتيه مرارًا بينهم وبين أنفسهم، عليهم أن يتعلموا ألَّا يقولوا نعم في الأوقات التي يجب علينا فيها قول لا، فلا تعني لا.

ثم أضاف بنبرةٍ هادئةٍ :

الآن، دعوني أقدم لكم السيد ليزلي كالفيييين.



انتفضتْ القاعة بالكامل تصفق وتشجع لدقيقتين تقريبًا، وما إن هدأتْ قليلًا أضاف چاك أنتا ديوب قائلًا:

- السيد ليزلي كالفين، الشهير ب لس براون، مِن مواليد السابع عشر من فبراير 1945م، أي أنَّهُ يبلغ من العمر 65 عامًا، نشأ في ميامي داخل ولاية فلوريدا، الولايات المتحدة. وهو مُحاضرٌ تحفيزي، وكاتب، بالإضافة لأنَّهُ عمل كسياسي لوقتٍ ما، كما أنَّهُ مضيف تلفزيون الواقع في برنامج ذا لس براون شو.

كان السيد لس براون قد دلف إلى القاعة في وقتٍ مُتأخرٍ أثناء حديث ليزا نيكولز. رجُلٌ متوسط القامة، عريض المنكبين، ريان الجسد، أنيق المظهر، ذو لحية شحيحة، يرتدي سترة سوداء وقميصًا أبيض اللون أنيقًا للغاية، وربطة عنقٍ رفيعة لونها أحمر. بعد انتهاء چاك أنتا ديوب من تقديمه، نهض من مقعده في الصف الأمامي، تحرك باتجاه المنصة، ثم بدأ حديثهُ بروحٍ مرحة، قال:

- أنا جائع .. نعم أنا جائع



ضحك الجميع متفاعلين مع حركته ولكنته في نطق: «أنا جائع»، لكنه قاطع ضحكاتهم عندما أضاف بنبرة صوتٍ مازحةٍ غلب عليها المرح والسخرية، قائلًا:

- كنتُ في الصف الخامس عندما صنفوني كمتخلفٍ عقليًا وأرجعوني للصف الرابع، وبقيتُ على هذا التصنيف حتى وصلتُ للمرحلة الثانوية، لكني قابلتُ مُعلِّمًا في المرحلة الثانوية غير حياتي في يومٍ واحدٍ. كنتُ أنتظر أحد الطلاب، وعندما دخل المعلم الفصل قال لي: ما اسمك؟

قلتُ: لس براون

قال: اذهب إلى السَبّورة واكتب ما أملي عليك

قلتُ: لا أستطيع ذلك

قال لي: لماذا لا تستطيع؟

قلتُ: لا أستطيع فعل ذلك .. إنني لستُ أحد طلابك

قال بثقة: لا يهم، افعل ما أطلبه منك

قلتُ بيأسٍ: لا أستطيع سيدي

قال مُستغربًا: ولم لا؟!

قلتُ في حزنٍ وأسى: لأنني من الطلاب المتخلفين عقليًا

عندها قام من مكتبه ونظر نحوي، ثم قال: لا تقل ذلك مرة أخرى، رأيُ شخصٍ ما فيك ليس بالضرورة أنَّهُ واقعك

عندما قال ذلك بدأ قلبي ينبض بسرعة، الدموع بدأتْ تنهمر من عيني، لقد كنتُ في خلف الفصل واستمع إليه، بكيتُ لأن الكلام الذي قاله، هذا الكلام كان من أجلي. ثم قال: لس براون، إذا أردتَ أن تفعل شيئاً ذا قيمة في الحياة، يجب أن تكون جائعًا. ومنذ تلك اللحظة: أنا جائع.

ذات يومٍ، قلتُ لمعلمي واشنطن: أريد أن أصبح مقدم برامج راديو

قال لي: الأمر بسيط للغاية، فقط اعمل على تطوير نفسك

بعدها بدأتُ أعمل على تطوير نفسي بالفعل، فقال لي: أريد منك أن تتدرب كل يوم، كمقدم برامج للراديو

قلتُ له: لكن الآن ليس لدي أي وظيفة

قال: هذا لا يهم الآن .. ثم أضاف نصيحة العمر التي لا أنساها أبدًا، لأنها عالقةٌ في ذهني دائمًا: «أن تكون مستعدًا للفرصة وإن لم تأتِك أفضل من أن تأتيك وأنتَ غير مستعد». مرَّت الأيام، وبينما كنتُ أعمل على تطوير نفسي تقدمتُ لوظيفة منسق تسجيلات لدى محطة wnb في ميامي. ذهبتُ لشخص اسمه السيد ميلتن باتربل، قلتُ له: كيف حالك يا سيد باتربل؟ أريد أن أعمل كمنسق تسجيلات

فنظر إليَّ وسألني: هل لديك أي خبرة في الراديو؟

قلتُ: لا .. ليس لدي أي خبرة

قال: هل لديك أي خبرة في الصحافة؟

قلتُ: لا يا سيدي لا يوجد لدي

قال: لا تتوفر لدينا أي وظائف

قلتُ: حسنًا سيدي

عُدت للأستاذ واشنطن، وأخبرتُه بما حدث، فقال لي بنبرة صوتٍ واثقة: لا تأخذ الموضوع بشكل شخصي. إنَّ أغلب الناس سلبيون جدا وهم دائمًا ما يقولون «لا» سبع مرات قبل أن يقولوا «نعم» . ثم نصحني قائلًا: ارجع إليهِ مرة أخرى. بعدها ذهبتُ مرة أخرى ..

قلت بنبرة مرح: كيف حالك سيد باتربل؟ اسمي لس براون

قال مُقاطعًا: أعرف اسمك .. ماذا تريد؟

قلتُ بلطفٍ: هل لديك وظيفة منسق تسجيلات؟



قال بحدة: ألم أخبرك أمسِ أنه لا يوجد لدينا وظائف؟

قلتُ وقد تعمدتُ إظهار ملامح باشّة ووجهٍ ضاحك: نعم .. لكني لا أعرف .. ربما فصلتم شخصًا ما أو طردتم شخصًا آخر من العمل

قال الرجل: لم نطرد أحدًا، أغرب عن وجهي

في اليوم التالي عدتُ إليه، ثم تحدثتُ وكأني لأول مرة أراه، قلتُ: مرحبًا سيد باتربل، كيف حالك؟

فنظر إليَّ بغضب وقال: اذهب وأحضر لي القهوة

قلتُ له وقد اعترتني حالةٌ من البهجة الواضحة في ملامحي مع الشعور بالانتصار: حسنًا سيدي .. وذهبتُ لأحضر له القهوة. وبعد فترة أحضرتُ له الغداء ثم العشاء. وبعدها أصبحتُ أذهب لغرفة التحكم، وأقدم الطعام للمذيعين ولا أغادر حتى يطلبوا مني المغادرة.

في أحد أيام السبت بعد الظهر كنتُ في القناة برفقة مذيع اسمه روك، كان يشرب الكحول أثناء البث

المباشر وكنتُ الوحيد الموجود في القناة. ظللتُ أراقبه من خلال زجاج غرفة التحكم، وأمشي ذهابًا وإيابًا دون ملل، كنتُ شابًا ومستعدًا وجائعًا كما أخبرني المعلم. بعدها رن جرس الهاتف، كان المتصل هو نفسه المدير العام. أجبتُ على الهاتف، قلتُ: مرحبًا

قال: لس .. معك السيد كلاين

قلتُ بثقة: أعرف

قال: روك لن يستطيع إنهاء برنامجه

فقلتُ مُكررًا بثقة: أعرف

قال: هل يمكنك أن تُحضر مذيعًا آخر؟

قلتُ: نعم يا سيدي

بعد أن انتهى الاتصال، قلتُ في نفسي: الآن لابد لهذا الرجل أن يعرف أني مجنون. اتصلتُ على أمي وصديقتي كساندرا، قلتُ لهما: شغلا الراديو واخرجا



لحديقة المنزل، سوف أتكلم بالراديو وعلى الهواء مباشرة بعد عشرين دقيقة. من ثم اتصلتُ بالمدير كلاين، وقلتُ: سيدي .. لم أجد أي شخص.

فقال: يا فتى هل تعرف كيف تتعامل مع جهاز التحكم؟

قلتُ بحماس: نعم سيدي

فقال: اذهب ولكن لا تقل شيئًا

قلتُ: حسنًا يا سيدي

لم أطق الانتظار خلف لوحة التحكم، فشغلتُ أغنية حماسية ومرحة ثم جلستُ خلف تلك الطاولة المتحركة، وقلتُ بحماسٍ شديد: انتبهوا لي، هذا أنا، إل بي تريبل بي، ثم أضفتُ بنبرةٍ مليئة بالعظمة: لس براون .. منسق أجمل التسجيلات. لم يأتِ أحدٌ مبدع قبلي ولن يأتي أحد بعدي، يافع، شاب، أعزب، وأحب الموسيقى، مؤهل أصلي، وأكيد بلا شهادة جامعية. سوف أسعدكم بالكثير من الإثارة.



لقد كنتُ جائعًا، كما أخبرني المعلم، «لا بد أن تكون جائعًا» ولا بد أن تعلم أنك تملك العظمة بداخلك، وإذا استطاع واحدٌ منكم فقط أن يتخيل نفسه، بأنه محظوظ وقادر على تحقيق هدفه واذا استطاع معرفة المعنى الجوهري بأن لديك العظمة بداخلك، ومسؤولية لتحقيق هذه العظمة، وبأنك تستطيع أن تجعل والديك فخورين وتستطيع جعل مدرستك تفتخر بك، حتمًا يمكنك أن تصل لقلوب ملايين البشر، ولن يكون العالم كما كنتَ تعرفه من قبل، لأنك سلكتَ هذا الطريق.

شبابَ أنتويرب، لقد كان الأمر صعبًا للغاية، وواجهتُ أزمات مالية في حياتي، كنتُ أتأخر في سداد فواتيري وأتأخر في تحقيق أحلامي، لكنني استمررتُ في ترديد: «يمكنك أن تعيش حلمك»، لقد كان صعبًا أيها السادة، لكني آمنتُ بالعظمة التي في داخلي وداخل كل إنسان، كان في منتهى الصعوبة أن أُحفِّز نفسي كل يوم لتؤمن بأنه يمكنني النجاح، وتمر أوقات أشك في قدراتي، وكنتُ أسأل نفسي: هل يمكنني فعل هذا؟



وسمعتُ صوتًا بداخلي يقول: أنتَ الأفضل .. لا تتخلَ عن أحلامك.

كانت أحلامي من المستحيلات، لكن بالاستمرار نحو الأمام، والاستمرار في الانطلاق نحو حلمي .. قلتُ: يومًا ما سيكون لي برنامجي الخاص، كانت من المستحيلات أيها السادة من مدينة ليبرتي المعدومة من منزل قديم وفقير. كانت أحلامي من المستحيلات، وأن أكون هنا معكم في هذه القاعة في أنتويرب - بلجيكا، كان أيضًا من المستحيلات. بدون شهادة، ومصنف من المتأخرين عقليًا، لكني واصلتُ الركض باتجاه حلمي، لذا أيها السادة، لا تتوقفوا .. لا تتوقفوا أبدًا عن الركض نحو أحلامكم.

أنهي السيد لس براون حديثه تزامنًا مع صيحات استحسانٍ من الجمهور وموجات حماسية من التصفيق الحار والتشجيع. بينما توجه السيد جاك أنتا ديوب إلى المنصة ووقف خلفها ثم قال:



- طوال الوقت، عشتُ دقائق رائعة، حضرتُ الكثير من المحاضرات، لا أتذكر كم بلغ عددها، ربما المئات، أو ربما تجاوزتْ تعداد الألف مُحاضرة مُختلفة، لا أتذكر أني استمتعتُ بمثل هذه المحاضرة من حيث الإفادة والتفاعل.

الآن، قبل ختام هذه المحاضرة، أود فقط لفت انتباه الجميع إلى ثلاثة أشياء لم يخبركم بها المتحدثون التحفيزيون، تركوها لكم تستنتجونها مما قصّوه عليكم.

الشيء الأول، والذي بدا لنا من تجربة آرون رالستون، هو: أن النجاح سيكلفك شيئًا ما، لا يفكر الأشخاص الذين يريدون أن يكونوا ناجحين عادة بالتكلفة التي سيكون عليهم أن يتحملوها، سيكلفك النجاح ما هو أكثر من المال، سيكلفك الوقت، والأصدقاء. النجاح يأتي مقابل ثمن يكون في العادة أكبر مما يريد معظم الناس دفعه، النجاح ليس شيئًا يتم وهبك إياه، إنما هو شيء عليك أن تذهب وتنتزعه، ولكي تتمكن من انتزاعه، يجب أن تكون على استعداد للقيام بشيء



ربما لم ترغب في القيام به، يجب عليك أن تتخلى عن النوم أكثر مما كنت تعتقد، يجب أن تخصص المزيد من المال، مرارًا وتكرارًا. لاتجعل أحدًا يتحدث عن أن الأمر سيستغرق منك وقتًا طويلًا، لأنه قد يستغرق وقتًا أطول بكثيرٍ مما كنتَ تعتقد، ربما سنوات، فهل أنت مُستعد؟

توقف جاك أنتا ديوب عن الحديث، تناول القليل من الماء، فكرتُ للحظة أنَّ حديثهُ في محله تمامًا، بجانب أنَّهُ حقيقيٌ للغاية، لا يوجد نجاح دون دفع ثمنٍ في المُقابل، وثمنٍ باهظ للغاية، فالأشياء الجيدة لا تأتي مُصادفة، بل يجب أن نسعى إليها وننتزعها عن استحقاق.

عاد جاك ليكمل بقيَّة حديثهِ، قائلًا:

الشيء الثاني، نستنتجه من تجربة ديفيد غوغينز، وهو: رحلة النجاح .. إنها رحلة موحشة، النجاح يتسم بالوحدة، هناك وقتٌ، عندما تكون ناجحًا، يتوجب عليك تركيز كل حواسك، طاقتك، وقتك، مشاعرك، في



هذه اللحظة، كل شيء في هذا الموسم، كل شيء في هذا المشروع، كل شيء في هذه التجربة، والناس من حولك قد لا يفهمون هذا، وفي بعض الأحيان، قد لا يبتعدون جسديًا وعاطفيًا فحسب، قد يبتعدون بكل شكل أو طريقة، قد يسخرون منك، أو قد تُبعد نفسك عنهم، لذا يصبح النجاح رحلة موحشة جداً، لا أحد يتحدث عن أنه عندما تتمسك برؤية لا يفهمها أي شخصٍ آخر فإنك تصبح المشجع الوحيد لهذه الرؤية، أنت الوحيد الذي تستعرض هذه الرؤية، وهذا لايعني التوقف عن عرض وتقديم التشجيع للرؤية، وإنما يعني الاستمرار في تقديم العروض، الاستمرار في التشجيع حتى يتمكن الآخرون من فهمك وسماع صوتك، حتى ينضم شخصٌ آخر إلى العرض. قد تكون الشخص الوحيد الذي يشارك في العرض الخاص بك لفترة طويلة، ستظل الوحيد في موكبك، ستظل المشجع الوحيد، قد تحتاج وقتًا طويلًا، وتطلب وتحتاج من عائلتك أو من هم حولك أن يفهموا رؤيتك، لكنهم لن يهتموا، لأن الله لم يعط رؤيتك لهم، لقد أعطاها الله إليك أنتَ، لذا كن على استعدادٍ للسير وحيدًا، على



استعداد لمعاناة لحظات وساعات وأسابيع وأشهر من الوحدة، كُن مُستعدًا أن تكون المشجع في عرضك الخاص، قائد الفرقة، وأحد أفراد المسيرة حتى ينضم إليك شخصٌ آخر. ثم، عند النجاح سوف تجد أكثر بكثيرٍ مما توقعتَ حضوره، الكثيرون سوف يلتفون حولك.

توقف جاك عن التحدث مُجدّدًا، بدا أنَّهُ أنهى حديثه في الجزئية رقم اثنين، فقرر أخذ أنفاسهِ، اهتزَّت القاعةُ بالتَّصفيقِ، البعض أطلقوا صيحاتٍ مُدويةً مُنبهرين بما سمعوه. تهامستُ مع أدولفين وفيني قرانس والأم جيني لثوانٍ قليلة حول ما سمعناه. قاطَعَنا جاك وقد شرع يُكمِل حديثه:

الشيء الثالث نستنتجه من السيدة ليزا نيكولز والسيد لس براون، وهو: أن النجاح آتٍ لا محالة، مهما صُنفتَ كمتأخر عقليًا، أو صنفث عنصريًا، أو بدون شهادات، لكنه لن يأتي إلَّا بعد المرور بأسوأ الأوقات، أحلكها على الإطلاق، ثم يأتي الإيمان بنفسك، والأصرار غير المنتهي، الإيمان بذاتك، محبتك لنفسك، لا يمكن



لشخصٍ ما أن يحصل على النجاح إلَّا إذا أحب نفسه جيدًا وعمل على تطوير ذاته مرارًا وتكرارًا. النجاح سيكلفك الوقت، الكثير من الوقت، الجُهد، والوحدة، سيكلفك أن تُتهم بالجنون أو تعاطي المخدرات، أن يظن فيك الناس أنك غريبُ الأطوار. النجاح سيكلفك الكثير، لكن في النهاية ستفرح به وتتغير نظرة الجميع إليك.

توقف جاك عن الحديث مُجددًا لبرهة من الوقت، ربما ثوانٍ قليلة لم تصل لدقيقة .. ثم عاد وتحدث بجدية شديدة، بدا ناصحًا واعظًا أكثر من كونه مُحاضرًا، قال:

هذه الأشياء الثلاثة عليكم معرفتها جيدًا، تذكروها طوال الوقت، دائمًا، لإنكم إذا كنتم تريدون نجاحًا فعليكم أن تعرفوها ثم تشتركوا بها، وإذا كان هذا كثيرًا بالنسبة إليكم، فلا تشتركوا فيه، لكن إذا اشتركتم، فاشتركوا للحصول على التجربة الكاملة، في كل شيء، في لحظات الوحدة، في السنوات المكلفة، في النهوض مُجدَّدًا لألف مرة، اشترك حيث لا أحد يدعم رؤيتك، اشترك حتى لو كان يومك العملي الذي



مدته أربع عشرة ساعة يجب أن يكون يومًا مدتة ثماني عشرة ساعة، حتى تتمكن وعائلتك من مشاهدة فيلم سويًا، حتى تتمكن وعائلتك من المشي على الشاطيء أو التسكع في الضواحي، حتى يمكنك تناول العشاء معهم، حتى لا تتركهم وراءك، تأكد من أنك تفهم أنَّهُ إذا لم يفهم أي شخص آخر رؤيتك، فذلك لأن رؤيتك يتم رعايتها الآن بواسطتك أنتَ وأنت فقط.

في النهاية ، أتمنى لو أن أحدهم كان هنا قبل سنوات وأخبرني بما أخبرتُكم به الآن.

اهتزَّت القاعة بِالتصفيق الشديد، ضجت بهِ لعدة دقائق دون انقطاع، حالة من الاستحسان والسعادة كانت باديةً على ملامح الجميع وقد اعترتهم حالة من النشوة والحماس، بدا أنهم جميعًا قد وجدوا أنفسهُم في جزءٍ مِن المُحاضرة. تحرك جاك أنتا ديوب في اتجاه الصف الأمامي من المقاعد، حيث وقف كل مِن ديفيد غوغينز، أرون رالستون، لس براون، والسيدة ليزا نيكولز بجانب السيدة كريستين يتحدثون إلى بعضهم البعض بجانب مجموعة من القائمين على



المُحاضرة وقد بدا أنَّهم يتبادلون الترحيب قبل أن يتجهزوا لمغادرة القاعة.

* * *

لقد عدتُ

رفضتْ أدولڤين العودة إلى المنزل، كذلك الأم چيني وڤيني ڤرانس، أصرَّ ثلاثتهم على مرافقتي إلى لييج، لأجل حضور المُباراة مِن المدرجات داخل الملعب، كانوا يعرفون تمام المعرفة أهمية الدعم النفسي بجانب الفارق الذي سوف يُحدثهُ حضورهم معي تلك الأوقات عن قرب.

اقترحتْ أدولڤين اصطحابنا إلى مطعم جيان بيري المُتواجد في شارع قريب من الجامعة، لتناول وجبةٍ من السندوتشات السريعة، فلم يكن أحدنا قد تناول وجبة الإفطار بعد، رغم أنَّ الساعة قد وصلتْ للواحدة والنصف ظهرًا.

كانت الهواتف متروكة في وضع الصمت طوال المحاضرة، وأثناء الطريق، قررتُ القاء نظرة على الهاتف، فوجدتُ إشعارًا بعدة اتصالات فائتة، أبرزها من والدي روجر، بجانب عدة رسائل مِنهُ ومن بعض

اللاعبين في الفريق. فكرتُ أن أتصل به، لكنه سبقني واتصل في نفس اللحظة. أجبتُ اتصاله، فقال:

- رووم .. كيف حالك؟

- بخير تمامًا، وأنت؟

- أنا في ليبج منذ ساعات، سبقتُكم إلى هناك. ألقيتُ نظرةً على الملعب، هُناك ما يقرب من أربعين ألف مُشجعٍ قد حضروا، تواجدوا في المدرجات منذ وقتٍ ليس بقليل، غير أن هناك شيئًا مهمًا للغاية؛ بعضٌ مِن كشافي الدوري الإنجليزي متواجدون في المقصورة الرئيسية، جاءوا لمُتابعة المُباراة عن قرب، لأجل البحث عن أوجهٍ جديدة

- جيد جدًا. هل وصلتْ بعثة أندرلخت بعد؟

- أعتقد ذلك. لكنهم لم يدخلوا ساحة الملعب بعد، ما يزال هناك ساعتان كاملتان على بدء المُباراة

- جيد .. جيد

- رووم، كم من الوقت أمامك للوصول؟

- أنا على طريق E40، الأمطار الغزيرة تُعيق حركة السير، لذا ربما أتأخر عشرين دقيقة عن الوقت المُحدد استغراقة من أنتويرب إلى لييج

- بما يعني؟

- اطمئن روجر، اطمئن تمامًا. سوف نحضر قبل بدء المباراة على أيّ حال

- جيد .. آمل ذلك بشدة

أشعرني حديث روجر بالحماس، فنحن لا نحظى بمباريات فيها مثل هذا العدد من المشجعين كل يوم. بجانب وجود سماسرة الدوري الإنجليزي، إنها فرصة عظيمة لاستعراض ما لديّ من مهارات، من أجل خلق فرصة احتراف في الخارج.

كانت أدولفين والأم چيني ما تزالان تتناقشان حول المحاضرة، كانتا مُتعاطفتين مع ليزا نيكولز، مبهورتين

بديفيد غوغينز، فخورتين بآرون رالستون وصلابة قلبه، وضحكا كثيرًا كلّما تذكَّرَتا لس براون وطريقة حصوله على العمل في الإذاعة.

قالت الأم چيني:

- ما طُرح في تلك المحاضرة يؤكد حقيقةً واحدة، هي أننا لا نولد في الحياة مرة واحدة، بل مراتٍ عديدة، عندما نبلغ حُلمًا مُنتظرًا، عندما نتعلّم ونودّع ظلمات الجهل، عندما تتقدح شعلة الوعي في عقولنا، عندما نحتضن دهشةً جديدة، عندما نعيش تجربة مُلهمة، عندما نخرج من عتمة اليأس إلى نور الأمل، عندما نستفيق من كبوّة نعود إلى الرشد. وكلما ارتقينا في مدارج الحياة ولدنا من جديد.

صدَّقتْ أدولڤين على حديث صديقتها بقول:

- نعم نعم

وأضافت:

- في كينشاسا - الكونغو، ثمَّة مثل قديم مُتداول بين العامة، يقول: عندما تتوقف أحلامك، وتسقط مُستسلمًا لضعفك، تحين ساعتك. لذا على المرء أن يؤمن بأنه ما وُلد إلَّا ليُقاتل مرارًا حتى يولد من جديد، إلى أن يلفظ آخر أنفاسه في الحياة.

تدخل ڤيني ڤرانس قائلًا:

- لا أستطيع ترتيب الكلام كما والدتي، ولا أحفظ الأمثال كما السيدة أدولڤين، لكنني أؤمن بحقيقة أن المرء لا يحيا إلَّا بالأمل والسعي نحو شيءٍ ما ليحققه

أضافت أدولڤين:

- من يفقد الأمل، مات على قيد الحياة

كنتُ أتوقع تأخر وصولنا إلى ليبيج مدة عشرين دقيقة على أقصى تقدير، لكنَّ الأمر كان أسوأ بكثير مما توقعتُه، حيث تسببت الأمطار والضباب في تباطؤ حركة السير، مما تسبب في ازدحام كُلٍ مِن طريقَي E19 و E40، لذا أصبحتْ المدة المتوقع استغراقها



ضعف ما توقعتُه. لم أكن قلقًا، على الرغم أنَّي كنتُ متحمسًا للغاية.

عند وصولنا كانت المباراة على وشك أن تبدأ، طوال الطريق تواصلتُ مع إدارة الفريق لحظة بلحظة، لذا وضعوا اسمي على قائمة اللاعبين المنوط بهم خوض المباراة من بدايتها. دلفنا إلى ملعب موريس دوفراسن، توجه ڤيني ڤرانس نحو المدرجات مرافقًا الأم چيني والأم أدولڤين بعد أن اتصلوا بروجر الذي حدد لهم موقعه في المدرجات. توجهتُ فورًا إلى غرفة تبديل الملابس، لم أنتظر من أحدهم أنْ يرحب بي أو أنْ يُسمح لي بالدخول، دفعتُ الباب، دخلتُ، بدَّلتُ ملابسي، تحركتُ بأسرع ما أمكنني في الممر المنوط به إيصالي ساحة الملعب.

خرجتُ من الممر، انتابني شعورٌ بالحماس الشديد، توجهتُ مُباشرة إلى إدارة الفريق، كان عشرة من اللاعبين قد دخلوا إلى أرض الملعب بالفعل، حيث تبقت دقيقة ونصف على انطلاق المباراة. كان المدير الفني مشغولًا بعدة أوراق بين يديه، راح يتنقل من



إحداها إلى الأخرى مُرتبكًا كما لو يقارن بين معلومات ذات أهمية، يبحث عن شخصٍ يُشركه بديلًا عني في حال تأخرتُ أكثر من ذلك، لكنه فوجئ بنزول يدي على كتفهِ من الخلف تربت عليهِ بعفويةٍ وحماس، التفتَ إليَّ، فقلتُ:

- لقد عدتُ

قال مازحًا وقد بلع ريقهُ:

- أحرِز هدفًا، وحقق الفوز مع زملائك، أو أضعك على دكة البدلاء إلى الأبد

قلتُ لهُ بثقة:

- أعدُكَ بذلك

انطلقتُ باتجاه ساحة اللعب، تبادلتُ التحيّة والأحضان مع اللاعبين بودٍ كبير، نظرتُ بعيني إلى الشاشة الكبيرة المعلقة في إحدى زوايا الملعب، كانت ثمَّة أربعون ثانية تفصلنا عن إطلاق الحكم صافرة بدء

المُباراة، توجهتُ سريعًا نحو المدرجات التي تحوي مُشجعي أندرلخت، تبادلتُ معهم التشجيع، ولم يكن هذا ما أردتُه، إنمّا رغبتُ بتحديد مكان روجر والبقيَّة، كان ينقصني نظرة واحدة من أدولفين. أحيانًا كثيرة نظرة أحدهم تجعلك تفيضُ حُبًّا فتشعل فيك حماسًا لا ينتهي. وهذا ما كنتُ أبحث عنه ووجدتُه.

أطلق الحكم صافرة المُباراة، بدأتْ حماسية للغاية كما المتوقع، أغلب الجماهير الحاضرة كانت تؤازر ستاندارد لييج، صاحب الملعب ومتصدر المُسابقة. اللاعبون في كلا الجانبين لديهم الحافز لإبراز أقصى ما لديهم في الملعب، هناك من يرغب في إحراز الثلاث نقاط لفريقه، هناك من يرغب في الفوز على أندرلخت، وهناك من يعلم بأمر الكشافة الإنجليز في المدرجات، وهناك أيضًا من يطمح في إبراز نفسه رغبةً منه في الانضمام إلى المنتخب، خاصة أن تصفيات كأس العالم قد أوشكتْ.

لعشرة دقائق كاملة استحوذنا على الكرة جيدًا، لكن من دون تهديدٍ حقيقي لمرمى الخصم، كنا مُدركين أن

مرور الوقت سوف يضعنا تحت ضغطٍ نفسي وعصبي، ضاعفنا من الهجمات، في واحدة من الهجمات المرتدة استطاع ستاندارد إحراز هدف التقدم. هدف عكس مسار اللعب تمامًا.

استاء المدير الفني في الخارج، صرخ بأعلى ما لديه في اللاعبين يحثهم على التركيز، رد فعله على الهدف بدا وكأنه صُفِع على وجهه، أصبحت المباراة أكثر صعوبة، بدأتْ جماهير أندرلخت تطلق صيحات الاستهجان، وقف اللاعبون ينظرون لبعضهم البعض فى نظرة يأسٍ وقد اعترتهم حالةٌ من القلق واضحة على وجوههم والحيرة. حاولتُ مع اللاعبين التركيز فقط في المباراة، استطعنا بعد دقائق قليلة أن نستحوذ جيدًا على الكرة طوال الوقت، بدا للجميع أن إحراز أندرلخت لهدف أمرٌ مُحقق، ما هو إلَّا وقت قليل وسوف يتم إنجازه.

كان ستاندارد لييج يلعب بخطة هجومية، فهو على أرضه ووسط جماهيره، لكن المدير الفني للفريق أشار إليهم بتغيير خطط اللعب الخاصة بهم، طلب منهم



التراجع واللعب على خطة التكتل الدفاعي بعد أن رأى سيلًا من الهجمات من جانب أندرلخت، وشعر أن هدفًا على وشك أن يصيب مرماه.

استاءت جماهير ستاندارد من تراجع مستوى فريقهم، وطريقة اللعب الدفاعية، لكنهم ظلوا يؤازرون فريقهم. بعض المشجعين لجأوا إلى حيلهم العنصرية؛ استفزاز لاعبي فريق الخصم، لأجل إخراجهم عن التركيز، بدأوا يلقون علينا زجاجات المياه الفارغة، ويطلقون اللعنات العنصرية، ناداني بعضهم بالقرد الأفريقي مرارًا كُلَّما اقتربتُ منهم، شعرتُ بالغضب. حصلنا على ضربة جزاء في تلك اللحظات من عمر اللقاء، قرر المدير الفني أن ألعبها، رأى أنَّهُ مِن المهم للغاية إعطائي الفرصة لإحراز هدفٍ من أجل استعادة الثقة في نفسي.

عارض مساعد المدير قراره، رأي أني غير مُهيأ نفسيًا بعد ما مررتُ به للعب هذه الضربة، خاصة بعد اضطرابات الأسابيع الأخيرة. لكن المدير الفني أصرّ على قراره.



كُنا في الدقائق الأخيرة من عمر شوط المباراة الأول، إحراز هدفٍ في تلك الدقائق يُعيد المُباراة إلى نُقطة الانطلاق مُجدَّدًا، ومِن شأنِهِ أيضًا إعطاء لاعبي أندرلخت دفعة معنوية قوية مع بدء شوط المُباراة الثاني. المؤسف في الأمر أني ركلتُ الكرة بطريقة لا يفعلها لاعبٌ مُبتدئ، فأهدرتُها.

أطلق مشجعو أندرلخت صافرات الاستهجان، اعترتهم حالة من الغضب كانوا محقين فيها، شعرتُ بالقلق والاستياء من نفسي، لم يكن هذا ما خططتُ له. انتابتني حالةٌ من التوتر والحيرة، شعرتُ على أثرها أني تائهٌ في الملعب. تمنيتُ أن يطلق حكم المباراة صافرته مُعلنًا انتهاء شوط المباراة الأول لتنتهي معه معاناتي وأستعيد بعضًا من التركيز فيما بين الشوطين.

داخل غرفة خلع الملابس، حضر المدير الفني، كان غاضبًا، كاد ينفجر في وجه لاعبي الفريق بالكامل، أفرغ ما في جوفه من حديثٍ شديد اللهجة، طالب كل لاعب ببذل أقصى ما لديه، قال:



- نحن أندرلخت، أفضل فريق في الدوري البلجيكي، لا يمكن أن نخرج مهزومين بهذه السهولة، العبوا كأنكم هواه، كأنكم في حديقة عامة تريدون لفتَ انتباهِ رواد الحديقة، العبوا للاستمتاع وإبهار الجمهور.

أنهى حديثه العام، اقترب مني، جلس إلى جواري صامتًا لثوانٍ قليلة، ابتلع ريقه، تنفس الصعداء، ثم همس في أذني بحديثٍ خاص. قال فيه:

- أراكَ مُتوترًا على غير ما عهدتك، اهدأ، اهدأ، اهدأ .. لا تجعلْ مُشجعي فريق الخصم يستفزوك، ركز فقط على الكرة، أنتَ تستطيع فعل المزيد. لا أريد استبدالك وإخراجك من الملعب والزج بأحد الناشئين. افعل أقصى ما لديك وتذكر جيدًا؛ هذه فرصتك الأخيرة معي

بعد دقائق، غُدنا إلى الملعب، ولم أكن في أفضل حالاتي، فما تزال حالة من التوتر تسيطر عليّ، إلّا أنَّنا سيطرنا على الكرة جيدًا لما يقرب من عشر دقائق، وفي الدقيقة 55 كدنا نحرز هدفًا، فبدأتْ جماهير



ستاندارد تزيد من استفزازها كلما اقتربتُ منهم. أطلقوا السباب العنصري، وازداد توتري للغاية، فبدأتُ ألعب بعنف، وتسببتُ في إصابة أحد اللاعبين، فحصلتُ على كارت أصفر نتيجة عرقلته المُتعمدة. عندها أوقف الحكم المُباراة وسمح بدخول المسعفين. في المُدرجات، وقف روجر وكذلك أدولفين وكلٌّ من الأم چيني وڤيني ڤرانس.

كان جميع لاعبي أندرلخت يقومون بتدريبات الإحماء خارج الخطوط، أشار المدرب العام على المدير الفني بضرورة استبدالي في تلك اللحظة، وحذره من إمكانية حصولي على إنذارٍ آخر يتسبب في طردي من المباراة فتزداد صعوبتها. اقتنع المدير الفني، الذي قرر استبدالي، وأعطي تعليمات بنزول لاعب آخر. بالفعل، قام اللاعب واقترب من الحكم الرابع، ووقف منتظرًا حصوله على الإذن بنزول أرض الملعب.

في هذه اللحظة، نهضتْ أدولفين مِن مقعدها، تحركتْ صوب السلالم التي تفصل بين المدرجات، هبطتْ باتجاه أرضية الملعب، سريعًا توجهتْ نحوها، كنتُ



مُستغربًا لما تفعله، كان المدير الفني خارج الخطوط يترقب ما يحدث بعناية، اقتربتْ من الحاجز، وصلتُ إليها وكنتُ مُندهشًا منها، مستاءً من نفسي، قلتُ لها :

- أنا آسف

قاطعتني في ودٍ قائلة :

- شششششش، لا عليك

احتضنتني بقوة، ثم قبلت جبيني وهي تقول:

- تذكر ديفيد غوغينز، آرون رالستون، ليزا نيكولز، وتذكر جيدًا أني هُنا. هل تفهم؟ أنا هُنا إلى جوارك

تراجع المدير الفني من فوره عن قرار إقصائي مِن المُباراة، قرر سحب اللاعب المنوط بِهِ أن يكون بديلًا لي وأعادهُ إلى دكة البُدلاء مرّة أُخرى، حاول المدرب العام إقناعه بضرورة استبدالي، نوّه أني أهدرتُ ركلة الجزاء، وحصلتُ على بطاقةٍ صفراء، أي أنَّهُ من الممكن طردي في أي لحظة من عمر المُباراة، لكن المدير الفني



راهن مرة أخرى عليّ، أو ربما أنَّهُ راهن على ما يفعله حضن وقبلة على الجبين.

قبل أن تصعد أدولفين عائدةً إلى مقعدها، كان روجر هو الآخر قد هبط إليّ، قال ناصحًا:

- لا تدع الجماهير تستفزك، إنهم يرغبون في استنزافك، خُذ الأمور ببساطة، اجعل الرد في الشباك. أفضل رد على من يستفزونك هو النجاح والتقدم عليهم

أطلق الحكم صافرتهُ، مُعطيًا إشارة بعودة اللعب مُجدَّدًا، ابتعدتُ عن الحاجز عائدًا إلى أرضية الملعب، حاملًا داخل قلبي محبة أدولفين، وداخل عقلي نصيحة روجر. بعد ثوانٍ قليلة، قام أحد المُشجعين المُتعصبين بإلقاء إصبعٍ من الموز فوق رأسي، في إشارة مِنهُ إلى أني قرد، تأجج الغضب بداخلي مرّة أخرى.



في عصبية التقطتُ إصبع الموز، انتويتُ قذفه به، في هذه اللحظة تحديدًا دقتْ نصيحة روجر في أذني، التفتُ للخلف نحو مدرجات أندرلخت، نظرتُ إلى روجر، وكان يفصل ما بيننا مسافةٌ تقرب من الخمسين ياردة، لكني كنتُ أراه جيدًا. أشار بيديه وهو يهمس في استجداء:

- (لا، أرجوك رووم، لا تفعلها)

لم أسمع ما قاله، لكني استشعرته بقلبي. أغمضتُ عينيّ لثوانٍ قليلة، هدَّأتُ مِن غضبي، أعدتُ فتحهما مُجدَّدًا، التفتُ إلى المُشجع الذي قذف الموز، غمزتُ له بعيني اليُسرى وابتسمتُ، ثم قمتُ بتقشير إصبعِ الموز وأكله، وقد كان ذلك آخر ما فعلتُهُ قبل أن تُمرر إليّ الكرة من أحد لاعبي الفريق. استحوذتُ عليها بضعة أمتار، وإذا بي أجدُ نفسي في مواجهة المرمي، سددتُها بقوة شديدة، ربما هي قوة قردٍ غاضب أكل إصبع موز لتوه، فاستقرتْ الكرة داخل الشباك، لتصبح بذلك هدف التعادل لأندرلخت.



لم أجرِ باتجاه جماهير أندرلخت للاحتفال، جريتُ باتجاه جماهير ستاندارد لييج، تحديدًا نحو المُشجع الذي قذفني بالموز، أشرتُ إليهِ بكلتا يديَّ أسأله: هل لديك مزيدٌ من الموز؟

بعد ثلاث دقائق أخرى، لاحت لنا فرصة مؤكدة، كنتُ بمواجهة المرمي، لكني فضلتُ تمرير الكرة لأحد لاعبي خط الوسط القادم من الخلف، كانت فرصته أكبر في إحراز هدف، وقد حدث بالفعل وأحرزنا الهدف الثاني. قُرب نهاية المُباراة، قبل إطلاق الحكم صافرة النهاية بدقيقة واحدة، وفقتُ في إضافة هدف آخر، لتنتهي المباراة بنتيجة ثلاثة إلى واحد ويفوز أندرلخت.

في المساء مِن ذلك اليوم، لأول مرةٍ منذ فترة، شعرتُ أنّ التوفيق والحرِّيَّة يقفان إلى جانبي. عَزَمتُ أنا والبقيَّة؛ أدولفين، روجر، الأم چيني، وڤيني ڤرانس، على الاحتفال معًا، قررنا تناول العشاء سويًا في لييج قبل العودة إلى أنتويرب، توجهنا إلى أحد المطاعم وكان ذائع الصيت بأنَّه يقدم أفضل وجبات الأسماك.



قامت أدولفين والأم چيني بطلب الطعام الذي أحضر إلينا في أقل من عشرين دقيقة، بدت المائدة جميلة ولطيفة، وتنمّ عن ذوق رفيع للمطعم. تلك الأثناء تحدث روجر إليّ ناصحًا، بخصوص ما حدث في الملعب، اللعب الخشن ضد أحد لاعبي فريق ستاندارد لييج. ناصحًا وجهني لضرورة التحلي دائمًا بالروح الرياضية من أجل كسب احترام جماهير الخصوم قبل جماهير النادي الذي ألعبُ له.

* * *

في صباح اليوم التالي، كنتُ في أنتويرب، استيقظتُ مُبكرًا كما العادة، نشيطًا، مُبتهجًا، توجهتُ إلى الحمام من دون عجلة، فاليوم إجازة من التدريبات كما هو المُعتاد لليوم الذي يلي المباريات.

أتذكر أني قبل أن أنام، منتصف الليل، كنتُ أتحدث إلى ڤيني ڤرانس. وقبل ذلك استحممتُ بالماء البارد، قرأتُ مرة أن هذا يجلب الانتعاش. قبلها جمعني حديثٌ مُطول مع أدولفين والسيد روجر ونحن



جالسون في رواق المنزل، تحدثنا فيه عن الخطط المُستقبلية حيثُ قال روجر:

- لا تنظر أسفل قدميك، انظر لما أنتَ عليهِ بعد شهور، وسنوات، وبعد عقد كامل من الزمان، أنتَ في الثامنة عشر من العمر، ولديك مُستقبلٌ باهر، عليك أن تستغلهُ أفضل استغلال حتى لا تقع فيما وقعتُ أنا فيه

تساءلتْ أدولڤين:

- روم .. هل لديك خُطة واضحة لما هو قادم؟

قلت في ثقة:

- قبل ذلك لا. أمَّا الآن، وتحديدًا بعد تلك المُحاضرة، أصبحتُ عازمًا ألّا أخطو خطوة واحدة دون أن أُخطط لها

قال روجر:

- جيد جدًا، هذا ما عليك فعله

أضافت أدولفين:

- إذا ما كانت لديك نوايا تجاه شيءٍ ما، فأطلعنا عليها، نتشارك معك الرأي، وإذا لم تكن لديك خطط، فتعالَ نُفكر سويًا

حدّقتُ إليها في صمتٍ استمر للحظات، قبل أن أخبرها:

- في الحقيقة، ليست لديَّ خططٌ واضحة، ولا أعرفُ مِن أين أبدأ. لكني أعلم يقينًا بأن علي التخطيط جيدًا للمرحلة القادمة

في هذه اللحظة، أمسك روجر القلم الذي يستعمله في كتابة المُلاحظات الدائمة طوال الوقت، وقرَّب إليهِ دفتر الملاحظات، ثم قال:

- إذًا .. لنبدأ بوضع احتماليات ما سيحدث المرحلة المُقبلة، وما يتوجب علينا فعله استعدادًا لها. علينا أن نصنع خطةً زمنية للخمس سنوات القادمة



تربَّعتْ أدولفين على كرسيها القائم بالقرب من النافذة، وتفرستْ في غيمة تتوسط السماء، كانت أطرافها التي تتخللها أشعة الشمس بلون الياقوت والذهب. مرَّرتْ أصابعها بين خصلات شعرها السوداء، التمعتْ عيناها كأنَّهما خرزتان لامعتان من خرز البحر. ثم قالت بنبرةٍ مليئة بموجات من التحُّمس كأنَّها مُستكشِفة أثرية عادت للتو أدراجها في إثر رحلة استكشافِية من بلاد قدماء المصريين الفراعنة، وقد اكتشفتْ أسرارًا حول الأهرامات. وبدأتْ الآن تقصُّ نبأ مغامراتها علينا:

- سوف تحترف. قريبًا جدًا، في واحدٍ من أعرق الأندية الإنجليزية، ثم يتلو ذلك عِدة انتقالاتٍ بين أنديةٍ مُختلفة، جميعُها كبيرة وعريقة، سوف تلعب بجانب أعظم لاعبي كرة القدم من كل الجنسيات

ران صمتٌ من جانبها للحظات، ابتسمتْ من بعده وأضافت بثقة شديدة غامزةً بعينيها:

- وسوف يتم استدعاؤك للعب في صفوف منتخب بلجيكا ضمن التصفيات المؤهلة لكأس العالم القادمة.



وسوف تكون مباراتك الأولى مُدهشةً، مُدهشة للغاية

دهشةٌ وسرورٌ شقا طريقهما في قلبي وقلب روجر الذي قال:

- أتوقَّعُ منك أيضًا التحلِّي بقوّة الإرادة التي تساعدك على شقِّ طريقك حتى بلوغ نهايته. وكما ترى، فإنَّك بدنيًا جاهزٌ تمامًا، وهذا شيءٌ مُطمئنٌ للغاية

جال روجر ببصره حوله وطقطق بلسانه، وأضاف:

- يمكنني أنْ أرى أنَّ أمامنا عملًا يجب إنجازه

بدت الدهشة والسرور في أعين ثلاثتنا. ثم سارعتْ أدولقين وكأنها وجدث حلًا سحريًا لعقدة شديدة، قالت:

- سونيا كارسون

علق روجر مُتسائلًا وقد انفرجتْ أساريره عن ابتسامةٍ هادئة:



- هذه المرأة .. أم بنجامين؟ أليس كذلك؟

مُبتسمةً أكدتْ أدولڤين:

- نعم. هي والدة بنجامين

مُستغربًا سألتُ روجر:

- هل تعرفها؟ أقصد تلك القصة؟

انفرجتْ أسارير أدولڤين عن ابتسامةٍ هادئةٍ وخجولة وهي تقول في حب:

- ما مِن صغيرة أو كبيرة إلَّا أتشاركها مع روجر مُنذ وقعتْ عيناي في عينيه وقلبي في روحه في كينشاسا قبل سنواتٍ طوال

ابتسم ثلاثتنا في ودٍ وأُلْفة وقد لمعتْ أعيننا بفائضٍ من الحب. بعد ثوانٍ قليلة من الصمت، قالت أدولڤين ناصحة بجدية:



- لا يجب أن تَشغل بالك بأكثرَ من شيء. فمن يُشتت نفسهُ بين شيئين يخسرْهما معًا. عليك أن تُعطيَ كل خطوة حقها الكامل وتقوم بها في وقتها المُحدد تمامًا

- بما يعني؟

- بما يعني أن هذا الوقت منوطٌ بك فيهِ أن تنجح في الدراسة وكرة القدم، فلا تشغلْ بالك بأي شيءٍ آخر. لا حفلات، لا سهر. أي لا تدع شيئًا يُلهِك عن مُستقبلك

تدخل روجر قائلًا :

- بمُناسبة الدراسة؛ إذا افترضنا احترافك في أقرب وقتٍ، وهذا ما سوف يحدث، فيجبُ علينا أن نطرحُ سؤالًا: إلى أي وجهة سوف يكون احترافك؟

مُجدَّدًا جال ببصرهِ في الغرفة للحظات قبل أن يُضيف:

- هُناك أربعُ وجهاتٍ مختلفة ليس إلّا، ألا وهي ..

ثم بدأ في تعدادها على أصابع يده:



- الدوري الفرنسي، الإيطالي، الإسباني، أو الإنجليزي.
وهذا يتطلب منك تعلم هذه اللغات، فليس من الجيد لك أن تحترف وأنتَ لا تُجيد التحدث بلغة البلد التي سوف تحترفُ فيها. لا يجب أن يكون هناك مُترجمٌ يعمل وسيطًا بينك وبين من تتعامل معهم.

***

في ثلاثة أسابيع، لعبنا أربع مُباريات مُتتالية في الدوري المُمتاز، انتهتْ جميعها بالفوز بنتائج جيدة، كما أنني سجّلتُ هدفين في كل لقاءٍ مِنهُما. في الليلة التي لعبنا فيها المباراة الرابعة، وبعد انتهاء المُباراة مُباشرةً، ورد إليَّ اتصالٌ هاتفيٌ من صديقي القديم ديرك چاسيلينكيكس، وكانت مُكالمةً مُقتضبة، تبادلنا فيها الترحيب ومن ثم أخبرني:

- غدًا في التاسعة مساءً، فندق راديسون بلو أستريد، رتَّبتُ لكَ موعدًا مع أحد رجال الأعمال الهولنديين.

بعينين لامعتين وصوتٍ بدت فيهِ الدهشة ردَّدتُ من بعده وقد تركتُ مسافةً بين الكلمات :



- راديسون .. بلو .. أستريد .. أنتويرب

- هل من شيء؟

- لا لا .. ما مِن شيء، إنَّهُ فقط أمرٌ قديم

- أكمل ما لديك

- إنَّهُ يُتابعك بشغفٍ مُنذ مباراة ستاندارد لييج قبل ثلاثة أسابيع، وقد حضر مُباراة اليوم أيضًا لمُتابعتك، أعتقدُ بأنَّ لديه ما يود مُحادثتك فيه

أخبرتُهُ:

- لكنني في أندرلخت

- نعم نعم .. بالطبع نعرف ذلك، كما نعرف أن غدًا هو يوم راحتك من التدريبات والذي تقضيه عادةً في منزل العائلة بأنتويرب. لأجل ذلك تعمد الرجل مُقابلتك هناك حتى لا يُضيِّع عليك يومك

لم يعطِني چاسيلينكيكس أي تفاصيلَ إضافيةٍ، فقط اسم رجل الأعمال ورقم هاتفه الجوال، وأنَّ سيارة سوف تحضر لاصطحابي من منزل أنتويرب إلى الفندق قبل الموعد بساعة، ثم أضاف في نهاية المكالمة:

- لا تقلق روم، كل شيءٍ سوف تعرفه أثناء المقابلة

* * *

حين انعطفت السيارة إلى ناصية الشارع، استبدَّت بي الدهشة لما رأيتُه، طلبتُ من السائق أن يتوقف، كُنا في منتصف الشارع المُزدحم، بين مطعم كويك ومقهى ستاربكس، وفي الأمام كان يظهر فندق راديسون بلو أستريد هوتل أنتويرب، في الخلف توجد محطة قطارات أنتويرب.

مُبتسمًا أغمضتُ عينيّ للحظات، عُدتُ بالذاكرة للخلف عدة سنوات، رأيتُني في السادسة من العمر وقد خرجتُ مهرولًا باكيًا مكسور القلب من منزل الضواحي الشعبية المحشور داخل شقٍ مليء بالفئران



والصراصير الطائرة. رأيتني أقف وسط الشارع أمام محطة القطارات وأتساءل:

- لماذا يحدث معي كل ذلك؟

ثم همستُ بصوتٍ منخفض، قلتُ:

- لو أني دلفتُ إلى محطة القطارات الآن، ربما وجدتُ الجدة مارلا بائعة حلوى الأنوف ما تزال واقفةً في مكانها. ربما أنها أيضًا ستعرفني.

قاطعني السائق:

- هل من شيء يا سيدي؟

فتحتُ عينيَّ على اتساعهما وأخبرتُه:

- لا لا، ما مِن شيء، إنَّهُ فقط أمرٌ قديم، وسوف أعود لأجله لاحقًا، يمكنك التحرك الآن.

عند نزولي من السيارة فوجئتُ بأنَّ الجميع يعرفونني جيدًا، كما أني لاقيتُ احتفاءً كبيرًا لم يُخيّل لي يومًا



أن يحدث بهذا الشكل، وهنا تحديدًا في فندق راديسون بلو.

اصطحبني عِدة أشخاصٍ للداخل، بَدوث كرجل سياسة، أو ربما شخصية مرموقة، عملوا بجدية على توفير أعلى درجات الراحة، أوصلوني إلى حيث ينتظرني رجل الأعمال. ما إنْ دلفتُ من الباب ألقيتُ نظرةً فاحصة على المكان، قاعة كبيرة، تزدهي بنوافذ طويلة تمتدّ من السقف إلى الأرضيَّة، موفِّرة بذلك إطلالةً رائعة على محطة قطارات أنتويرب والشارع الرئيسي بجانب حديقة الحيوان. كانت القاعة، بما فيها من جدرانٍ، مغلَّفةً بالجلد وسقفٍ خشبيّ، تتوسطها منضدةٌ كتابة كبيرة أشبه بمائدةٍ مُستديرة من خشب الماهوغني والرخام، تحيطُ بها مقاعد بمساند مرتفعة زرقاء بلون السماء. في الأجناب وزعتْ تحفٌ فنِّية موغلة في القِدَم. على المائدة توجد أطباق بلورية مملوءة بأنواعٍ من الحلوى مُختلفة الألوان والأحجام، بجانب أنصاف حبات جوز الهند المحشوّة بقطع من



أنواع الفواكه المُختلفة. كما وزعتْ عدة زجاجات من المياه بين الأطباق.

ما لفت انتباهي بشدة، كان ثمَّة ركن وقف فيه رجل الأعمال تزيِّنه لوحاتٌ فنِّية جميلة مُعلقة على حوائط القاعة التي بدتْ أشبه ما تكون بغرفة استراحةٍ خاصة لزعيم مبذِّر من زعماء المافيا، وليست قاعة فندق، وما أثارني حقًا كانت صورة كبيرة للاعب الفرنسي تيري هنري، وفكَّرتُ:

- ما الذي تفعله الصورة في هذا الفندق الذي يشبه القصر المنيف المشيَّد بأموالٍ تتدّفَق بكثرة؟

علمتُ فيما بعد أنها أُحضرتْ بناءً على طلبٍ خاص من رجل الأعمال لتزين القاعة أثناء مقابلتنا، وكان ذلك من أجل التأثير على رأيي فيما سوف نتناقش حوله.

انتبه الرجل لحضوري، التفتَ من فوره، كان رجلًا نحيفًا، رغم ذلك كان عريض المنكبين، بدا في نهاية الخمسينيات من عمره، ذا أنف مدوَّر وذقن مشقوق



وحاجبين عاليَيْن، شعره أسود مشذَّب إلى حدٍّ معين من كلّ أطرافه، ولم يكن ذا شارب، أو لحية، بل كان حليق الذقن، يرتدي قميصًا أبيض أنيقًا من دون ياقة مما جعل سواد شعره يبدو أكثر وضوحًا.

قال في ودٍ مُبالغ فيه، صاحبتْه نبرةٌ توحي أنَّه يعرفني جيدًا أو أنَّهُ صديق قديم:

- مرحبًا روم .. اسمي نيكولاس ڤيلتمان

على نحوٍ مترددٍ يشوبه الاستغراب بادلتُه الترحيب بالقول:

- مرحبًا سيد نيكولاس، بالطبع أعرف الاسم، فقد أخبرني به السيد چاسيلينكيكس مُسبقًا

أشار بسبابته وهو يعبر عن امتنانه :

- عظيم. بالمُناسبة، هذا الرجل يحبك حقًا، ويسعى دائمًا لمساعدتك، كما أنَّهُ يضعك دائمًا في مقدمة اقتراحاته عند وجود أيّ فرصة للاحتراف

- بالفعل .. إنَّهُ رجل عظيم

كانت عينايَ تذهبان تلقائيًا في اتجاه صورة تيري هنري المُعلقة على الحائط. ولاحظ الرجل ذلك، فبسط ذراعيه ضاحكًا ضحكة مُجاملة تنم أيضًا عن ثقته في اختيار الصورة المناسبة التي من الممكن أن تساعده فيما يرغبُ فيه، فأشار إلى اللوحات الفنِّيَّة المعلقَّة على الجدران، وأضاف:

- لديهم عدد كبير من اللوحات الرائعة، أعتقد أنها تساوي مئات الآلاف من الدولارات وربما الملايين، هذه القاعة تُعد متحفًا فنيًا عظيمًا، لكن أجمل ما في هذه القاعة هي بالطبع صورة هذه الأسطورة الحيّة تيري هنري

ثم أضاف بنبرة بهيجة ملوحًا بسبابته في الهوء مُشيرًا بها إليَّ:

- والذي ستصبحُ أنتَ خليفتهُ قريبًا



استبد بي الخجل الممزوج بشيءٍ من السعادة، لم أعرف ماذا أقول. في هذه اللحظة، اقترب مني، مد يده إليَّ وصافحني بحرارة، وكان ذلك آخر ما فعله قبل أن يطلب مني الجلوس وهو يشير إلى أحد المقاعد.

ما إنْ جلس أمامي، وضع ساقًا فوق أخرى، ثم قال:

- بالطبع تتساءل من هذا؟ وماذا يريد؟ وأشياء من هذا القبيل، لذا لن أُطيل عليك أكثر من ذلك. أخبرتُك أني نيكولاس ڤيلتمان، رجل أعمال، هولندي الجنسية، برازيلي المولد والنشأة، كما أني مُغرم بكرة القدم، مُشاهدتها تجعلني أشعر كأني تخلّيتُ عن كلّ شيء وانتقلتُ إلى ضاحية من ضواحي ريو دي جانيرو مرَّة أخرى حيث يمكنك الشعور بكرة القدم في كل مكان. في حقيقة الأمر إنَّ أوروبا تُفسد أرواحنا

- كل هذا يبدو رائعًا، لكن .. ما دخلي في هذا الأمر؟

قال بنبرة مُتمنية :

- تعالَ إلى أمستردام، لدينا بيتٌ رائعٌ، يُطلُّ دائمًا على الدوري الهولندي الممتاز، ولا يتغيب عن كأس هولندا، كذلك الدوري الأوروبي، بجانب دوري أبطال أوروبا

ثم ران صمتٌ من جانبهِ، بدا على أثره كمن ينتظر رد فعلٍ ما وعندما لم يجده أضاف :

- سوف تكون لك سيارة خاصة تختار فئتها كما تشاء، بجانب توفير سكنٍ خاص بك وحدك في أفضل مكان في أمستردام، وليس ذلك كل شيء، سوف نجعل لك قيمة تسويقية تساوي خمسة ملايين يورو

أنهى الحديث عن عرضه المُغري وهو يمد يده لتناول بعضًا من قطع الفاكهة الموجودة داخل حبات جوز الهند وهو بأنتظار ردُّ فعلٍ مني، فشرعتُ في الكلام على نحو مُتردد :

- لديَّ عقدٌ مع أندرلخت، ولم ينتهِ بعد

قاطعني مُشيرًا بسبابته :



- أعرف ذلك جيدًا. يا عزيزي أنا رجل أعمال، لا أخطو خطوة واحدة قبل دراستها، وقد اكتشف رجل القانون خاصتي أن هناك ثغرةً تمكننا من إنهاء تعاقدك معهم

- لا أعرف .. لكني مرتبط معهم بعقد، وأمتثل تمامًا لرغبتهم، في حقيقة الأمر أنا مدينٌ لهم بكل شيء وصلتُ إليه، لا أعتقد أن هذه طريقة مناسبة لرد الجميل

جال نيكولاس بنظره واستطرد:

- إنَّهُ زمن الاحتراف، إنها أعمالٌ يا صديقي، أندرلخت لن يتركك هكذا بسهولة، كما أنهم سوف يطلبون الكثير على أنَّهُ حق رعايتك، هذا الكثير قد يكون نصف الخمسة ملايين يورو

لم أعطِ ردًّا، فاسترسل في حديثهِ وهو يشير بإصبعه إلى صورة تيري هنري المعلقَّه على الحائط، قال:

- أتدري أنَّه انتقل بين العديد من الأندية؟ ما يزيد عن أحد عشر ناديًا، حصل أثناء مسيرتهِ على كُل شيءٍ



ممكن في عالم كرة القدم، الدوري الإنجليزي، دوري الأبطال، كأس الأمم الأوروبية، وكأس العالم أيضًا. بالتأكيد كل ذلك حدث لأنَّهُ لم يقل مثل ما قلتَه أنتَ الآن

على نحوٍ واثقٍ قلتُ:

- ربما أنتَ مُحقٌ، لكنه بالتأكيد لم يفعل أو يصل إلى كل ذلك بدون علم أيٍّ من الأندية التي كان يلعب لها، أو بخوضه الصراعات معهم

ابتسم نيكولاس إذ أنَّهُ كان يتوقَّع هذا الجواب، وقال:

- بل فعل هنري ما فعله لأنَّه لم يكن في مكانك، لم يولد في بلجيكا، في ظروف صعبة، لقد ولد في فرنسا، وكانت لديه مميزات عديدة، أهمها أنَّهُ استغل كُل فرصة أُتيحتْ له داخل الملعب و خارجه

تساءل نيكولاس هازًّا رأسه:



- أخبرَني ديرك چاسيلينكيكس أنَّ السيدة أدولڤين لها رأيٌ دائمًا في خطواتك، فلماذا لا نلجأ إليها؟ أودّ أن أسمع رأيها

قلتُ على سبيل التوضيح:

- في باديء الأمر عليك معرفة أن أدولڤين لا تفعلُ شيئًا دون الرجوع إلى زوجها السيد روجر، وصدقني إنَّ ما ترجوه هو آخر ما تودّ حدوثه، السيدة أدولڤين ترفض تمامًا أن تكون غادرة، ليس مع أندرلخت، بل ولو كنتُ ألعب في نادٍ من الدرجة الثالثة أو نادي هواه. السيدة أدولڤين قد توافق على اعتزالي كرة القدم في هذه السن المبكرة، ولا توافق أن يكون ابنها غادرًا

قال مُتردِّدًا :

- لا بأس، دعها تأتِ، ربما تُفاجئنا برأيٍ مُختلف

هاتفتُها في اللحظة ذاتها، أخبرتُها أن تتجهز، فهناك سيارة خاصة سوف تحضر لاصطحابها خلال بضعِ دقائق برفقة روجر إن كان موجودًا، وأجابت :



- سأحضر يا عزيزي، لن أتأخر

في تلك اللحظة حدّق إليّ نيكولاس وقد التمعتْ عيناهُ من وراء نظّارته بلونيها الأسود ولون ظهر السلحفاة، كأنَّهما خرزتان لامعتان من خرز البحر. أما نبرته، فكانت موجات من التحمس كأنَّه واثق تمامًا مما سوف يقوله أو أنه ما يزال يخفي عرضًا آخر يراهن عليه :

- أيها الشاب، تذكر دائمًا أن المال هو ما يحرك كل شيء، وكما قال فيودور دوستويفسكي : «حتي الأحمق يصبح بالمال عملاقًا».

ولم ينتظر ردًّا على حديثه، هم بالخروج وهو يُضيف :

- استمتِع بالمكان قدر ما شئتَ، سوف أتغيّب لدقائقَ قليلة، فلديَّ أعمال تُدار بواسطة الهاتف، سوف أتابعها ثم أعود إليك.

بعد مرور نصف ساعة، حضرتْ أدولقين، وكان أوّل شيء أقدمتْ على فعله عند دخولها إلى قاعة الفندق،



أن استطلعتْها بعينيها. في البداية اعتراها شيءٌ من الارتياب نظرًا لوجودي وحدي داخل القاعة، لكنها وجدتني على خير حال. دققتْ النظر للحظات بعينين لامعتين في صورة تيري هنري المعلقة على الحائط، مِن ثم تنقلتْ بعينيها بيني وبينهُ وكأنها تراني فيهِ أو تراه فيَّ. كانت أقلَّ أفراد الأسرة شعورًا بالقلق، واثقة دائمًا من نفسها، حالمة، وعلى الرغم من كل ما عانته على مدار السنوات المنصرمة، إلَّا أنها بدتْ دائمًا واثقة من نفسها كأن الضر لما يمسسها قط.

في هذه الأثناء عاد السيد نيكولاس، دلف من الباب مُتحمسًا، يبدو أن أحدهم أخبره بحضور أدولڤين، كان ينتظرها على أحرِّ من الجمر، لم يتريث للبدء في الكلام، حتى إنَّهُ نسي أن يطلب منها الجلوس على أحد المقاعد، بل شرع يتحدث مُباشرةً بمجرد عبوره الباب وكأنه يعرف أن السيدة تُفضل الدخول في المواضيع فضلًا عن وضع مُقدمات لا حاجة لها. قال بحديثٍ موارب:



- تحدَّثتُ إلى أندرلخت، بالغوا كثيرًا، بدا أنهم مُتمسكون بأنانية مُفرطة بوجود روم في بلجيكا، لا نيّة لهم في تركه يحصل على فرصته في الاحتراف خارجًا والتي يستحقها بالتأكيد

لم تعلق أدولفين، اكتفت بالإنصات هازةً رأسَها.

أضاف:

- يستحق روم اللعب ليس في أيٍّ من الدوريات الأوروبية، بل في أفضلها على الإطلاق، الدوري الإنجليزي أو الإسباني، لكن المرء لا يقفز مرةً واحدة، لذا أود انضمامه إلينا، سوف يحقّق معنا بعض النجاح وإنْ كان نجاحًا مؤقّتًا على الأقلّ، من ثم نكون بوابة انطلاقٍ له نحو الدوري الإنجليزي.

مُجدَّدًا اكتفتْ أدولفين بالصمت، لم تعلق، لوحتْ بيدها له في إيماءةٍ منها تطلب منه أن يكمل حديثه، فاسترسل قائلًا:



- نحن نرى أن روم يُقدَّر بخمسة ملايين يورو، لكن يمكنني جعلها سبعة ملايين إذا وافقتم على إعطائي توقيعًا في الحال

لم تتأثر أدولفين قطّ بما قاله رجل الأعمال، لأنّها لم تنظر إليه ولا إلى كلماته نظرةً جادّة، كانت مُكتفية بالابتسامة فقط، إذْ ليس في طبيعتها قبول الخطأ أو ارتكابه مهما حُددتْ قيمته، يُخيَّل للبعض أن للمرء دائمًا ثمنًا، وهذا اعتقاد خاطيء.

عند توقفه عن الحديث، ابتسمتْ ابتسامة هادئة وهي تومىء برأسها ذات اليمين وذات الشمال في غير رضى عمَّا سمعتْهُ، لكنها لم تتحدث. غشى نيكولاس صمتٌ قلق يُشبه صمت من ضُبط مُتلبِّسًا بجرمٍ مشهود، فعقدتْ حاجبيها إلى حدٍّ ما، وأومأتْ برأسها إيماءة صغيرة بدت فيها مُستاءة على الرّغم من أنَّ إمارات وجهها بدت مُشوَّشة، ثم أفصحتْ عمّا يدور في خَلَدها باقتضاب قائلة :

- لستُ أنا، ليس ابني.

انتبه نيكولاس أنَّ السيدة أدولقين ما تزال واقفة، فاعتذر بلهفة، حيث قال وهو يسحب لها أحد المقاعد مُتعمدًا عدم الرد على ما قالته كأنَّهُ لم يسمعها آملًا أن يتبدل قولُها :

- اللعنة، نسيتُ دعوتك للجلوس. تفضلي

ابتسمتْ أدولقين، إلّا أنّها لم تجلس من فورها، بل لبثتْ بضع ثوانٍ واقفة، مسمَّرة في ضيقها وعدم ارتياحها. لكنه ألح عليها بالطلب. وأخيرًا، استسلمتْ وتربَّعتْ متراخية في عزيمتها على أقرب مقعد، وعندما نظر نيكولاس إليها ينتظر ردًا، كانت ما تزال جالسة من دون حراك، نظراتها مثبّتة على صورة تيري هنري بعينين لامعتين، منشغلة الفكر في شيء آخر. في اللحظة التي سمعتْ السؤال موجّهًا إليها من نيكولاس:

- ماذا قالت السيدة أدولقين؟

كررت مؤكدة على ردِّها السابق:



- لستُ أنا، ليس ابني

كانت الإجابة ليست كافية حتى يصمت نيكولاس، فقال مُتلعثمًا وهو لا يدري ماذا يقول:

- إنها سبعة ملايين يورو، في أول عقد احتراف

علقت أدولقين:

- الأمر ليس مقرونًا بالمال، بل باحترام الذات، وتقدير الكلمة، بيد أنّنا مدينون لأندرلخت بالكثير من الاحترام، وهو شيء لا يقدر بالمال

قال نيكولاس، محاولًا التغاضي عن الحديث الذي سمعه من غير اكتراث به:

- المرء دائمًا مدين بالفضل لشيءٍ ما، لكن الولاء يجب أن يكون دائمًا للمصلحة الخاصة

ضحكت أدولقين ضحكة ساخرة، وقالت:

- رُبما لديك أنتَ. ليس أنا، وليس ابني



غمغم نيكولاس، على الرغم من الضيق الذي اعتراه وبدا واضحًا في قسمات وجهه بسبب ضحكة أدولقين، ثم انفجر ضاحكًا في سخرية، وقال :

- أتدرين؟ أنا أيضًا كنتُ أردد نفس تلك الشعارات التي ترددينها عندما كنتُ طفلًا صغيرًا. لكني كبرتُ، وأدركتُ أن الأمور تُدار عكس ذلك

لمعتْ عينا أدولقين البنيّه برهةً وجيزةً، وشعرتْ بشعور غريب لا يملكه إلّا من تذكر أحداثًا بعينها مرتْ عليه قبل زمن، شعور مفاده أنّها توشك أن تدخل بستان ذكرياتها المحظور، المليء بالنقص في الموارد، والضعف والاحتياج، فتراجعتْ من فورها، ثم بدت كأنّها تشاطره سرًّا من الأسرار، وقالت:

- كان بودّي أن أوافقك الرأي، لكنني نشأتُ على غير ما نشأتَ أنتَ عليه، فإذا ارتكبتُ خطأ كيف يمكنني النوم؟ إني أعاني دوارًا بسبب كلمة مُسيئة قلتُها دون قصد، فما بالك إذا غدرتُ بكيانٍ مدينة له وزوجي وابني بأفضالٍ عديدة؟



- لكنها سبعة ملايين يورو، في أول احتراف لطفل لم يبلغ الثامنة عشرة من عمره بعد. كل هذا بجانب وضعكم الحالي وما كنتم عليه قبل ثلاث سنوات. أنتم تحتاجون هذا التعاقد

لم تنتبه أدولفين للرقم بقدر انتباهها لكلمة طفل، إذ علقت بنبرةٍ حادة فيها شيءٌ من التحذير والتنوية عن الشعور بالإساءة، عدّلت على حديثه وهي ترفع سبابتها للأعلى قائلة :

- رجلٌ، وليس طفلًا

امتقع وجه نيكولاس الذي لم يعرف ماذا يقول، فاسترسلت في حديثها :

- هل يبدو لك أني لا أجيد النجاة؟ لا يا عزيزي، لقد شهدتْ هذه النفس السقوط المتكرر، لقد تعلمتْ كيف تقف باتزان بعد كل مرة، لقد نفضتُ غبار الخسارة عن ذاكرتي كثيرًا، وفي كل مرة أنام في حضن خسارتي أفز سريعًا، إني سريعة التعثر سريعة النهوض، قليلة



البكاء كثيرة الضحك، قليلة اليأس عميقة الأمل، والأعظم من ذلك أغلَق بشكلٍ مربك في ذاكرة من يمسني. بسيطة لا أعرف الغرور، باسمة لا أجيد العبوس، وفيّة بكل تفاصيلي وميولي وعقائدي، وإذا سقطتُ في عمق عمل ما كنتُ كالعقدة لا أنفّك عنه أبدًا، مهما حاول أحدهم تدمير الذي بيني وبينه، إني مثل طفل لا أملّ المحاولة ولا أعرف الملل، حالمة ولستُ كئيبة

علّق نيكولاس قائلًا:

- ثمّة مثلٌ هولندي شائع يقول : لا تكن مُعقدًا، كن إيجابيًا، استغل الفرص، على المرء ألّا يدع نفسه بين المطرقة والسندان. إنها فرصة لا تعوَّض

كررتْ أدولفين كلماتها مرة أخرى على مهل تاركةً مسافة بين الكلمات:

- لستُ أنا .. ليس ابني .. نحن لا نستغل أحدًا. وليس هذا تعقيدًا سيد نيكولاس، ليس تعقيداً، وليست



حدودًا، إنما هي عزة نفسٍ ووفاءٌ، فنحن لا نهجر الأبواب التي فُتحتْ لنا طوعًا ورحبتْ بنا، كما أنّنا لا نطرق الأبواب التي أُغلقتْ في وجوهنا، لا نهجر من فتح ذراعيه ليحتوينا، ولا نطلب مِمن استدار أن يلتفت، لا نفرض على أحد وجودنا، لا نتحدث بالأريحية مع من لا يهتم، نحن بسطاء، نؤمن بالعفوية والتداخل، لكننا أعزاء في نفوسنا، مدركون لمكانتنا، لهذا تجدنا غالبًا نستقر في المكان طالما أستقر فينا ونهجر مَن لا يقدرنا، أصدقاؤنا الحقيقيون هم من يقدروننا ويتمسكون بنا. عزتنا هي كل شيء عندنا، ربما لأن نفوسنا ثمينة جدًا علينا، فمن العبث أن نسكبها في أرض لا تتلهف لانسكابنا، فمِن جحود الذات أن نمنحها لمن لم يفرد كلتا يديه ليحتضنّنا، ببساطة .. العزةُ طبعٌ فينا، فاحترم اختلافنا

أنهتْ حديثها، همت بالنهوض وهي تشكره على عروضه التي وصفتْها بالسخيّة بجانب حُسن استضافته. خطوتُ من خلفها دونما ردة فعل. ممّا لا ريب فيه أنّها تعرف مصلحتي التي هي مصلحتها



جيدًا وتعمل عليها. بيد أني مُدرك أنَّ الإيجابية التي تؤمن بها أدولقين ذات طابع قد يبدو فلسفيًا، فهي تحاول رؤية الواقع كما هو، وليس كما تريده هي أو يريده شخصٌ آخر أن يكون. تحاول أن تعيش مشاعرها، حياتها، خطوات عملها، كما هي، وليس كما تتمنى أن تكون، أن تظهر ما بداخلها ولا تتظاهر بما سواه، إنها مقتنعة تمامًا بأننا إذا لم نعبّرعن تجاربنا بوضوح لن نعبرها بسلام. وإننا إذا لم نخطُ خطواتنا دون خبث، لن نعبرها بأمان. تقول دائمًا الكلام الإيجابي والعروض المادية سهلة، وتنميقهما أسهل بكثير، وسيجد قبولاً وتصفيقًا، لكن الكلام بواقعية لا يجذب بنفس القدر، فهناك حقائق لا نريد تصديقها، وهناك تجارب لا نريد تذكرها، لا نريد أن يخبرنا أحد بأن هناك أحلامًا مستحيلة، ولا نريد أن نعرف بأن الحياة صعبة، لا نريد من أحد الاستمرار بتذكيرنا أن الحياة لها مسارات لا تخضع لرغباتنا. وأن كشف الغطاء عن الجانب المظلم للحياة ليس سوداوية ولا تشاؤمًا، لكن هو نوع ضروري من أنواع الوعي. لن يساعد الناسَ أمرٌ بقدر ما يساعدهم أن يروا الحياة



بعدسة التقبل، أن لا يرسموا لها رسمة مثالية بالألوان، ولا يضعوا حدودًا للسعادة والتعاسة، أن ينظروا لحياتهم على أنها طبيعية، جديرة أن تُحيا بكل ما فيها من ألمٍ وحزن وقلق وخوف وضياع، أن لا يصور لهم أحدٌ بأن هذه المشاعر شيء مرعب، وأن معايشتهم لهذا الشعور خطيئة.

* * *

في المنزل، لم تستغرق أدولفين وقتًا طويلًا كي تشعر بأنَّ توتُّرًا هائلًا قد خيّم علي روحي في المدّة التي استغرقها الطريق، وأنّني قد ساورتني الأسئلة وربما الشك إن كان قرارها بالرفض القاطع صائبًا أو خاطئًا. فبات الجوّ ثقيلًا عليّ، وصَعُبَ فيه التنفُّس.

دلفتْ إلى غرفتها، تغيبتْ بضع دقائق قبل أن تعود وقد بدلتْ ملابس خروجها بأخرى منزلية، حاملةً في يدها كأسًا كبيرة مملوءة بالماء، قدمته إليّ وهي تقول:

- ثمّة مثل عربي يقول : «يشبهُ الكلامُ النّحل، فيه العسلُ وفيه الإبر. وهذا الرجل فيلتمان، حديثه

موارب، مثل النحل، يحمل العسل والإبر. ونحن أبعد ما نكون عن تحمل تبعات المُجازفة

توجهتْ إلى النافذة، نظرتْ عبرها إلى الغيوم السوداء في السماء وقالت بنبرة بدت كأنها توضح سرًا اكتشفتْه وحدها:

- هل سألتَ نفسك، لماذا لم يتدخل چاسيلينكيكس كوسيط فيما بيننا وبين ڤيلتمان مباشرة؟ لماذا لم يحضر اللقاء؟ إن كان سيحصل على مُقابل مادي إذا تم التعاقد أو لا؟

دونما أن تلتفتَ إليّ، علّقتْ :

- بالطبع لم تتطرق بفكرك لهذه الأسئلة.

التفتتْ، ونظرتْ في عينيَّ مُباشرةً وقد اعترت ملامحها ابتسامة تنم عن ثقتها في نفسها :

- چاسيلينكيكس لا يرغب أبدًا في المغامرة بعلاقته مع أندرلخت، يخشى أن يخسر علاقته معهم، إذ أنَّهُ يعلم



جيدًا أن ما يحدث من جانب السيد ڤيلتمان شيءٌ خاطيء، خارج الإطار المُتعارف عليه. إنّهُ يريد اختطافك من أندرلخت عبر الأبواب الخلفية.

اكتفيتُ بالصمت، لم أجد ما أقوله، فجلستْ إلى جواري واسترسلتْ في حديثها دونما أن تنظر إليّ وكأنها تخاطب روحي أكثر من مُخاطبتها عقلي وعيني، قالت بنبرةٍ هادئة:

- يكون شعور الخوف مؤذيًا للغاية حين نخاف من شيءٍ لا نعرف ماهيتَه تمامًا ولا يمكننا تحديده، لذا أنتَ الآن خائف أن تخسر عقد احترافك الأول، لكنك لا تعرف إن كان هذا خيرًا تمامًا أو لا. لكن .. عليك إدراك شيءٍ هامٍّ للغاية؛ «الإنسانُ سُمْعَة»، والنَّاس شُهداء الرب في أرضه، فأقوالُ النَّاسِ فيك مُسودَّة في انتظارِ تَبْييضها، وهذا ما يعلمه چاسيلينكيكس جيدًا، إذ أنَّهُ رَجُلٌ ذَائِعُ الصِّيت، لذا أعماله متوفرة، وإذا ما تبدل حاله وأصبح رجلًا سيء الصِّيت سوف يفقد هذه الأعمال. كذلك أنتَ يا روم الآن، ذائِعُ الصِّيت بين الأندية، لاعبٌ جيد، له مستقبلٌ كبير في انتظاره، إذا

ما تبدل هذا الصِّيت بآخر، وقيل إنك مراوغ، مُخادع، ترك ناديه وهرب بطريقةٍ غير شرعيةٍ إلى نادٍ آخر، فأنتَ بذلك تخسر مُستقبلكَ دون أن تُدرك. والإدراك المُرّ أن تعرف قيمة ما كنتَ تملكه بعد أن تخسره. ما اتخذناه اليوم هو قرار عقلاني، والقرارات العقلانيه غالبًا لا تُرضي الرغبه الشخصية وربما مؤذية نفسيًا لكنها على المدى الأبعد تحفظ كرامة الشخص وهذا هو الأهم.

أقنعني حديثها تمامًا، على الرغم من شغفي وتعجلي بتجربة الاحتراف وتحقيق الكثير مُبكرًا. مساءً، عند عودة روجر للمنزل أعادت أدولفين الحديث أمامه، بطريقة أوحتْ إليهِ وكأننا لم نتخذ قرارًا بعد، فجاء رأيه مُطابقًا لما قالته وفعلتْه، إذ أنَّهُ رأى چاسيلينكيكس في وضعِ الغادر المراوغ، الذي أخطأ، ليس فقط في حق أندرلخت، ولكن في حقنا نحن أيضًا، فالمرء لا يخطئ فقط حينما يأتي بفعل يؤذينا، بل يخطئ أيضًا إذا ما شجعنا على ارتكاب الخطأ.

* * *





العهد

أندرلخت - النصف الثاني من 2011م

قَلَّ التواصل مع ڤيني ڤرانس رويدًا رويدًا إلى أن تلاشى، ولم تعُد فيما بيننا اتصالات. كان الصراع لأجل حسم لقب الدوري مُحتدمًا للغاية، وتطلب ذلك تركيزًا مُضاعفًا في التدريبات، كما أن أغلب المُباريات كانت خارج ملعب كونستانت ڤاندن ستوك، لذا فنحن نتنقل كثيرًا بين الأقاليم البلجيكية من أجل خوض المباريات على ملاعب الفرق المُنافسة.

ذاتَ ليلة، تحدثتُ إليهِ هاتفيًا، كان مُستاءً بشدة، بيد أنَّه تعمد إبداء استيائه في نبرة صوته، كما أنَّهُ لم يخفِها حتى في الحديث عندما صرح قائلًا بحدة لم أعهدها :

- من أنت؟ أنتَ شخصٌ آخر غير الذي ألِفتُه لسنوات



العهد

أندرلخت - النصف الثاني من 2011م

قَلَّ التواصل مع ڤيني ڤرانس رويدًا رويدًا إلى أن تلاشى، ولم تعُد فيما بيننا اتصالات. كان الصراع لأجل حسم لقب الدوري مُحتدمًا للغاية، وتطلب ذلك تركيزًا مُضاعفًا في التدريبات، كما أن أغلب المُباريات كانت خارج ملعب كونستانت ڤاندن ستوك، لذا فنحن نتنقل كثيرًا بين الأقاليم البلجيكية من أجل خوض المباريات على ملاعب الفرق المُنافسة.

ذاتَ ليلة، تحدثتُ إليهِ هاتفيًا، كان مُستاءً بشدة، بيد أنَّه تعمد إبداء استيائه في نبرة صوته، كما أنَّهُ لم يخفِها حتى في الحديث عندما صرح قائلًا بحدة لم أعهدها :

- من أنت؟ أنتَ شخصٌ آخر غير الذي أَلِفتُه لسنوات



كانت لديَّ عدة إجابات، وكان من الضروري إلقاؤها على مسامعه كي يتفهم أن الأوضاع الجديدة فرضتْ عليَّ أن أكون هكذا، كان عليهِ أيضًا تفهُّم أنَّ القاعدة الأولى للصداقة تنُص على «التقبُل». نعم، التقبُل هو أعظم ما يُمكن تقديمه لشخص، أن تتقبله بجميع حالاته المُختلفة، بمعتقداته الغريبة، بأحلامه الخرافية بل أن تصدقه في أحلامه الخرافية وتؤمن بها معه، أن تتقبله في مزاجه السيء، أوقات الضيق والبكاء، أو الاكتئاب، تتقبله عندما يخطيء، عندما يفشل، عندما يبتعد عنك ولا يعرف أي الطرق عليه أن يسلكها ليستعيدك. كان عليه تفهُّم أنَّ المرء لا يحق له الغضب من صديقه إذا ما تغيَّب عنه في الأوقات العادية، أو إذا ما قلَّ أو انقطع بينهم الاتصال لانشغالهِ بحياته الخاصة ومستقبله. بل عليه إدراك أنَّ كُلًا منّا لديهِ معركته الخاصة مع الحياة، ويتوجب عليهِ أن يجعلها في مقدمة أولوياته، وأنَّ بعض الظروف بجانب متطلبات الحياة تجعلنا أحيانًا ننقطع حتى عن الطعام. لو أنَّه تذكر جيدًا ما قاله جاك أنتا ديوب في ختام حديثه يوم المحاضرة، وما لم يخبرنا به المتحدثون



التحفيزيون، لتفهَّمَ الأمر. «طريق النجاح يتسم بالوحدة، يتسم بالانشغال، يتسم بدفع مقابل كبير». وهذا ما أفعله الآن. كان عليه تفهُّم أن له الحق في إبداء غضبه أو صبه عليّ إذا ما وقع في شركٍ أو مأزقٍ يتطلب وجودي ولم يجدني أول الحاضرين، فالعلاقات لا تُقاس بالكم، وليست بكثرة الاتصال والحضور الدائم، فكثيرٌ من الحاضرين من حولك كَغُثَاءِ السَّيْلِ، بلا قيمة. إنما تقاس العلاقات بالفاعلية، بما يمكن أن يقدمه الآخر لك في الأوقات الحالكة. هذا ما أدركتُه مُتأخرًا ولم يدركه ڤيني ڤرانس الذي أصر مرة أخرى أنْ يخبرني بأني مُقصرٌ في حقه. ولم يكن ثمَّة فسحة من الوقت للإيضاح، فأعتذرتُ منه وأخبرتُه أن يحاول إيجاد سبيل ما لمسامحتي فقط.

في ظهيرة واحدٍ من أيام أغسطس 2011، وصلتُ إلى أندرلخت، وما إن وطأتْ قدمي أرضيّة ملعب كونستانت ڤاندن ستوك، أُبلغتُ على الفور بضرورة توجهي إلى غرفة رئيس النادي، قيل إنَّهُ ينتظرني منذ الصباح الباكر. أكدوا عليّ بضرورة التوجه إليهِ مباشرة



حتى قبل أن أذهب إلى غرفة خلع الملابس أو خوض التدريبات.

كان مسكن رئيس النادي يحتلُّ جانب المبنى الأماميّ الذي يعود لبداية القرن التاسع عشر، حيث أُنشأ هذا المبنى في 27 مايو 1908م. أثناء الذهاب إلى المبنى كنتُ أخطو خطوات واسعة في اتِّجاه المكتب، ولاحظتُ أنَّ الجميع يترقبونني، وبالتالي دققتُ النظر في أوجههم. كان ثمَّة شيء غريب يحدث ولا أحد يرغب بالإفصاح عنه، كاد القلق يتسرب إلى داخل قلبي، لكنني لاحظتُ أنَّهم جميعًا تعتليهم نفس الملامح ذات النظرة التي تشي أنّ شيئًا جيدًا في الانتظار داخل غرفة الرئيس.

دلفتُ من الباب، وجدتُ الرئيس جالسًا خلف مكتبه، رجلًا عريض المنكبين، صلب البنية، أصلعَ الرأس، متورِّد السحنة، لا غضون على وجهه، فكل بوصة مِنهُ مُشبعة بأحدث المُستحضرات الطبية اللازمة للمحافظة على رونقها، مُحافظًا على لياقته البدنية مما يبديه أصغر من عمره الحقيقي بسنواتٍ طوال، وإذا ما



ابتسم، فإنَّ ملامحه تتورد وتصبح بشوشة للغاية، باستثناء ارتعاشة صغيرة تظهرُ في زاويتي شفتيه، لا تفارقه منذ فارقتْ زوجته الحياة في حادث سير أليم قبل أعوام، مُرتديًا سترة بندقيّة اللون ضيّقةً وقميصًا أبيض اللون أنيقًا للغاية، وربطة عنق رفيعة لونها أزرق في إشارة اعتزازٍ منهُ بالزي الرسمي للكيان الذي يترأسه «أندرلخت». كان جالسًا ينظم أوراقه، فيضع الأوراقَ ذاتَ الأهمِّيَّة القصوى في ملفٍ أحمر، والمهمّة لكنَّها غير مستعجلة في ملفٍ أزرق، وبقيَّةَ الأوراق في ملفٍ أصفر. كنتُ مُرتابًا، ولا أعرف سبب المقابلة، توقَّعتُ أن أواجه نقاشًا صعبًا، لذا حاولتُ ترتيب أفكاري.

على غير المتوقع، همَّ واقفًا عند رؤيتي، استقبلني بحفاوةٍ وهو يبتسم، وقد عرف عنه أنَّه جادٌ دائمًا. طلب مني الجلوس، ثم شرع في الحديث مُباشرةً، تكلَّم بتحمُّس دالٍّ على بهجة، قال :

- هناك خبران؛ الأول سيّء والآخر أسوأ بالنسبة لنا. لكنهما جيدان تمامًا بالنسبة إليك. السيء هو أنك لم



تعُد جزءًا من أندرلخت. نعم .. لن تلعب معنا مرة أخرى بعد اليوم، وليس هُناك أسوأ من خسارة لاعب عملاق، قوي، يجيد اللعب في أغلب المراكز، يعطي داخل أرضيّة الملعب دون هواده

امْتُقِع وَجْهي من آثار ما سمعتُه، وقبل أن أتمكّن من استيعابه وأعطي ردًّا، شعرتُ بهِ ينظر نحوي بمواساة لا تخلو من التقدير، كما شعرتُ برغبتي الماسّة بإفادة مِنهُ ببقيَّة الحديث.

ظلّ صامتًا لبرهة، بينما وجهه المتأثر على غير عادته يمهّدني للخبر الثاني. وسرعان ما استعادت ملامحه جدّيتها المعتادة الممزوجة بشيءٍ من البشاشة، وبدأ يشرح بطريقته المنطلقة التي لا تمنح فرصة للتساؤل أو للاعتراض. فقال وهو يشير إلى ملفٍ موجود في الوسط تمامًا مِن مكتبه:

- هل تعرف ما بداخل هذه الأوراق؟

مستغربًا، على نحوٍ مترددٍ، قلتُ :



- لا. لا أعرف

ابتسم وهو يومئ إلى الملف الذي يتوسط مكتبه، وقال بصوتٍ رَتيب :

- يحتوي على العقد الذي يعطيك حق الانضمام إلى نادي تشيلسي الإنجليزي، في مُقابل اثنَي عشر مليون يورو أي ما يساوي عشرة ملايين جنيه إسترليني، ويرتفع إلى عشرين مليون يورو أي سبعة عشر مليون جنيه إسترليني مع الإضافات

بدت السعادة الممزوجة بالدهشة وغير التصديق في وجهي، بينما أضاف الرئيس بصوتٍ هادئ :

- وقد تم التوقيع داخل هذا العقد بانتقالك لمدة خمس سنواتٍ كاملة. بجانب أنَّهُ يتضمن توفير سكنٍ خاصٍ بك وحدك، وأيضًا سيارة بالإضافة لكافة ما يلزمك في لندن

لم أتمكن من التعليق، كان قلبي يدقُّ في تجويف حلقي وأنا أرمش بعينيّ دهشة غير مُصدقٍ لما أسمعه.

قال الرئيس بجدّية فيها شيءٌ من الاستسلام يشي بأنه حزين لرحيلي :

- سوف تقدِّمُ أفضل ما لديك كما اعتدنا منك، أليس كذلك؟

علقتُ بسعادة وجدية وأنا أشير بعلامة التمام :

- أعدك

في عصر ذلك اليوم، بعينين دامعتين، ودعتُ الجميع في أندرلخت، الأصدقاء، العمال، الملعب ذاته وغرفة خلع الملابس، وبعض المُشجعين الذين كانوا حريصين دائمًا على حضور التدريبات اليومية والذين هبطوا من المدرجات إلى أرضيّة الملعب من أجل تبادل العناق وكأنهم عائلتي أو أنهم بالفعل كذلك.

في مساء ذلك اليوم نفسه، ساعدني بعضُ الرفقة بجمع أغراضي كاملة، وقضيتُ أمرَ بعض الأشياء التي وجب عليّ الانتهاء منها قبل المغادرة، من ثم توجهتُ إلى أنتويرب، كانت ليلة غريبة، أتذكر تفاصيلها وكأنها



قادمة من الأعياد القديمة. لم أكن قد بشَّرتُ أحدًا من العائلة بما يحدث، أصررتُ أن يكون الأمر بأكمله قيد الكتمان، إذ أنني مؤمنٌ بأنَّ بعضَ الأشياء لا يجب أن تُقال عبر سماعة الهاتف، أو الرسائل النصية أو حتى دردشات مواقع التواصل الاجتماعي، حتى لا تفقد قيمتها، فهناك أشياءٌ ولحظات يجب أن تُعاش بكامل تفاصيلها، وأبرز هذه الأشياء هي لحظات النجاح والسعادة، حيث يجب أن تتشارك وجهًا لوجه مع من نحبهم، كي نرى ردات فعلهم، فتُحفر في أعماقنا إلى الأبد، من ثم نختتم هذه اللحظات بعناقٍ عظيم.

فتحتُ باب المنزل، وجدتُ أدولفين جالسة على أريكتها المُفضلة، تلك القريبة من النافذة والتي تمكنها من النظر دائمًا نحو السماء، ترتدي فستانًا فضفاضًا أزرق اللون، يشبهُ إلى حدٍ كبير مياه البحر الأزرق العميق، وتقرأ في كتاب ليزا نيكولز، «تسع خطوات للعيش في الحياة التي تحبها «Nine Steps to Live the Life You Love»، كانت قد حصلت عليه بعد مُحاضرة النجاة مُباشرة في جامعة أنتويرب، بينما



كان روجر يشاهد مباراة كرة قدم على إحدى القنوات المشفرة. وما إنْ شعرا بوجودي حتى التفتا إليَّ، فتلاقت أعيننا، في تلك اللحظة، اعترتني حالة من السعادة الشديدة مع البهجة الواضحة تمامًا على وجهي، ولم أستطع الإكمال في مسلسل إخفاء الأمر عنهم لثانية واحدة أخرى، إذ أنني لوَّحتُ بالعقد في يدي وصرختُ بصوتٍ عالٍ :

- لقد فعلتُها .. فعلتُها ..

من ثم أشرتُ بالعقد إلى روجر، وقلتُ بسرعةٍ كمن أكل قطعة شطة ويرغب في أطفاء حرارة فمه :

- سوف أذهب إلى لندن، سألعب في الدوري الإنجليزي، سأحترف في تشيلسي

ثم نظرتُ إلى أدولفين، وقلتُ :

- الوعدُ .. الوعد يتحقق يا أدولفين. يتحقق



أمعنتْ أدولفين النَّظرَ فيَّ، وقلبُها يخفق خفقانًا شديدًا جعلها تشعر بأنه سوف ينفجر سعادةً في صدرها، فما كان منها إلَّا أن نهضتْ واتَّجهتْ نحوي مُهرولة على قدميها، من ثم عانقتني وقد انحدرتْ دمعة من عينيها وسالت على خدِّها حين تذكرتْ والدها، وقالت مُتمنية وهي تطلق العنان لتنهيدة طويلة:

- ليتهُ يعلم بما وصلتَ إليه

في هذه الأثناء، وعلى الرَّغم من أنَّ روجر كان توَّاقًا إلى رؤية ابنه متفوِّقًا تفوُّقًا كبيرًا، فإنَّه لم يكن سعيدًا بالقدر الكافي لإخفاء توترٍ وقلقٍ بَديَا في ملامحه، إذ أنَّه كان خائفًا من ذهابي بعيدًا، إلى لندن، فمن الناحية الظاهريَّة، كان رابطَ الجأش، هادئًا، هنأني على نحو غير مترابط ومتلعثم، وبالنبرة نفسها التي قد يتكلَّم بها عن بركان بعيد. راضيًا مَرْضيًّا، لكن بشيء من القلق. تفهَّمتُ دوافع قلقه، وشاطرتُه قلقه إلى حدٍّ ما. فأنا لم أنفصل في أيِّ يوم عنهما، ولم يسبق لي أنْ ابتعدتُ عن أسرتي وبيتي وأنتويرب.



في صباح اليوم التالي، أرسلتْ الشمس شعاعَ ضوء دافئًا من بين الغيوم، مانحةً الإحساسَ بأنَّ موسم الصيف قد حل على الرَّغم من هبوب ريح خريفيَّة باردة ومتقطِّعة. كانت أدولقين برفقة روجر قد خططا لاصطحابي معهما عنوةً إلى شارع مير، للحصول على مجموعة من الملابس الثقيلة، ارتأت أدولقين ضرورة أخذها معي إلى لندن عاصمة الضباب والبرد.

في تلك الليلة، اجتمع ثلاثتنا في رواق المنزل، ووجه روجر وأدولقين إليّ وابلًا كثيفًا من النصائح، قالوا إنها لازمة من أجل مواجهة الحياة السيئة في الغربة على حد قولهم. بدأتْ أدولقين الحديث بالقول :

1- لا تؤذِ أحدًا، لا تؤذِ أحدًا، لا تؤذِ أحدًا .. مهما حدث

2- واظبْ على القراءة حتى إن كانت الأشياء التي تطَّلع عليها بلا فائدة، اجعل دافعك الأول حب التعلُّم وتعطُّشك إليه، تذكر دائمًا ما فعلتْه القراءة مع بن كارسون



3- لا تثق في أحد حتى يثبتَ أنه جدير بذلك

4- قسِّم وقتك حسب أولوياتك. وتذكر «أنتَ أولًا»

5- دائمًا، في حال شعرتَ بشيءٍ سيءٍ تجاه أيّ شخص، افترض أنُّه صحيح، لا حاجة للتأكد من مشاعرك من خلال وقائع

تدخل روجر قائلًا:

6- عندما تتعرض لسوء لا تعرف مصدره، لا تستبعد أي شخص، السوء لا يأتي من الغرباء، وتذكر دائمًا أننا إلى جوارك، حتى وإن كنتَ في الغربة

7- لا تأخذ برأي شخص في شخصٍ آخر، دع الأفعال تفعل

8- لا تجعل نفسك مُتاحًا للجميع، لديك الدراسة، العمل، ونفسك ثم نفسك ثم نفسك



9- سيتم خداعك، لا تغضب من سذاجتك، فقط اظهر للآخرين بأنّ لديك شيطانًا في داخلك، يمكنك إخراجه ومعاقبتهم، لكن إياك أن تفعل

10- اقلب الموازين والأدوار، دع الحياة تهَبْكَ، كن أشرس وأخطر منها، في حال أفَرَطتْ عليك بشقائها تشيْطنْ بصلابتك، كن خطرًا ومستكشفًا وساخرًا لو تطلَّب الأمر

11- تذكر أنَّ الجمال الحقيقي هو بُعد نظرك الحاد فيما يليق بك ويناسبك والقدرة على استخدام فِكرك الخاص دون اتِّباع التيار

في هذه اللحظة، تدخلتْ أدولفين بصوتٍ أوحى أنها توصيني بشيءٍ هام للغاية، قالت:

12- توقف عن تحمّل أعباءٍ ليست من مسؤولياتك، وتذكر أنَّ الناس، جميعَ الناس، لديهم من الهموم ما يثقل عليهم، لذا كن لطيفًا مع من حولك، أطلق العنان لإنسانيتك، أجبر خاطر الجميع قدر ما استطعتَ،



خاصةً الأقل منك شأنًا، وتذكر أنَّ الرب يساند من يساند غيره من الناس

داخل محطّة القطار، وقف ڤيني ڤرانس يساعد روجر يدًا بيد في وضع حقائبي داخل المكان المخصص لها، بينما وقفتْ الأم چيني إلى جوار أدولڤين تحاول تخفيف وطأة القلق البادي في ملامح وجهها وحركتها. كانت أدولڤين تمعن النظر فيّ حينما شهقتْ لا إراديًا، وابتسمتْ تحاول أن تستجمع رباطة جأشها، لكنها لم تستطع، فبكت. اقترب منها روجر ومن ثم طَوَّقَها بِذرَاعيهِ، وقال :

- حسنًا، لا ينبغي لكِ أن تذرفي الدمع، عليكِ أن تفتخري فقط بهذه اللحظة التي لا تُنسى

دنوتُ منها، اقتربتُ من أذنها اليسرى ومن ثم همستُ لها :

- أنا هُنا، هُنا دائمًا



فابتسمت وهمَّت بمسح الدموع عن خديها. في تلك اللحظة توجهتُ إلى ڤيني ڤرانس وكان صامتًا طوال الوقت، فداعبتُه قائلًا:

- ڤيني .. هل أكل القط لسانك؟

علق رافعًا يده مُعتذرًا اعتذارًا ساخرًا وهازئًا بملامح حزينة:

- بل أكل القط صديقي

اتَّسعتْ عيناي، وقلتُ لائمًا إيَّاهُ بلطفٍ ورقَّة متناهية:

- أخبرتُك مُسبقًا، الصداقة بالكيف لا بالكم، وستجدني دائمًا أقرب إليكَ من أيّ كائنٍ آخر، أعدك

في تلك اللحظة تحديدًا، اقتربتْ أدولڤين وربتتْ بيدها على كتفي، وهي تقول بصوتٍ رتيب بدا أنَّه خارجٌ من أعماق روحها :



- تذكر دائمًا، تتحدَّد هويتك بما أنتَ عليه وما فعلتَه وما قرأتَه أيضًا. أنتَ ما تفعله، لا شيء غير ذلك

ثم بملامحَ متوردةٍ ووجه اعترته ابتسامة سعادة بالغة، تمنطقتْ بشفتيها كأنَّ شيئًا حلوًا على لسانها، وقالت :

- أحبك دائمًا

أثناء الصمت الذي أعقب ذلك، بدأت السماء تمطر مطرًا ملأتْ ضرباتُه الثابتة أجواءَ المكان، بينما أطلق القطار صافرتهُ مُعلنًا التجهز للمغادرة. ولم يكن هناك وقتٌ لتبادل العناق، لذا تبادلنا نظرات الوداع بعيونٍ تشع بوميض كهرمانيّ، من ثم هرولتُ باتجاه القطار.

وقفتْ أدولڤين باكيةً تحتضنها الأم چيني وإلى جوارهما روجر أيضًا، ثلاثتهم يترقبون القطار وهو يغادر المحطة مُبتعدًا، ملوحين بأيديهم تلويحة الوداع. بينما راقبتُ ڤيني ڤرانس وقد استدار مُطأطئ الرأس في خيبة عائدًا أدراجه متجهِّمًا تحت وهج الشمس الخافت، مظهره يدلُّ على أنَّه أشبهُ بطفل



خائب الرجاء. ولو أنَّ أحدًا سأله عن سبب شعوره هذا، فإنَّ جوابه الوحيد الذي يمكنه أن يتفوه به هو: الغريزة البشرية، الحاجة إلى الونس الذي اعتاده بالقرب من رفيق العمر، وقد افتقده الآن.

***



احتراف

لندن - أغسطس 2011 : 2017م

وصلتُ إلى لندن بعد قضاء خمس ساعاتٍ كاملة داخل القطار، وهي المدة التي استغرقتْها الرحلة من بلجيكا إلى هنا. قضيتُ ما يقرب من ثلاث ساعات ونصف منها في القراءة عن بريطانيا وتاريخها القديم، خاصة نهاية العصور الوسطى (المُتأخّرة)، والتي اتّسمَت بالمصاعِب والمعاناة والكوارِث، حيث المجاعات والطاعون والحروب التي هدّدت السكان في أوروبا الغربية، فبين عامي 1341 - 1350 سَلبَ طاعون الموت الأسود حياة ثُلثِ سُكّان أوروبا وخاصة بريطانيا، كما لَعِبَ التنازعُ والهرطقةُ والانشقاق داخِل الكنيسة الكاثوليكية والحروبُ الأهلية وثورَاتُ الفلّاحين في الممالك دورًا كبيرًا في تهديد السكان، جميعُها كانَت أسبابًا سيئة في الفترة المُتأخّرة. في النهاية، أدّى التَطوّر التِقَني والثقافي إلى إعادة تشكيل المُجتَمع الأوروبي، مما أسدَل السِتارَ على العصور



الوسطى معلنًا بذلك بداية العصر الحديث. ولم يكن ما قرأته غير مجدٍ أو للتسلية، بل أكد لديَّ ما تردده أدولقين دائمًا، وهو: أن القراءة والثقافة تصنع هويتك والتي من خلالها يمكنك أن تنجو مرارًا. حيث إن التَطوّر التِقَني والثقافي هو مايعيد تشكيل وعي وعقلية الإنسان، فيسدَل بذلك السِتَارُ عن الجهل والتعصب والعنصرية.

خرجتُ من القطار مُرتديًا سماعات الرأس وكنتُ قد وجدتُ من ينتظرني بعد أن فوضه تشيلسي لفعل ذلك. ما إنْ غادرنا المحطة حتى تنشَّقتُ روائحَ تبعث الحيويّة في النفس، منسابةً من الشوارع. كانت لندن، في شوارعها المرصوفة بالحجارة، وأبراجها المزوَّدة بفرجات، وأروقتِها المعمَّدة والمسقوفة، ونوافذها الناتئة، وواجهاتِ مبانيها المنقوشة، والألوان الزاهية الموزعة في كل مكان، تُشبه صورةً من كتب الأطفال المصوَّرةِ، فكلُّ شيء في دائرة الرؤية عابقٌ بالتاريخ على نحوٍ يجعل حتى المقاهي والمتاجر الكبيرة تبدو جزءًا من وقف موغِل في التاريخ.



سألني المرافق إن كنتُ قد حضرتُ إلى لندن مُسبقًا؟ وأخبرته بأنَّها المرة الأولى التي أزور فيها المملكة المتحدة. عندها فضل أن نتسكَّع في المدينة قليلًا على أن نتوجه مباشرة إلى منطقة فولهام حيث يقع ملعب ستامفورد بريدج، الخاص بفريق تشيلسي. أثناء الطريق، شاهدتُ الحدائق المشيَّدة من وراء مساحات مربَّعة الشكل، مكسوةٍ بالثلوج واللبلاب، كانت بعضُ أجزاء المدينة تبدو مُقفرة، ورقائقُ الصخور الكلسيَّة التي تكسو الجدران الممتدَّة على طول الأزقَّة القديمة تئنُّ متوجِّعة من إهمال البشر.

بعد مُضي وقتٍ ليس بقليل من التسكع في ضواحي المدينة تارةً وشوراعها الرئيسية تارةً أخرى، استبد بيَ التعب والجوع، وكان المرافق رجلًا لماحًا، إذْ شعر بالأمر، فتوجه بنا إلى مطعمٍ قديم في شارعٍ جانبي، كان ذا سقفٍ واطيء، وألواحُ أرضيَّته تصرُّ مقلقلة، ألواح خشب البلُّوط فيهِ كأنَّها تحتوي على شيفرة سرية مدهشة تبعث البهجة في قلوب المتواجدين، وزبائنُه صخَّابون، فاتَّخذنا مجلسنا من حول طاولة



منعزلة قريبة من النافذة. كان الزبائن منهمكين في احتساء مشروبات الجِعة بكؤوس تناسب أيدي العمالقة. ولمّا جاءتنا النادلة، وكانت شابَّة بيضاء كالثلج، لها جسد ممشوق، مكتنزة الشفاة، طلب المرافق أن أختار ما يروق لي من الطعام، قبل أن يضيف في حديثه إشادة بأن هذا المطعم يقدم طبقًا من السمك والبطاطس لا يمكن مقاومته نهائيًا.

أومأتُ برأسي : موافق. إلّا أنَّني كنتُ سارحا ببصري إلى أشياء أخرى من حولي. أتأمل المكان؛ رجالٌ يحتسون الجعة في ركن من الأركان، نساءٌ يتناولن القهوة وبعض العصائر، البعضُ بدا أنهم عمال عاديون كانوا يأكلون نوعًا من الأسماك بنهمٍ شديد واضح على وجوههم، وعلقتْ عيناي على امرأةٍ ريانة الجسد، بدت لي عند رؤيتها في أواخر الثلاثينات من عمرها، بلباس قصير يصلح أن يكون قميصًا من قمصان النساء الداخليَّة رغم برودة الجو، شعرها مشدودٌ إلى أعلى، تجلس إلى جوار رجل ضخم البنية، تكسوه العضلات، ويعلوه الوشمُ في كل جزء من جسده، كان يداعبها



وقد بدت غير مكترثة، تضاريس جسدها المرن يصعب تجاوزها بسهولة.

حدَّقت فيَّ بعينيها الرماديَّتين المتقدتين من وراء نظَّارتها الطبِّيَّة، ألقت عليَّ نظرة متفحَّصة تنمُّ عن تركيز واضح أو اشتباه ظاهر. الواضح أنَّها قد انتبهتْ لأمر عينيَّ اللتين علقتا بتضاريس جسدها دون رغبة مني. بدتْ في ملامحها الدهشة، وهي تدقق النظر فيَّ لثوانٍ قليلة، اعتقدتُ أنها اشمأزَّت ممَّا فعلتُ، وكان ذلك قبل أن تنهض من مقعدها وتتوجه إليَّ وقد اعترتها نظرة مُستغربة يملؤها التساؤل. في تلك اللحظة، انتبه الرجل الذي يعلوه الوشمُ وراقب تحركاتها وهي تَدنُو مِنَّا. في البدء، ساورتني الشكوك إن كانت نظرتي قد أثارت غضبها، شعرتُ أن سوءًا سوف يحدث. لكنها دنت مني للغاية، حتى أصبحتْ المسافة الفاصلة فيما بيننا عِدة سنتيمترات قليلة، فنفَذتْ رائحتها الأخَّاذة في أنفي، كما مكنني قربها الشديد مني من رؤية لون عينيها الرماديتين بوضوح. من ثم باغتتْ بالسؤال مُستغربة ومندهشة :



- روميلو! .. أندرلخت؟

على نحو متردد، أجبتها :

- نعم ..

حضر الرجل الذي يعلوه الوشمُ من خلفها، وقد فرغ من احتساء معظم النبيذ وحده وبدا ثملًا قليلًا، وكانت ملامحة ممتلئةً بالغضب الذي كاد ينفجر في وجوهنا، قال في حنقٍ، بلهجة إنجليزية سيئة، وهو يضرب بيده على المنضدة:

- أي عاهر فيهم أغضبكِ؟

التفتتْ المرأةُ إليهِ غاضبة، وحدَّقت فيه بنظرةٍ حارقة وهي تقول :

- لا شأن لك في الأمر، عد حيث كنتَ

دون نقاشٍ، عاد الرجل أدراجه بعد أن رمقنا بنظراتٍ تشي بالغضب الشديد، بينما سحبتْ المرأة مقعدًا

وجلستْ فيه دون استئذان، ثم قالت وهي تمد يدها تصافحني وقد ارتسمتْ على شفتيها ابتسامةٌ لطيفة وودودة:

- أعرفك جيدًا، أنا من بروكسل العاصمة، وأندرلخت هو فريقي المفضل، اعتدتُ مشاهدتك تلعب معهم قبل أن آتي إلى هنا قبل شهور قليلة

طلبتْ بتهذيب أن تتشارك معنا قليلًا من الوقت إن شئنا، نظر إليّ المرافق مُتسائلًا إن كنتُ أرغب في ذلك أو يجعل الأمن في المكان يتدخل، فأومأتُ إليه بالموافقة. تناول ثلاثتنا العشاء في جوٍّ غشيه الحديث عن أندرلخت وبروكسل، وفي أثناء انتظار قائمة دفع الحساب، أمسكتْ المرأة بيد المرافق الذي كان يستعد للدفع، وقالت له:

- ليس وأنا هنا، سوف أنالُ شرف ضيافتكما

من ثم وجهتْ إليّ حديثها، قالت :

- لا تتسكع كثيرًا، ولا تثق في أحد، هذه ليست بلجيكا



قالتْها وكأنَّها وصيّة هامة يجب الأخذ بها، ولم تعطِ لأحدٍ منَّا فرصة للتحدث إليها، فقد نهضتْ وتراجعتْ من فورها خطوات، من ثم اصطحبتْ النادلة التي كانت آتية لتحصيل الحساب، وذهبتْ بها بعيدًا في المطعم. كان شعورًا رائعًا أن أقابل أحد البلجيكيين في اليوم الأول لي في لندن.

* * *

- ادخل هنا

هذا ما قاله المرافق وهو يفتح أحد الأبواب بعد السير داخل أروقة كبيرة وطويلة ممتدةٍ بين غرف لا نهائية العدد. بعد ثوانٍ قليلة، دخل أحدهم ورائي وهو يفركُ يديه من فرطِ الحماسة، التفتُ إليهِ، كان رجلًا أربعيني العمر، طويل القامة، له ملامح وجه حادةٌ وجادة، يظهر في ملابسه وساعة يده باهظةِ الثمن مع بقيّة التفاصيل أنَّه شخص ذو نفوذ وأنَّه أحد رجال الأعمال.

قال وهو يمد يده للترحيب:

- لا أصدق .. لقد انتظرتُ هذه اللحظة طويلًا



حاولتُ ألَّا أكون خجولًا، بادلتُه التحية، وقلتُ مازحًا:

- كم تحديدًا؟

ردَّ بإطراءٍ قائلًا :

- من قبل أن تولد بكثير

في إشارة منه أنَّه لم يقابل لاعبًا جيدًا مثلي منذ سنوات طوال.

امتلأتْ ملامحي بابتسامة عريضة تنم عن خجل وكثير من الرضا. دعاني للجلوس، وجلسنا. الأرائك زرقاء حديثة الطراز، ثمة طاولة منخفضة مربعة من زجاجٍ أزرق، مزهرية زجاجية زرقاء شفافة فيها أزهار خُزامَى صناعية زرقاء هي الأخرى، كتب متناثرة ورفوف على الحائط، شاشة تلفزيون كبيرةٌ مثبتة على الأخبار الرياضية، ماكينة قهوة في زاوية المكان، صورٌ لبعض اللاعبين الذين لعبوا لتشيلسي من قبل، أبرزهم الفيل العملاق ديدييه دروغبا والأسد الكاميروني غير المروض صامويل إيتو. كل شيء في غرفة الرئيس

كان مائلًا للون الأزرق احتفاءً باللون الرسمي لفريقه تشيلسي.

إِحتفَى رئيس النادي بي بشدة، على نحوٍ غير متوقع. قبل أن يخبرني بالتفاصيل اللازمة، ويتعمد إعطائي بعضَ النصائح الهامة حول الفريق، والعاصمة لندن، والحياة في إنجلترا على العموم. في نهاية الجلسة أخبرني ناصحًا:

- لقد مر من هنا دروجبا، وصامويل إيتو، ولا أرغب في أن تكون أقل شأنًا منهما

أخبرتُهُ في ثقة :

- لس براون

وأردتُ بذلك أن أخبره أنني جائع مثل لس براون، لذا سوف أفعل أكثر ما باستطاعتي دون توقف.

علق مُستفهمًا :



- نعم؟

فأخبرتُه في حماسٍ شديد دون أن أوضح له ما قصدتُه :

- أعدك أن أبذل أكثر مِما في استطاعتي

لثلاثة أيام متتالية قُرر ليَ المكوث في راحة من التدريبات، كما كُلف المرافق الخاص بإطلاعي على بعض أجزاء المدينة فأخذني في جولة إلى مناطق هارنغي، وهارو، وتاور هاملتس، ووالثم فورست، وباركينغ وداغنهام، وحي السيتي، وهامرسميث. كما أنَّه اصطحبني إلى برج لندن، وسوق كامدن ماركت، بالإضافة إلى عجلة لندن آي، والمعروفة أيضًا باسم عجلة الألفيّة.

أعقب ذلك انضمامي لتدريبات الفريق يومين متتاليين، أُضيفتْ إلى التدريبات مُحاضرة للتعريف بلاعبي الفريق جيدًا، وشرح طرق اللعب وإعطائي بعض النصائح الهامة المنوط بي أخذها في الحسبان دائمًا



وأنا ألعب ضمن صفوف الفريق. في اليوم السادس توجهتُ مع الفريق إلى مدينة نوريتش في مقاطعة نورفولك، الواقعة في إقليم شرق أنجليا الإنجليزي، لأجل مواجهة فريق نوريتش سيتي. لازمتُ مقاعد البدلاء طيلة المُباراة، إلى أن قرر المدير الفني الدفع بي في الدقيقة الثالثة والثمانين من عمر اللقاء، وكان ذلك بديلًا عن اللاعب الإسباني فيرنادو توريس. وانتهت المباراة بنتيجة 3-1 لصالح تشيلسي.

استمر تواجدي ضمن الفريق لما يقرب العام، في هذه الأثناء كنتُ أتذكر دائمًا، في كل يوم، صباحًا ومساءً، تفاصيل مُحاضرة النجاة في أنتويرب، أتذكر أيضًا حديث الأم چيني عن بن كارسون ونصيحة أدولڤين قبيل السفر عن القراءة:

«واظب على القراءة حتى إن كانت الأشياء التي تطَّلع عليها بلا فائدة، اجعل دافعك الأول حب التعلّم وتعطّشك إليه. تذكر دائمًا ما فعلته القراءة مع بن كارسون».



كان ذلك يدفعني أن أقرأ كثيرًا، وقد ساعدني وجود المكتبة البريطانية في الجوار على تناول الكثير من الكتب التي رغبتُ في قراءتها. لم أنسَ أبدًا آرون رالستون وأن للنجاح ثمنًا قد يكون استئصال قطعة من جسدك، وما عاناهُ ديفيد غوغينز وأنَّ طريقَ النجاح مقرون بالوحدة والتحمل، كذلك ذكَّرتُ نفسي في كل ليلة بكلمات ليزا نيكولز: «أنا فخور بنفسي، أنا من مخلوقات الله، أنا أستطيع أستطيع أستطيع، أنا يجب أن أحب نفسي جيدًا حتى يحبني الآخرون». واحتفظتُ بالوعد مع أدولفين في قلبي.

كل ذلك دفعني لتحقيق النجاح بتقييم مرتفع جدًا في الجامعة، والحصول على مزيد من الاستقرار النفسي والسلام الداخلي طيلة الوقت. استطعتُ أيضًا تعلم الهولندية والإسبانية بجانب الإنجليزية بطلاقة شديدة.

* * *



انضممتُ إلى فريق وست بروميتش ألبيون الذي يقع في مدينة ويست بروميتش غرب وسط إنجلترا في صفقة إعارة لمدة موسم واحد. وقد استطعتُ أن أسجل هدفي الأول في الدوري بعد ثمانية أيام فقط من الانضمام للفريق، على أرضية ملعب الفريق هاوثورنس، وكان ذلك بعد أن دُفِع بي كبديل في الدقيقة السابعة والسبعين، وقد انتهت المباراة بالفوز 3–0 أمام ليفربول. كان الهدف الذي أحرزتُه رائعًا، وتسبب في أني أصبحتُ حديث الصحافة في عالم كرة القدم، ليس في إنجلترا فقط.

أثناء تلك الرحلة، لم أشعر أبدًا أني وحيدٌ، فقد استمرتْ أدولفين في الاتصال بي كل يوم، صباحًا و مساءًا دون كللٍ أو ملل، لم تعطني الفرصة أن أكون المتصل بها ولو لمرة واحدة. كذلك اعتاد السيد روجر على الاتصال بي قبيل كل مباراة، بعد أن يكون قد شاهد جميع مباريات فريق الخصم السابقة ودرس طرق لعبهم جيدًا، من ثم يقوم بتوجيه نصائحه التي كانت دائمًا ما تأتي بفعل السحر. أمّا عن ڤيني ڤرانس،

فقد انقطعتْ بيننا كل السبل، وكأن كلًا منا قد أخذ في عالمٍ آخر، لكنني كنتُ دائمًا عند وعدي بأنني موجود دائمًا، إذ أني حاولتُ التواصل معه عدة مرات، لكنني فشلتُ في كل مرة، تركتُ له عدة رسائل بأني أفتقده، وأني موجود دائمًا إذا ما وقع تحت طائلة الاحتياج فلن أتوانى للحظة في أن أمد يد العون إليهِ.

في الأول من أكتوبر من العام 2013، وصلني الاستدعاء الرسمي من قبل الجهاز الفني لفريق النخبة من أجل انضمامي للمنتخب البلجيكي. كان مقررًا لنا مواجهة منتخب كرواتيا خارج أرضنا في مباراة العودة. وفي الحادي عشر من أكتوبر 2013، على أرضيّة ملعب ماكسيمير الذي يقع في زغرب عاصمة كرواتيا، وهو الملعب الرسمي الذي يخوض فيه منتخبهم مبارياته الدولية الرسمية، وبحضور ما يقرب من ثلاثين ألف مشاهد، وكان من ضمن بعثة الجماهير البلجيكية المشجعة للمنتخب كلٌ من أدولفين وروجر اللذين حضرا لمؤازرتي في مباراتي الأولى مع المنتخب. استطعنا الفوز بنتيجة 2-1، وقد وفقتُ في

تسجيل الهدفين في اللقاء كما توقعتْ أدولفين قبل فترة طويلة.

لم تتوقف الانتقالات هنا، ففي اليوم الأخير من فترة الانتقالات الصيفية للعام 2013، انضممتُ إلى صفوف فريق إيفرتون ومقره مدينة ليفربول، مقاطعة مرزيسايد وكان ذلك أيضًا على سبيل الإعارة لمدة موسم واحد. وقد وفقتُ كثيرًا في اللعب معهم حتى أنَّه في يناير 2014، تم اختياري من قبل صحيفة الغارديان كواحد من أفضل عشرة لاعبين شباب واعدين في أوروبا.

في صباح أحد الأيَّام، وكان القمر لا يزال منيرًا في السماء، لمحتُ من النافذة بائع الجرائد وكان يعدو ذهابًا وإيابًا بين المنازل، يقوم بدسها من أسفل الأبواب أو يضعها في صناديق أُعدتْ خصيصًا لذلك. لا أعرف لماذا تعمدتُ في ذلك اليوم أن أحصل على نسخة من الجريدة الورقية، على الرغم من أني لا أفعل ذلك، فكل شيءٍ مُتاح في مواقع الإنترنت الإخبارية.



عند فتح الجريدة، فوجئتُ بصورتي على الصفحات الرياضية، بجانب أخبار مُتداولة حول إمكانية انتقالي إلى نادٍ آخر غير تشيلسي في الأيَّام القادمة، وأن هناك عدةَ عروضٍ قد تلقاها النادي من أجل تعاقدٍ جديد. استبدَّتْ بيَ الدهشة جراء قراءة مثل هذه الأخبار على الجرائد دون أن أعلم عنها شيئًا مُسبقًا. بعد أيَّام اتضحتْ حقيقة الأمر، إذ أنَّ إدارة إيفرتون أخبرتني بأنَّها قد تتوجه بطلب الحصول على خدماتي بعقدٍ تصل مُدته خمسة مواسم قادمة بديلًا عن الإعارة.

في تلك الأثناء كانت فترة الانتقالات الصيفية قد اقتربتْ، وسوف أحصل على راحة من التدريبات لمدة تُقارب العشرين يومًا، تُعد هي الإجازة السنوية التي أقضيها في أنترويب، قبل بدء مرحلة الإعداد للموسم الجديد.

* * *

في منزل أنتويرب، أستيقظُ باكرًا، أفتح نافذتي وأنتظر أن ينهمر مطرٌ، وبديلًا عن المطر تصحو



أدولفين فتصبح رائحة الأرض ندية، من ثم نجلسُ حول الطاولة، لنتشاور حول أفضل العروض التي يجب القبول بها والوجهات التي يجب عليَّ أن أسلكها. كان هناك عرض من يوفنتوس الإيطالي، وآخر من عدة أندية أنجليزية. بعد المفاضلة فيما بينها، توصلنا في نهاية الأمر إلى أن اتفق ثلاثتنا على البقاء في صفوف إيفرتون.

في يوليو 2014 وقَّعتُ عقدًا جديدًا، حُددث مدته بخمس سنوات، مقابل ثمانية وعشرين مليون جنيه إسترليني، وتم إعطائي القميص رقم 10. من ثم بدأتُ مرحلة جديدة مع الفريق بصفتي لاعبًا أساسيًا ضمن صفوفه وليس لاعبًا مُعارًا لفترة مؤقتة.

في الثالث عشر من سبتمبر، خضنا مباراتنا الأولى، وكانت ضد فريقي السابق وست بروميتش ألبيون. كانت مباراة سهلة على الفريق، صعبة عليَّ، فأنا مرتبط ارتباطًا وطيدًا بجماهير وست بروميتش، كما أن اللعب ضمن صفوف الفريق لسنة كاملة كان كفيلًا بأن تنشأ فيما بيننا علاقة رائعة، وطالما هتفوا باسمي في



المدرجات. في منتصف المباراة استطعتُ تسجيل هدفٍ رائعٍ. كدتُ أحتفل بالهدف، فهو الهدف الأول لي مع إيفرتون في الموسم الجديد، لكني تذكرتُ نصائح أدولقين، فتعمدتُ ألّا أحتفل بالهدف، حافظتُ على هدوئي وثبات انفعالي. من ثم توجهتُ إلى دائرة منتصف الملعب دون أي احتفال. وفي تلك اللحظة حدثت المفاجأة، أطلقتْ جماهير ويست بروميتش صافرات التشجيع والإشادة بالتصفيق الحار، وكان ذلك ردهم الرائع على احترامي لهم.

في التاسع عشر من فبراير 2015، وتحديدًا على ملعب دي سويس المتواجد في مدينة برن عاصمة سويسرا الإدارية ورابع أكبر مدنها، وُفِّقتُ في تسجيل أول ثلاثية متتالية (هاتريك) مع إيفرتون، وكانت في مباراة الفوز 4 - 1 على فريق يانغ بويز وهو فريق كرة قدم سويسري يلعب في دوري السوبر، ويعد من أعرق الأندية السويسرية حيث تم تأسيسه في سنة 1898م. وكانت المباراة ضمن دور ال32 من الدوري الأوروبي. بعد انتهاء المُباراة قُرر لنا المكوث ليومين



متتاليين كنوع من الترفيه وتغيير الأجواء، وكان ذلك شيئًا رائعًا، فقد مكنني من التجول في المدينة التي قرأتُ عنها كثيرًا، والتي لا تزال تحافظ على طابعها القديم من العصور الوسطى، وقد اختيرت مؤخرًا من قبل اليونسكو كموقع تراث ثقافي عالمي.

في اليوم الأول زرتُ برفقة بعض زملاء الفريق برج زيتجلوج ذا الساعة المتقنة الصنع، وهو من القرون الوسطى، وفي اليوم التالي توجهنا صوب كاتدرائية منستار القوطية التي يرجع تاريخها للقرن الخامس عشر. ولم نتركْ مكانًا إلّا وحصلنا فيهِ على صورٍ تذكارية.

في الحادي والعشرين من نوفمبر، على ملعب فيلا بارك في بيرمنجهام - إنجلترا، وُفقتُ بتسجيل هدفين في الفوز 4 - 0 على فريق أستون فيلا، لأُصبح بذلك خامس لاعب تحت عمر ثلاثٍ وعشرين سنة ينجح في تسجيل خمسين هدفًا أو أكثر في الدوري الإنجليزي الممتاز، بعد كلٍ من روبي فاولر ومايكل أوين وواين روني وكريستيانو رونالدو.



في الثاني عشر من ديسمبر، كنتُ حديث الصحافة الإنجليزية، خاصة المهتمة بفريق إيفرتون، فقد أصبحتُ أول لاعب من إيفرتون يسجل في ست مباريات متتالية بالدوري الممتاز، وأولَ لاعب يسجل في سبع مباريات متتالية في جميع المسابقات منذ بوب لاتشفورد قبل أربعين سنة، عندما افتتحتُ التسجيل في التعادل 1–1 مع نورويتش سيتي على ملعب كارو رود، وفي المباراة التالية التي هزمنا فيها 3–2 أمام ليستر سيتي، كنتُ على موعدٍ مع إنجاز جديد، فأصبحتُ أول لاعب من إيفرتون منذ ديف هيكسون في عام 1954 يسجل في ثماني مباريات متتالية، من ثم لقبتني الصحافة الإنجليزية، بالوحش الأسود المتعطش لإحراز الأهداف. واستمرتْ الإنجازات.

في السادس من فبراير 2016، سجلتُ هدفي العشرين في ذلك الموسم بمباراة الفوز بنتيجة 3 – 0 على ستوك سيتي، فأصبحتُ بذلك أول لاعب من إيفرتون منذ غريم شارب ينجح بتسجيل عشرين هدفًا على



الأقل في جميع المسابقات في موسمين متتاليين مع إيفرتون. كما كان هدفي السادس عشر في الدوري لذلك الموسم، معادلًا للرقم القياسي في عدد الأهداف في الدوري مع إيفرتون والذي كان بحوزة أنتوني كوتي وأندري كانتشيلسكيس في منتصف التسعينيات. وفي الأول من مارس، سجلتُ هدف الفوز 1–0 على أستون فيلا في ملعب فيلا بارك، وهو هدفي رقم سبعة عشر في الدوري لذلك الموسم، مسجلًا بذلك رقمًا قياسيًا في عصر الدوري الممتاز لنادي إيفرتون.

في الأول من يونيو 2016 توجهتُ برفقة المنتخب الوطني إلى فرنسا، من أجل خوض نهائيات أمم أوربا، يورو 2016م، والمقرر لها أن تكون ما بين العاشر من يونيو إلى العاشر من يوليو من نفس العام. في المباراة الأولى ضد منتخب إيطاليا، لم يكن التوفيق حليفًا لنا، كما أن المنتخب الإيطالي لعب جيدًا للغاية، فاستطاع تحصيل الثلاث نقاط بعد هزيمة بلجيكا بنتيجة 2 – 0. في المباراة التي أعقبتْها لعبنا ضد منتخب أيرلندا،



فزنا بنتيجة 3 –0، وُفقتُ في إحراز هدفين من الثلاثة. ثم فزنا في المباراة الثالثة على منتخب السويد بنتيجة 1 – 0، لنتأهل بذلك إلى دور الثمانية، لكننا لم نوفق في اجتياز منتخب ويلز وتلقينا هزيمة كبيرة بنتيجة 3 – 0، خرجنا على أثرها من يورو 2016.

تأثرتُ نفسيًا بالهزيمة والخروج من دور الثمانية، كان لدي أملٌ كبير في الوصول للدور النهائي. لم يتركني روجر وأدولفين، ظلّا قريبين مني تلك الفترة من أجل تأهيلي نفسيًا مرة أخرى للعودة إلى مباريات الدوري الإنجليزي.

في سبتمبر 2016، سجلتُ مُجدّدًا أول أهدافي في موسم 2016–2017، كان اليوم برعاية أدولفين التي كانت وروجر يحضران المباراة في المدرجات، وقد سجلتُ جميع الأهداف الثلاثة في مباراة الفوز 3 - 0 على سندرلاند. واستطعتُ تسجيل الأهداف الثلاثة خلال إحدى عشرة دقيقة وسبعٍ وثلاثين ثانية فقط،



مما جعل ذلك ثاني أسرع هاتريك في تاريخ الدوري الإنجليزي الممتاز.

في الرابع من فبراير 2017، سجلتُ أربعة أهداف، كان أولها هدف إيفرتون الأسرع على الإطلاق في الدوري الإنجليزي الممتاز، أمام بورنموث بمباراة الفوز 6 - 3 في غوديسون بارك. وكان هذا هو الهاتريك رقم 300 الذي سُجّل في الدوري الإنجليزي الممتاز. وفي الخامس والعشرين من فبراير 2017، عادلتُ دونكان فيرغسون بعدد الأهداف في الدوري لصالح إيفرتون، حيث سجلتُ هدفي رقم 60 لصالح إيفرتون في مباراة الفوز 2 - 0 على سندرلاند في غوديسون بارك مرة أخرى. وفي الخامس من مارس، تجاوزتُ فيرغسون لأصبح بذلك صاحب الرقم القياسي، ثم سجلتُ في مباراة الخسارة 3 - 2 ضد توتنهام هوتسبير خارج الأرض في وايت هارت لين. وفي المباراة التالية، فاز إيفرتون 3 - 0 على وست بروميتش، وسجلتُ لأصبح أول لاعب في إيفرتون منذ بوب لاتشفورد يسجل عشرين هدفًا أو أكثر في



جميع المسابقات لمدة ثلاثة مواسم متتالية. وبعد أسبوع، خلال مباراة الفوز 4 - 0 على هال سيتي، سجلتُ هدفين ليصل إلى هدفي رقم واحد وعشرين في ذلك الموسم، لأصبح بذلك أول لاعب من إيفرتون منذ غاري لينيكر قبل واحدة وثلاثين سنة يتجاوز عشرين هدفًا في الدوري في موسم واحد، بالإضافة إلى كوني رابع لاعب وأول لاعب أجنبي يسجل ثمانين هدفًا في الدوري الإنجليزي الممتاز قبل بلوغه سن الرابعة والعشرين. وفي هذا العام تم اختياري من بين أفضل ستة لاعبين مرشحين لجائزة أفضل لاعب في إنجلترا و جائزة أفضل لاعب شاب في إنجلترا.

في مارس 2017، تقدَّم إيفرتون بعقدٍ جديد لمدة خمس سنوات براتب 140 ألف جنيه إسترليني في الأسبوع، لكن ثمَّة بنود لم نتفق عليها، حاولنا التوصل لتسوية، ولم يفلح الأمر. نصحني مينو رايولا وكيل أعمالي بعدم قبول العقد، وأتبع سببًا، هذا العقد قيمته أقل مما تستحقه، وأتبع سببًا، غير أنه يجعلك مقيدًا لخمس سنوات قادمة مع إيفرتون الذي يتغيب عن



دوري أبطال أوروبا، وأنت تطمح باللعب في دوري الأبطال. وأتبع سببًا، ثم أن كأس العالم 2018 بات وشيكًا، ويجب عليك أن تكون ضمن إحدى الفرق الكبيرة من أجل ضمان التواجد بصفة مستمرة ضمن صفوف المنتخب الوطني.

كانت أسباب مينو رايولا مُقنعة جدًا، إلّا أنّني كنتُ أطمح فعليًا للانتقال لمكانٍ آخر. من ثم أنطلقتْ شائعات حول عودتي إلى تشيلسي وأخرى حول انتقالي إلى مكانٍ آخر جديد ربما يوفنتوس الإيطالي.

لم يتلقَ فرهاد مشيري، الإيراني مالك نادي إيفرتون الأخبار بصدرٍ رحب، راح يتكلم بحديثٍ موارب إلى الصحافة، حول أن هناك بنودًا في العقد القديم تحرمني من اللعب في نادٍ آخر وأشياء من هذا القبيل، كما أنّه نوه إلى أنَّ نجاحي في إيفرتون مقرون بوجودي وسط نخبة من اللاعبين يصنعون مني نجمًا وأنني لا أستطيع فعل ذلك مع أيّ نادٍ آخر.



في هذه الأوقات كانت أدولفين في زيارتها السنوية التي باتت تكررها في كل عام إلى كينشاسا - الكونغو من أجل مساعدة العائلة وآخرين هناك. في تلك الأوقات صرح مشيري تصريحًا غير مسؤول لإحدى القنوات الرياضية، قال فيه:

- لم يجد رووم وجهة أخرى تتقبله، إلّا أنه أجرى اتصالًا بوالدته التى كانت فى زيارة لأحد الأماكن المقدسة فى أفريقيا وأخبرها أن تطلب مساعدة أحد المشعوذين من أجل انتقاله إلى تشيلسي مرة أخرى.

تناقلت الصحف وبرامج تلفزيون الواقع حديث مشيري على نطاقٍ واسع، استأتُ بشدة جراء ذلك. عندما علمتْ أدولفين بالأمر تشاورت مع روجر ومن ثم تحدثوا إلى مينو رايولا، طلبا منه مرافقتي واتخاذ إجراءٍ قانونيٍّ ضد مالك النادي إلى حين أن يحضروا إلى لندن. قضينا أيَّامًا بين شدٍ وجذب، تعمدتُ فيها التباطؤ في اتخاذ خطوة قانونية ضد مالك الفريق، وكان ذلك من أجل مشجعي إيفرتون الذين تربطني بهم علاقة وطيدة.

في صباح أحد الأيام، تحدث فرهاد مشيري إلى رايولا، طلب منه تحديد موعدٍ معي، من أجل تهدئة الأجواء وتصفيتها. عندما أُبلغتُ من قِبل رايولا، لم أعطِه ردًا، آثرتُ أن أتحدث إلى أدولفين أولًا لآخذ رأيها، ووافقت، شريطة أن تحضر هذه المقابلة.

في مكتب مالك إيفرتون والذي كان يجلس خلف مكتبه بينما وقفتْ زوجته بالقرب منه في ذلك اليوم، دار بيننا حديث لم يتصف بالجيد. كان حديثه مواربًا حتى النهاية، فقد تعمد لعدة مراتٍ أثناء حديثه التقليل من شأننا، والتنويه أنَّه قد يدفع أكثر من تشيلسي في حال وافقنا على العقد الجديد. لكن أدولفين انتظرتْه حتى فرغ من حديثه، ثم فاجأته بالقول :

- تركتُ لكَ مساحة التحدث كيفما شئتَ، فلم تستغل الفرصة لتقول شيئًا يُحسب لك، على العكس، أسأتَ التصرف، وتحدثتَ بحديثٍ مواربٍ لا يليق بنا. وجب عليك أن تعرف كم هو صعب على الإنسان أن يلتزم الأخلاق الطيبة بينما تنطحه وترفسه وتعضُّه الحيوانات من كل جهة، لاشك أننا نخسر في كل يوم



شخصًا فاضلًا قرر التخلي عن فضيلته لكي يستطيع حماية نفسه من أوباش هذا الزمن المجنون!

توقفتْ عن الحديث للحظات قبل أن تضيف:

- دعني أخبرك بأنَّني أستطيع رؤية الغرور وهو يسري في عقل أحدهم، وأنَّني أرى أوهامه عن نفسه وخيالاته عن عظمته، لكني أعذره أحيانًا في ذلك لأنه قد يكون الاستثناء في بيئته الوضيعة الذي انحدر منها، أو أنَّه قد عاش وهو يرى نفسه الأفضل، الأفضل بين السيئين

استاء فرهاد مشيري بشدة من حديث أدولقين الموارب لكنه موجهٌ إليه، فعلق:

- احذري من ..

لكن زوجته التي كانت تقف إلى جواره كانت أكثر منه تعقلًا وحكمة، إذ ربتت بيدها على كتفه في إيماءةٍ منها بأن يتوقف عن الحديث لئلا يوقع نفسه في



أخطاء أكبر، وكانت قد لمستْ الحكمة والنضج في حديث أدولقين فخشتْ على زوجها أن يورط نفسه.

تلك اللحظة أضافت أدولقين بنبرة صوتٍ محذِّرة وهي تشير بسبابتها:

- بل أنتَ من يجب عليهِ أن يحذر. جثتك الضخمة، سترتك الفارهة وساعتك التي تنظر إليها مثل رجل أعمال ذي نفوذ، وشخصيتك المُصطنعة كُلّها تُساوي صفرًا حين أقف أمامك

من ثم نهضتْ عن مقعدها وهي تضيف:

- سأقاضيك على ما صرَّحتَ به، ولنرَ ماذا ستفعل

غادرْنا المكان، بينما غمغمتْ أدولقين وهي تخرج من باب المكتب بحديثٍ بدت فيه نبرة المنتصر، إذ نوَّهتْ قائلة:

- إنَّه لمن الممتع أن تشاهد الشخص المغرور يعاني من الإحباط، أن تضعه مباشرة أمام حقيقة مفادها؛ أنتَ



لستَ شخصًا ذا قيمة كما كنتَ تتخيَّل، وإنَّه من السهل تحويلك لكائن رخيص لا يساوي شيئًا.

* * *

في صباح يومٍ هادئٍ وخفيفٍ من أوائل أيَّام يوليو 2017م، أي بعد شهر واحد مِن انتهاء موسم 2016/2017م، دُعيتُ رسميًا لمقابلة بعض الوسطاء من أجل التحدث حول إمكانية انضمامي لفريق مانشستر يونايتد، وكان الأمر يتم في سريَّة تامة. كادت المفاوضات فيما بيننا أن تبوء بالفشل بيد أنَّ أحد الوسطاء دعا إدوارد قاريث الشهير ب «إد» الرئيس التنفيذي لنادي مانشستر يونايتد للحضور من أجل التدخل وتوضيح بعض النقاط. إد هو محاسب إنجليزي، يمتلك المسئولية الكاملة لإدارة مانشستر يونايتد، يبلغ من العمر ستة وأربعين عامًا، ومن مواليد مدينة تشيلمسفورد التابعة لمقاطعة إسكس بجنوب المملكة المتحدة. رجلٌ متوسط الطول، له بنية رياضية قوية، حضر مرتديًا سترة سوداء أنيقة، أسفلها قميص قطنيّ أبيض يتزيَّنُ بياقةٍ أشْبه بشبكةٍ حريريَّةٍ طوّقت



برابطة عنق حمراء تحمل خطوطًا سوداء فتظهرها وكأنها جزء من علم المملكة المتحدة. كان رجلًا ذا شخصيّةٍ جادةٍ وحادة للغاية، لا يمزح إلّا قليلًا وإنْ حدث تكون مزحته متصلة بطريقةٍ ما بالعمل.

في العاشر من يوليو 2017م، اجتمعتُ مع إدوارد قاريث «إد» في مكتبه بملعب أولد ترافورد الملقب بمسرح الأحلام بمدينة مانشستر، وهو ملعب فريق مانشستر يونايتد الذي يخوض عليه مبارياته. وانتهى اللقاء فيما بيننا بالتوقيع على تعاقد مدته خمس سنوات مع خيار سنة أخرى. وقد تم تسجيل الصفقة بمبلغ خمسة وسبعين مليون جنيه إسترليني، بالإضافة إلى خمسة عشر مليون جنيه إسترليني إضافات، وجاء توقيعي للفريق بعد يوم واحد من مغادرة كابتن الفريق السابق واين روني الذي عاد إلى إيفرتون، ناديه السابق من قبل مانشستر.

في الرابع عشر من نفس الشهر، طلبتُ الحصول على إذن من اللاعب زلاتان إبراهيموفيتش إذا كان يمكنني أن أرتدي القميص رقم 9 ووافق على الفور.



بعد شهر واحد، تحديدًا في الثامن من أغسطس 2017م، جاءت مباراتي الأولى وكانت ضد الفريق الأشهر عالميًا ريال مدريد، في كأس السوبر الأوروبي 2017، وسجلتُ أول هدف رسمي لي مع النادي في مباراة الهزيمة 2-1.

من ثم جاءت أول مشاركة لي في الدوري وكانت ضد فريق وست هام، والتي وُفقتُ فيها بتسجيل هدفين من أصل أربعة، حيث انتهت المباراة بالفوز 4-0. لأصبح رابع لاعب من مانشستر يونايتد يسجل هدفين في أول مشاركة له بالدوري. وفي السابع والعشرين من سبتمبر، سجلتُ هدفين في مباراة الفوز 4–1 في دوري أبطال أوروبا على سيسكا موسكو، ليرتفع رصيد أهدافي مع مانشستر إلى عشرة أهداف في أول تسع مباريات. وبذلك أكون قد كسرتُ الرقم القياسي الذي كان بحوزة السير بوبي تشارلتون الذي سجل تسعة أهداف في أول تسع مباريات له مع النادي. وفي مباراة الفوز 2–1 على ناديَّ السابق تشيلسي في الخامس والعشرين من فبراير 2018، سجلتُ هدف



التعادل قبل أنْ أصنع هدف الفوز لجيسي لينغارد. سجلتُ هدفي رقم 200 للنادي والمنتخب في الثالث عشر من مارس في مباراة الهزيمة 1–2 أمام إشبيلية ليُقصى مانشستر يونايتد من دوري الأبطال في الدور 16. وفي آخر مارس 2018، سجلتُ هدفًا في الفوز 2–0 على سوانزي سيتي. وكان هذا الهدف هو رقم 100 في الدوري الإنجليزي الممتاز في مباراتي ال 216، لأُصبح بذلك خامس أصغر لاعب من أصل ثمانية وعشرين لاعبًا وصلوا إلى هذا الرقم في تاريخ مسابقة الدوري الإنجليزي.

بعد أيَّام؛ حصلتُ على راحة قصيرة حُدِّدَ لها أن تكون لمدة عشرة أيَّامٍ فقط، وآثرتُ أن أقضيها في أنتويرب كعادة جميع الأوقات التي أستطيع أن أتفرغ فيها، خاصة وأن في هذه الفترة كان ثمَّة أمرٌ ما بخصوص أنتويرب يشغل عقلي منذ مدة وقد رأيت أن هذا وقتٌ مناسبٌ لقضائه والانتهاء منه.

***

مُث فارِغًا

في أحد الأيَّام، وكان يَوْمًا مُمْطِرًا تميّز طقسُه بالبرودة، لكنه بدا كئيبًا على عكس ما يُشاع عنه في مثل تلك الأجواء، دلفتْ الأم چيني إلى غرفة ابنها ڤيني ڤرانس، جلستْ على أريكةٍ قريبةٍ منه، بيد أنَّه لم ينتبه إليها، إذ أنَّه كعادة أيامه الأخيرة، يضع سماعات الرأس فوق أذنيه، ومشغولٌ طوال الوقت بمحادثة بعض من لقبهم بالأصدقاء الجُدد وتصفح الإنترنت. في صمتٍ مُريب، تنقلتْ بعينيها تتفحّص كل زاوية في الغرفة وكأنها تراها لأوّل وَهْلة، أو أنّها لأول مرة تدخلها، من ثم تحدثت بهدوءٍ وروية كأنَّها تتحدث إلى نفسها، وهي تنقر بأصابعها نقرًا على الطاولة ينمّ عن نفاد صبرها:

- مث فارغًا (Die Empty)، إنَّه عنوان كتاب للمؤلف تود هنري، أنهيتُ قراءته قبل قليل، وقد راقت إليّ جُزئيةٌ قال فيها : «لا تذهب إلى قبرك وأنتَ تحمل في داخلك أفضل ما لديك، اختر دائمًا أن تموت فارغًا»؛ أي كل الخير الذي في داخلك، سلّمه قبل أن ترحل، إذا



كنتَ تملك فكرةً جيدةً نفّذْها، علمًا نافعًا بلغْه، أو هدفًا عميقًا حقّقْه.

انتبه ڤيني ڤرانس إلى وجودها، فالتفتَ إليها من فورهِ لكن في بطء وقد بدا عليه أنّه لم يفهم ما قصدتْه، أو أنّه لم يسمعه جيدًا، فأومأ برأسهِ إليها يستفسر عمّا تقوله، فأضافت :

- عندما فارق والدك الحياة، لم يتبقَ لي أحدٌ غيرك، صارعتُ الحياة مرارًا من أجل أن أراك قويًا، تشاركنا كل شيء، التفاصيل الصغيرة، وحتى تلك الأشياء التي ربما كانت تبدو تافهة. كذلك تشاركنا أكثر اللحظات ضعفًا وأرقًا. من ثم وجدتُك الآن وفجأةً غريبًا عني. فكيف أصبحتَ هكذا؟ وكيف صارت الأمور بيننا معقدة وصعبة لهذه الدرجة؟

- لم يتغير شيء، أنا فقط أرغبُ بقليلٍ من العزلة

كانت ثمّة حدّةٌ في نبرتِه وهو يتحدث، لم تكن مألوفةً لديها قبل الآن، وبدت واضحة أكثر عندما استرسل في

الحديث وهو يترك مسافة بين الكلمات:

- من فضلك .. اسمعي .. سوف نتكلَّم لاحقًا.. حسنًا؟ أمَّا الآن .. فإني أحتاج أن أبقى وحيدًا في عزلتي، أو أني سأنام، فقد كان النهار طويلًا

بنبرةٍ حاسمة:

- من قال لك إني قد أتركك في حالتك هذه؟ ثم إنَّ العزلة لا يُقصد بها كره الأصدقاء ولا يُعنى بها التوقف عن الحب، ولا يُقصد بها إبعاد أحدهم، بل هي نيّة الاقتراب من النفس والانتباه لها. لا أن تضعَ نفسك طوال الوقت وسط أجواء تجلب الاكتئاب، فتخسر إيمانك، ودراستك، وفي النهاية حياتك.

بألمٍ واضحٍ ومرارة بدث في ملامحه وهو يتحدث، قال:

- أنا مُتعَبٌ وتائه، منهكٌ وممزق، حزينٌ وممتعض، أنا جدًا غاضب، ولا أدري بأي غرضٍ لازلتُ هنا، أصارع وجودي البائس. أشعر وكأني أتضاءل وأتقلص، أنطوي



وأنكمش، أذوب وأتناثر ثم أهوي في هذه العُزلة .وأكثر ما ينهش طاقتي هو تظاهري الدائم بأني على مايرام بينما أنا لستُ كذلك، أحاول جاهدًا الظهور أمام الجميع كل صباحٍ بهيئة طبيعية، بينما بالأمس لم أبرح ليلي حتى حصل على نصيب كافٍ من الأرق والغضب

وهي تربت على كتفه، قالت :

- مِن ماذا؟ ما الذي فعل بك كل ذلك؟

- من الخوف .. نعم الخوف. أنا خائف لذلك أبتعد، خائف لذلك أذهب سريعًا، وبلا مُبرر، لأني لا أُريد أن أسقط مخذولًا بعد الآن يقينًا بأن القاع لم يخلق لأجلي

- ومن قال إنَّنا في القاع؟ وإن كُنّا، فلماذا لا نقاوم بجسارة مثل غيرنا؟

- لأن كل شيءٍ في هذه الحياة يتربص بي. قد أبدو للجميع شخصًا هادئًا ومنعزلًا، يُوحي لهم الانطباع الأول عني بأني لا أُطاق، لكني على العكس تمامًا، أحمل داخلي مرحًا ودهشة لاينقطعان، وأنتِ تعلمين



ذلك جيدًا، قد أبدو أني لا أختلط بالجميع سريعًا، ودائمًا هناك مسافة هائلة بيني وبين كل الذين أضطر إلى رؤيتهم كل يوم، ذلك لأني قضيتُ عمري بأكمله وليس في قائمة معارفي سوى شخصٍ واحد، ولم يعد موجودًا

- من قال إنَّه لم يعد موجودًا، إنَّه يتصل عليك مرارًا، أنتَ من لا يهتم. بيد أن أكبر خطأ يرتكبه الإنسان أن يجعل حياته بالكامل تتمحور حول شخصٍ واحد، إن كان ثمَّة شخص يستحق أن تجعل حياتك تتمحور حوله، فهو أنتَ، وأنتَ فقط.

نظر إليها في وجوم لثوانٍ قليلة، ثم استرسل في الحديث، قال:

- لقد أصبح ما يريده، أمَّا أنا، أصبحتُ لا شيء. أنا الآن لستُ سائق تاكسي، ولا بائع بطيخ أو مُهرجًا في سيرك ولا أي شيء تافه. كل ما أعرفه أني أُعاني من الصداع ومن الأرق بشكلٍ دائم وأني بحاجة إلى إجازة من الحياة، أحتاج لتصفيف شعري وإصلاح زجاج نظارتي،



حياتي كلها تحتاج لحياة. لا أعرف لماذا وجب علي الوقوع في كل هذه المتاهه؟

أعرف بأنَّ المرء فور انفصاله عن الحبل السري، فهو معرض للارتباط بأمورٍ أخرى، يرتبط بحبيبة، بعمل، بأغنيه، بعائلة، أو يرتبط بفكر معين، لا أن يرتبط مثلي بكل هذا الكم من المشاكل. إنها تزعجني وتضايقني كبوكسر ضيق، لكني أحاول ألَّا آبه بها، لديَّ إيمان عميق بإحدى مقولاتك حين كنتي تتوقفين وأنتِ تخيطين الملابس، ثم تنظرين إليَّ من أسفل نظارتك وتقولين: «إن المشاكل والألم يا بُنيَّ هما ما يصنعان الإنسان ويبقيانه حيًّا لفترة طويلة»

كل هذا كلام جميل، لكن الحياة لعبة منهِكة حقًّا، كلنا في نهاية الأمر ننزف ونموت كالطيور المصابة. على كل حالٍ على كل حالٍ، لا تقلقي عليَّ، أنا بخير، وكلما تغيبتُ عن المنزل فإني سأعود لغرفتي، أسند ظهري على ذلك الكرسي، أفتح الدرج الأول هكذا، ثم آخذ عبوة السجائر هذه، أطرقها من الخلف باحترافٍ كما يطرق نادال كرة التنس، فتخرج من طرفها سيجارة،



أسحبها، أمسك بها، وأشعلها، ثم أمتص منها نفسًا عميقًا، وأنفث فوقي سحابة من الدخان، وأكرر ذلك بشكلٍ شبه يومي كما ترين. أعرف أنهُ لن يتغير شيءٌ وأن ألف سيجارة لن تخلصني من كل هذه المآزق، فأنا لدي ما يكفي من المشاكل والهموم، وكتائب النمل التي تملأ زوايا غرفتي، والفئران والصراصير التي تشاركنا المنزل، كما أني لديَّ جرح صغير في وجهي بسبب ماكينة الحلاقه كما ترين، لا أشعر أني بخير، وأعرف أن هذا لا يهم أحدًا طالما لم يؤثر على اقتصاد سوق البورصة في بلجيكا. الحياة بالنسبة لي لم تعد مُمتعة، لا شيء مثير، الموسيقى باتت سيئة، والتلفاز يبث الأكاذيب، والخرافات، والإيحاءات الجنسية، والكوميديا الرديئة. كل شيء بات رتيبًا ومملًا ومكررًا، وأنا منذ سبعة وعشرين ساعة لم أتمكن من النوم، ومنذ ست سنوات لم أستطع البكاء أو الضحك بشكل صادق. إني في الغالب أميل للخوف حين لا يوجد ما يدعو للخوف، وهذه الخطة تبقيني في مأمن إلى حد ما. لذا أرجوك، دعيني وشأني، غادري هذه الغرفة، أتركيني للنوم، للنوم فقط



في أملٍ بيأس، قالت بصوتٍ رتيب:

- سأتركك للنوم، لكن عليك أن تتركني أُفرِغ ما في جوفي كما تركتُ لك مساحةً لإفراغ ما في جوفك. دعني أخبرك حقيقة ألّا أحد هناك في العزلة فيما لو كانت لديك رغبة للهروب إليها والمكوث فيها

أكملتْ وهي تشير بسبابتها إلى رأسِه:

- الكل هنا، في رأسك، بداخلك، مقيدٌ بك، فأنتَ مزدحمٌ بالظلال والأشباح والأرواح والبقايا، مسكونٌ بالهواجس والظنون والمخاوف، تتلعثم وتتعثر وتتظاهر، تحاول الفكاك، تريد الانسلاخ والتراجع، تشعر بأنك مسكين ومهزوم من الوحدة، حزين، مشتت وضائع بدون أحلامك، حائر في تحديد أي وجه كان وجهك

نهضتْ الأم عن مقعدها، من ثم قالت بنبرة صوتٍ مُتأثرة كادت من فرط التأثر أن تبكي:



- ڤيني ڤرانس، لا تتركني وحيدة، أشعر بالوحدة من دونك، لازلتُ في كل لحظة أنظر إليك، أبحث في وجهك عن الشخص الذي عرفتُ، عن الشخص الذي آمنتُ به، عن الشخص الذي أحببتُ، إني أغرق بغصَّتي في كل مرة أنظر إليك ولا أعرفك

ترقرق الدمع من عيني ڤرانس، ولم يجد ما يقوله، فاسترسلتْ الأم تتحدث بنبرة ناصحة:

- ڤيني ڤرانس، تذكر دائمًا أنَّ هناك قاعدة في الحياة، تقول: »لا أحد بإمكانِه أن ينقذك إلَّا أنتَ«، لذا تعوَّد أن تخيط جروحك من الداخل بنفسك، لا أحد يعرف حقيقة وجعك وشدَّته كما تعرفها أنتَ، وأيُّ يدٍ أُخرى تلمس جروحك ستوجعها أكثر

وهو يغرس وجهه بين كفيه، قال بيأس:

- لا أستطيع

- من قال؟ لقد مررتُ من قبلك بأيَّامٍ قاسية فوق ما يمكن أن يخيَّل لك مهما أجتهدتَ، وما جعلني أكثر

مقاومة هو أني قد مررتُ بهذه الفترات الأكثر مرارة وظننتُ أنها لن تمضي ومضتْ

- لا أعرف كيف ترين الأمور بهذه البساطة!

- لأنها بالفعل بهذه البساطة، ولأني لا أؤمن بفكرة أنّنا بحاجة إلى شخص يُكمِّل نقصنا، الإنسان بحاجة إلى طموح، إلى شغف يدفعه للحياة، بحاجة إلى شيء لا ولن يجده إلّا في نفسه. ففي نهاية الأمر أنتَ المسؤول عن سعادتك وتعاستك، النّاس حالة مؤقّته، النّاس خيارٌ ستتحمّل نتيجتَه وحدك مدى العمر. الأمور بهذه البساطة ما دمتَ تحاول وتقاوم لتحقيق حلمك، لا يهمك عدد مرات سقوطك، لا يشغلك كلام من حولك، لا تفكر بخيبات أمس، ما تحملُ همه لن يدوم في حياتك، لا أحد يفهمك قدر نفسك، افتخر بصمودك، افرح بأقل إنجازاتك، لا تستسلم مهما كانت صعوباتك، تبصر في مميزاتك، أنتَ شيءٌ عظيم في واقعك، يكفي أنك بديع صنع ربك، ألا تؤْمِن؟

- أؤمن بك أنتِ



قالت وهي تغادر مقعدها:

- إذًا لا تكفر بي، ولا تتركني وحيدةً من دونك. واعلم بأن الحياة مسألة تتعلق بالهرب، الجميع مدفوعون بالخوف.. الخوف من الوحدة، الخوف من الأذى، الخوف من الحاجة. ومع ذلك لاتزال الأمور بخيرٍ حتى تبدأ بالخوف من الحياة نفسها والشعور بالحاجة للهرب منها، عندئذٍ تعرف بأنه عليك الخوف من خوفك نفسه، وأنه لم يعد طبيعيًا

لم يكن لدى ڤرانس أيٌّ ردٍّ على حديث الأم چيني، كان يبحث في روحه عن كلماتٍ مناسبةٍ كلما نظر إليها، ولم يجد إلا شهقاتٍ متتالية، وآهٍ ضخمة. بيد أن الأم لم تستسلم بعد، إذ أنَّها وقفتْ بالباب وشرعتْ في الحديث مُجدَّدًا، قالت:

- يَا بُنيّ .. عليْكَ أنْ تُحافِظَ على العَهْد الذي قطعتَه لي بأنك سوف تصبح دائمًا بخير. ولا تنسَ أنك قد مررتَ بالكثير من الأوقات الصعبة، لتلعب في روبل بوم، من ثم كافحتَ لأجل اللعب في ليرس، وحتى إنْ لم تنل



الحظ الوافر للعب في رويال أندرلخت، فلا تيأسْ، ولاتظلم كفاحك بالحياة، لا تندمْ حين تتذكر الفرص التي ضاعت منك، لا تنسَ الأقدار المؤلمة التي أوقفتْك لسنوات في مكانك، لكن تذكر أنك رائع لأنك استعدتَ توازنك رغم كل ما مررتَ به، ولتَبقَ بهذا الجمال والنقاء. أنتَ عظيمٌ، أنتَ مزيج من تجاربك وتحديّاتك، وآمالك وأحلامك، وذكرياتك وآلامك، وجهودك وإنجازاتك، وعثراتك ونجاحاتك، فالأيام التي تمرُّ بك بكل ما فيها من أحداثٍ ومواقفَ لا تظنّها عابرة فحسب، إنها تصنعك وتصقل شخصيتك، وتُشكِّل ذلك الإنسان الذي هو «أنتَ». عليك أن تستفيق مما أنتَ فيه الآن، فأنتَ لا تعرف كيف ستهاجمك نفسك بعد خذلك لها من أجل انشغالك بالآخرين، لا تعرف كيف ستخذلك هي أيضًا وفي أشد أوقاتك حاجة لها

ترقرقت الدموع من عيني ڤيني ڤرانس وهم يغمضهما بشدة وكأنه يواجه عاصفة شديدة داخل روحه. بينما ختمتْ الأم حديثها وهمّتْ لمغادرة الغرفة وهي تقول :



- أرجوك، تمسك باليقين. افتقارُ المرء إلى اليقين وتردُّده ووجلُه وسلبيَّتُه تلك سجايا تشمئزُّ منها الحياة، والحياة يَا بُنيّ لا تنصف المشوَّشين

أغلقتْ باب الغرفة من خلفها بعد أن غادرتْها بعينين دامعتين وقد استبدَّ الحزن في عينيها اللتين أغرورقتا بالدموع، وقد شعرتْ من أعماقها أنَّها قد هزَّتْ روحه من الداخل، وأنَّه قد يستفيق لحاله بعد هذه المجادلة الطويلة

***

في وقتٍ مُبكر من صباح أحد الأيَّام، عدتُ إلى أنتويرب وكنتُ عازمًا على قضاء وإنهاء أمر ڤيني ڤرانس الذي شغل عقلي مؤخرًا. فكرتُ كثيرًا فيما آل إليه الوضع بيننا، تساءلتُ مرارًا :

- (لماذا يفكر بغضبٍ شديدٍ غير مبرر؟).

لم يكن ڤرانس قد نشأ وترعرع بين والديه، إذْ توفى والده وهو رضيعٌ فلم يره. نشأ وحيدًا إلَّا من والدته



الأم ڤيني، وفي سن الخامسة، عندما التحق بمدرسة أنتويرب تقابلنا سويًّا وأصبح كلٌ منَّا محور حياة الآخر. لم يكن بخيلًا لكنه نزَّاع إلى تملُّك والاستئثار بالأشياء التي يحبها، شديد الغيرة عليها، ميال إلى الانهيار العاطفيّ لأتفه الأسباب أحيانًا. لا يذهب تمامًا ولا يقترب، متردد ثائر ويحن، يخاف اللحظة ويعيشها، يناقض نفسه باستمرار، يصمت في وقتٍ مبكر ويتحدث بعد فوات الأوان. لكنه أيضًا امتلك صفاتٍ أخرى مُدهشة، إذْ كان كثير الاستغراق في التأمُّل والتفكير، وحسن الانتباه ورقيقًا ودودًا. بعد تفكير كثير وجدتُ أنَّه أُصيب بالاكتئاب والذي أصبح ينخر روحه ويؤثر عليه، فإذا فرح فإنَّ فرحتُه مؤقَّتة، وإذا حزن فإنَّه ينسحق في ذلك الحزن. وسواء أكان فرِحًا أم حزينًا، فإنَّ إحساس ڤيني بهاتين الصفتين يكون مبالغًا فيه. كما أنَّه غدا في منتهى الحساسيَّة تجاه أيِّ اعتذار.

في مساء ذلك اليوم نفسه الذي وصلتُ فيه أنتويرب، وفي حين بدأتْ ريح المساء تهدأ وتتحوَّل إلى نسمة،



توجهتُ إلى منزله في الضواحي الشعبية للجلوس معه وفض سوء الفهم الذي يستشعره تجاهي. بجانب إيصال بعض الهدايا التي أحضرتُها لأجله والأم چيني خصيصًا من لندن.

استقبلتني الأم بحفاوة شديدة، وقد بدت الدهشة في عينيها فور رؤيتي قبل أن تعانقني بحبٍ كبيرٍ للغاية لم أعهده في أحدٍ آخر غيرها وأدولفين. على إحدى الأرائك، وضعتُ حقيبتين كنتُ أحملهما في يديَّ وأنا أسألها بلهفة:

- أين ڤيني؟

- غيرمتواجد

- كيف حاله؟، ولماذا لايجيب على الاتصالات؟

باقتضاب، قالت:

- «إنَّه بخير»



قالتها وقد تعمدتْ أن تُظهر عكس ما تُخفي، إذ اصطنعتْ ابتسامة مزيفة أعرفها جيدًا، فلطالما قامت بها أدولقين لإخفاء وجعها من شيءٍ ما. لم يكن باستطاعتي تقبل الأمر دون اكتراث، فلديَّ يقينٌ ثابت أنَّ ما يصيب هذا المنزل يصيبني، فأنا مدينٌ لهما بالكثير من الحب. بيد أنّ قيني جزء منّي، يريبني ما ما يؤذيه.

سألتها في جدية تعمدتُ أن أظهرها:

- أهُناك ما تخفينَهُ عني؟ سأشعر بالسوء في حال حدث ذلك، على حد علمي فأنا جزء من هذا المنزل

بدت في عينيها نظرة تحملُ شيئًا مِن الدموع والحزن، قبل أن تقول:

- حزينةٌ لأجله، فقد بات شخصًا غير الذي ألفتُه تمامًا، لا يبالي بشيء. أشعر أني عاجزة عن توجيهه، بعدما أصبح صعب المراس ولم يعد يستمع لأحد. صار شخصًا غريبًا، متفرغًا تمامًا للتسكع بين أشياء لا تليقُ



بنا، بجانب جلوسه ساعاتٍ كثيرة على مواقع التواصل الاجتماعي، دون عمل شيءٍ مفيدٍ على الإطلاق، بالإضافة لفشله في إتمام عامه الدراسي الأخير

قبل أن تُنهي الأم حديثها، حضر ڤيني ڤرانس، الذي دلف من الباب مُباشرةً وكان وجهُه شاحبًا على غير ما ألفتُه دائِمًا. نهضتْ الأم مُسرعةً على عجلة من أمرها، توجهتْ هاربة في اتجاه غرفة المطبخ مُتحججة بإحضار مشروبٍ آخر غير الذي قدمتْه إليَّ فور حضوري، وكان ذلك بغيةَ إخفاء عينيها المغرورقتين بالدموع.

على الفور، نهضتُ من مقعدي، ودنوتُ من ڤيني. من ثم تبادلنا العناق الحار من جانبي، البارد الباهت من جانبه. ابتعدتُ بالجسد عنه مسافة سنتيمترات مكنتني أن أنظر إلى عينيه، وكنتُ قد اشتقتُ أن أرى فيهما نظرة اشتقتُ إليها، فقد كان ينظر إليَّ وكأني شيءٌ عظيم. نحن نشتاق للعيون التي أمدتنا بالعون كثيرًا، التي وثقتْ فينا مرة تلو مرة وحفزتْنا على الفوز والنجاح. لكنني لم أجد تلك العيون في ڤيني ڤرانس،

وجدتُ عينين باهتتين تبدى فيهما الضعف والفشل وربما الاستسلام.

عادت الأم چيني إلينا، حاملة بين يديها كأسًا أخرى مُمتلئة عن آخرها بعَصيرِ اللَّيْمون. اختطفتُه على عجلٍ من يدها، ثم قلتُ لها مُمازحًا وأنا أرشفُ جرعةً سريعة منه:

- لا وقتَ لدينا، سوف أهرب الآن برفقة ڤيني. لدينا الكثير لنفعله

كانت هذه مقولةً قديمة، إذ كان يرددها كلٌ منَّا أنا و ڤيني ڤرانس لوالدة الآخر في حين أراد أن يظفر به لنفسه ويخرج برفقته بعيدًا عن المنزل. قلتُها في إيماءة مني إلى ڤيني ڤرانس بأني هنا، لم يتبدل أو يتغير شيء.

عدتُ إلى الأريكة التي عليها الحقيبتين، أمسكتُ بإحداهما وقمتُ بمناولتها إلى الأم چيني، وقلتُ لها:

- هذه لكِ، ولو أني أحضرتُ لكِ العالم كله ما كفيتُ



كانت الحقيبة تحتوي على هاتف من طراز iPhone، بالإضافة إلى ساعة رولكس نسائية وبعض الإكسسوارات الأخرى، وكنتُ قد أحضرتُ لها مثل ما أحضرتُه لأدولفين تمامًا. أمَّا الحقيبة الأخرى فكانت أكبر في الحجم قليلًا، حملتُها في كتفي، من ثم أخبرتُ قيني قرانس بنبرة كرتونية مثل التي يستخدمها ممثلو أفلام الأطفال:

- علينا الهرب الآن، على الفور

رد بنبرةٍ هازِئة وحادة وهو يمدّ ذقنه إلى الأمام وقد بدتْ في وجهه تحديقات انتقاديَّة:

- إلى أين؟

علقتُ بنفس النبرة الكرتونية:

- سوف تعرف لاحقًا

ثم بدلتُ نبرتي لأخرى حادة وآمرة وأنا أشير إلى باب المنزل:

- اخرج أمامي، الآن

فردَّ مُتهكمًا بصوت راحتْ نبرتُه ترتفعُ وترتفعُ مع تسارع طريقة نطقه للكلمات:

- أنا لستُ أحد العاملين لديك حتى تأتي من لندن إلى هنا ثم تأمر وتأمر ويجب عليّ التنفيذ دون نقاش. أنا لستُ خادمك

وقد نفد صبري:

- أصبحتَ غبيًا، تتفوه بحديثٍ غير مسؤولٍ على الإطلاق. لو أنّك كما تقول لما كلفتُ نفسي عناء المجيء إلى هنا! لكن .. أنت ڤيني ڤرانس، قطعةٌ مني، رفيقي وصديقي وهويتي، وخياري الدائم بأن تكون الصديق الأول في كل وقت

من ثم أشرتُ إلى الباب مرة أخرى وكررتُ بنفس النبرة الآمرة:

- اخرج، وفورًا



تنقّل بعينيه بيني وبين الأم چيني لثوانٍ قليلة قبل أن يزفر في غضب ويتحرك صوب الباب مُنفِّذًا ما طلبتُه منه. بدوري خرجتُ من خلفه. اجتزنا الأزقة الضيقة والشوارع الخلفية ومن ثم اقتدتُه إلى ملعب روبل بوم، حيث قضينا قديمًا أجمل أيام الطفولة. وسط المدرجات الصغيرة المتهالكة للنادي الصغير، جلسنا وحدنا جنبًا إلى جنب، من ثم سألني بحدة:

- ماذا تريد؟

- أريد ڤيني ڤرانس

ردَّ مُجدّدًا بنبرة مسرحيَّة هازئة ومسيئة، ساخرًا ومتهكمًا:

- لم يعد هناك أحدٌ بهذا الاسم، أنتَ هنا لإشباع غرورك، أو ربما استعراض نجاحك، أو أنك هنا لتلعب دور ذلك الشخص الذي لا يخطيء ويفعل ما عليه دائمًا، أليس كذلك؟



أضحت كلُّ قسمات وجههِ قاسيةً عند كلِّ كلمة نطق بها، ولكنه كان يتحدثُ أيضًا على نحو متردد، كأنَّه يشعر بوقع وقسوة ما يقوله على نفسي، فخفض بصره إلى أسفل، وحدَّق في طاولة خشبيَّة كانت أمامنا.

كان الموقف واحدًا من تلك المواقف التي أعرفها معرفة جيِّدة جدًا، فقد جعلني التنقل بين المدن والناس ومعاشرة الغرباء كثيرًا آلَفُ مثل هذه المواقف، بحيث الاتِّهاماتُ الغاضبة تتطاير ذات اليمين وذات الشمال، وأساسُها الوحيد سوءُ الفهم، وكان هذا واضحًا لي تمامًا، إذْ أن التوتُّر المخيِّم على الأجواء لم يكن عن حقدٍ أو كرهٍ وغل، بل عن محبة وأمل في أن نكون أقرب من ذلك لبعضنا البعض.

دون مقدِّماتٍ أو مبررات، باغتُّه بالقول:

- لكنني أحبك يا صديقي، ولا شيءَ آخر لديَّ لأقوله غير ذلك

- كلامٌ مجرَّد أكثرَ ممَّا يجب



أمعنتُ النظر في وجهه، فبدتْ عيناه مغرورقتين بالدموع على عكس ملامحه القاسية المملوءة بالغضب. فاستأنفتُ كلامي وكأني لم أسمع تعليقه:

- إني لا أتَّفق معك في أيِّ شيء قلتَه، فما دمتَ متعصِّبًا فأنا لا أؤاخذكَ على حديث

ردَّ بصوتٍ راحت نبرتُه ترتفع وترتفع:

- ها نحن نعود من جديد للكلام الفلسفي يا روم. بربك يا رجل احتفظ بفلسفتك الطنَّانة لنفسك، فأنا لم أعد أهتم لمثل هذه الكلمات المُنَمَّقة، ما أردتُك أن تتفهمه دائمًا أني لستُ بخير من دونك

استرسل وقد بدا أنَّه يستذكر شيئًا ما له وقعٌ شديدٌ في نفسه، بنبرة مألوفة وقد ملأت الدموع عينيه:

- يومًا ما، وكنتُ صغيرًا، كان كلُّ شيء هادئًا تمامًا، كُنَّا في كل صباح نحظى أنا وشقيقي الأكبر بمُشاهدة شروقين، شروق الشمس على المدينة، وشروق وَجه أبي على منزلنا. غير أنَّهما في أحد الأيام القاسية،



خرجا سويًا، على أن يفترقا في الطريق، فيذهب أخي إلى المدرسة ووالدي إلى العمل، لكنهما لم يعودا قط، فُقدا في حادث سير أودى بحياتهما سويًا. كنتُ في سن الرابعة، وكان الأمر قاسيًا بشدة، من ثم جئتَ أنتَ وتقاربنا في سن الخامسة، أصبحتَ أنتَ صديقي وأخي الوحيد، وربما في بعض الأحيان أكثر من ذلك. ثم!!

جلبتْ نبرة ڤيني قرانس المألوفة الدموعَ إلى عينيّ، وشعرتُ بأنَّ فمي قد امتلأ بقطع صغيرة ودقيقة من الندم. كانت مخيفةً تلك السرعة التي انساب فيها الماضي المشترك بيننا في رأسي وأمام عيني انسيابَ الألم السائل إلى صمت الحاضر. تريّثتُ للحظات قبل أن أتحدثَ في هدوءٍ تام، وبرويَّة شديدة ونبرةٍ مُتسامحة وقد مُلئتْ عينايَ بالدموع أنا أيضًا:

- أنتَ جاهلٌ وغبي، كيف لك أن تسيء الظن فيَّ إلى هذا الحد؟ كيف لك ألَّا تفهم بأنَّك خياري، وهويَّتي، وأنك الزاوية الوحيدة التي آمَنُ على نفسي فيها؟ وأنك الركن الخاص الذي أستريحُ فيه من مشقات

الحياة؟ أنا لستُ مستاءً من عاداتك أو تصرُّفاتك رغم أنَّها قد أخذتْك إلى هنا، فلماذا تستاء من عاداتي وتصرُّفاتي؟ فكِّر قليلًا: لو أني سلكتُ نفس طريقك، وبقيتُ هنا، ولم أضع نفسي تحت حد السيف وأدفع ثمن النجاح الذي تحدث عنه جاك أنتا ديوب، لما وصلتُ إلى هذا. ما أنا فيه يجب أن يسعدك، ويجب عليك أن تسلك نفس الطريق

رفع ڤيني ڤرانس رأسه ينظر إليَّ دونما أن يعطي ردًّا، فاسترسلتُ في الحديث، وقلتُ بنبرة من عاد للوراء ليتذكر ماضيًا قديمًا:

- يومًا ما، وكنا عائدَين من المدرسة، بينما نمشي في الشوارع الخلفية وقبل أن ندخل إلى الأزقة الضيقة سألني صديقي الوحيد:

- كيف هي أفريقيا؟

قلتُ له:

- إنها الجنة



ردَّ وقد بدت الدهشة في عينيه:

- ماذا يعني ذلك؟

قلتُ له:

- يمكنكَ أن ترى جميع الحيوانات في بيئتها الطبيعية داخل الغابات طوال الوقت، والأمطار غالبًا لا تتوقف، الفاكهة متوفرة في كل مكانٍ في الغابة، حتى إن الحيوانات تأكل من الفاكهة أكثر مما يأكل الإنسان

فعلق مُتمنيًا بحماسٍ شديد:

- أتمنى يومًا ما أن أرى ذلك بعيني، عندما أكبر سوف أحصل على كاميرا و أذهب إلى هناك لأصور كل شيء

في ذلك اليوم، حفظتُ الحديث الذي دار بيننا في أعماق قلبي، أقسمتُ أن أتعامل مع حلمه على أنَّه حلمي، وعزمتُ أن أُساعده في تحقيقه يومًا ما. في يومٍ آخر، سألتْنا المعلمة: حين تكبرون، ماذا تريدون أن تصبحوا؟ أغلب الأولاد قالوا رجال مطافيء .. آخرون



قالوا أطباء .. البعض تمنّوا لو يصبحون رجال شرطة .. أمَّا صديقي الوحيد وكان هو نفسه، قال وهو ينظر إليَّ وقد بدا في عينيه الحماس:

- «أريد أن أمتلك آلة تصوير فوتوغرافي حديثة، كاميرا، وأسافر إلى أفريقيا، كينيا أو الكونغو مثل روم، أريد أن أصور الغابات والحيوانات في بيئتها الأصلية».

أنا الوحيد الذي قلتُ بأني أريد أن أصبح لاعب كرة قدم مشهورًا في أندرلخت. وقد استطعتُ تحقيق ما أردتُه، ليس فقط لأن هذا حلمي الذي تمنيتُه، بل لأنني أبدًا لم أنسَ ما تمناهُ صديقي، ولأن تحقيق هذا الحلم سيتيح لي أن أساعده أيضًا في تحقيق ما يتمناه. ولولا أني وُفقتُ في تحقيق ما حلمتُ بهِ في ذلك اليوم، لما استطعتُ أيضًا أن أحضر هذه الحقيبة.

توقفتُ عن الحديث وأنا أشير إلى الحقيبة التي كانت موضوعة أمامنا على طاولة خشبية. انتقل ڤيني بعينيه بيني وبين الحقيبة مُستغربًا، وقد بدت في

عينيه نظرة ذات مغزى مفادها ما الذي قد تحويه هذه الحقيبة؟. في تلك اللحظة تحديدًا قمتُ بفتح الحقيبة، وأفرغتُ محتوياتها بحرصٍ شديد، وكانت كاميرا D7500 من نوع Nikon وهي أفضل ما تم إنتاجه في عالم الكاميرات مؤخرًا، إلى جانب هاتف iPhone ولاب توب أبل ماك بوك برو «تاتش بار» وهو أيضًا من أحدث أجهزة الحاسوب التي توفرتْ مؤخرًا.

وقد بدت الدهشة في عينيه اللامعتين، قال:

- اللعنة، أنتَ مجنون

بيقينٍ تام، قلتُ:

- بل أعرف قيمتك جيدًا

من ثم أضفتُ بنبرةٍ هادئةٍ:

- الصداقة الحقيقية لا علاقة لها بالمكالمات الطويلة ولا التواصل اليومي واللّقاءات الكثيرة الموضوع أعمق



من ذلك، فالصديق الحقيقي هو الذي ترى نفسك من خلاله، وإن تاهت نفسك منك تجدُها عنده، ولا يطلب منك التعبير عن حبك له ولا شوقك، فهو يدرك أين مكانه في قلبك ويدرك مكانته المختلفة جدًا عن الآخرين. الصديق، هو من يكون إلى جانبك عندما تُخطئ، لأن الجميع سوف يكون إلى جانبك عندما تكون على حق، ودوره أن يكون بجانبك عندما تظن أنك سقطت، لأن الجميع سوف يرحلون عنك في تلك اللحظة، ووحده يبقى.في تلك اللحظة، نهض ڤيني ڤرانس عن مقعده، ثم تعانقنا عناقًا طويلًا، انهالت من عينيه الدموع على أثره وهو يردد :

- آسفٌ لك، آسفٌ بشدة

قلتُ وأنا أنظرُ في عينيه مباشرة :

- لا أرغب في أسفٍ منك، أرغب فقط أن تعود إليَّ وإلى نفسك، أن تفهم أن العزلة التي تُلقي نفسك فيها هي شيءٌ سخيف، عليك أن تعترف أن وجود الرفاق ضرورة من ضرورات الحياة، وأن ادعاءاتك بالتخلي



وحب الوحدة باطلة وليست سوى مساحةٍ نفسيّةٍ سيئة تتوهم التنعّم بها. العزلة الحقيقية يجب أن تكون مُنتجة، ولا تكون لمجرد السخط، لها حقيقتها الخاصة، ونتائجها المبهرة، وهي حالة طارئة، لكن الصحيح أن الحياة لا تُعاش دون الرفاق، وما دون ذلك مجرد طارئ سينتهي مهما طال

ما إنْ انتهيتُ من الحديث، نظر ڤيني ڤرانس في وجهي مُتفحصًا، قبل أن يقول بصوتٍ رتيب:

- روم .. عليك أن تعلم بأنّ الأيام الجميلة والأوقات الطيبة التي قضيتُها برفقتك لا أنساها أبدًا، ولا أنسى أنّك كنتَ سببًا فيها. لقد اخترتُ أن أرافقك وأخسر الجميع منذ البداية، لكنك ابتعدتَ، رحلتَ بعيدًا ولم يبقَ لي أحد. وجدتُ أن قلبي أصبح فارغًا، قلتُ «تخلى عني»، صدقًا كنتُ أشعر بذلك أحيانًا، لكني كنتُ ما بين مصدقٍ ومكذب، أو ربما لم أرد التصديق. لهذا اخترتُ العيش محاطًا بالشك. أنتَ لا تعرف كيف كنتُ أُحدِّث الآخرين عنك، لم أكن أستطيع التوقف أبدًا، كنتُ أصف كل شيء، قوتك، تحركاتك، صوت



ضحكتك وطريقة غضبك وإيماءات يديك، حتى إنَّ أحد أصدقائي الجدد أخبرني بأنه يشعر أنه يعرفك جيدًا بسبب إجادتي لوصف روحك، رغم أنه لم يقابلك ولو لمرة واحدة. ثم فجأة لم يعد باستطاعتي الوصول إليك، لا محادثات، لا مهاتفات، كل شيء توقف. وكان لذلك أثرٌ سيءٌ وصعبٌ للغاية على روحي التي اعتادت وجودك

دون مزيدٍ من الحديث تصافينا تمامًا، ثم ورد إليَّ اتصالٌ هاتفيٌ من أدولفين التي أرادت أن نتناول العشاء سويًا في أول يومٍ أعود فيه إلى أنتويرب، وعندما أخبرتُها أني برفقة ڤيني ڤرانس، أصرت تمامًا أن أصطحبه معي إلى المنزل. حتى إنها طلبتْ أن أعطيه الهاتف لتخبره ذلك بنفسها.

***

لدى وصولنا إلى المنزل، وما إنْ دلفنا من الباب، صُدم كلٌّ منا صدمة لطيفة حين تناهى إلى سمعينا صوت الأم چيني صادرًا من المطبخ وهي تتبادل الضحك



بصوتٍ مرتفع مع الأم أدولقين. إذْ نظر كلّ منا في وجه الآخر نظرة ذات مغزى تفيد بأنهما دائمًا متآمرتان علينا.

تسللنا نحو المطبخ في بطءٍ شديد وحرص، بغية استراق النظر، وكانت الأم چيني تمعن النظر إلى ساعتها الروليكس الجديدة، وقلبُها يخفق خفقانًا شديدًا وهي تنتظرنا بينما أدولقين منهمكة في إعداد بعض أنواع الطعام. لم ينتبها لحضورنا لثوانٍ قليلة إلّا أن صوتًا ما قد صدر من ڤيني ڤرانس، سمعتْه أدولقين فما كان منها إلّا أن اتّجهتْ نحو الباب حاملة أحد أطباق الطعام بين يديها وهي تقول بنبرة مرحة:

- بدلًا من التلصص علينا، اقتربا واحملا معنا بعضًا من هذه الأطباق

تبادل أربعتنا الضحك والمزاح فيما بيننا ونحن نعمل على نقل أطباق الطعام إلى الخارج، من ثم جلس الجميع حول الطاولة وفي نفس اللحظة حضر روجر



وكنا على علمٍ مسبقٍ أنه على وشك الحضور حتى إننا أعددنا له طبق الطعام الذي يحب أن يتناوله.

في وسط السكون المتكاثف الذي لفَّ الغرفة فجأة، شرعتْ أدولفين في الحديث، قالت وهي توجهه للجميع:

- عرفنا بعضنا البعض لما يقرب من العشرين عامًا، تشاركنا أصعب الأوقات وأسوأها. كُنّا دائمًا شركاء بعضنا البعض في تحمل المصائب الكثيرة وأوقات الفرح النادرة. لذا يجب علينا أن نؤمن إيمانًا راسخًا بأن شيئًا ما، مهما كان، لا يمكنه أن يزحزح الثقة فيما بيننا، أو يباعد بيننا

ثم نظرتْ إلى ڤيني ڤرانس، وقالت:

- وددتُ لو أتحدثُ إليك كثيرًا وليس عمّا بينك وبين روم، فهذا شأنٌ خاصّ بكما، أثقُ بأنّكُما ستتراضيان فيه بطريقتكما الخاصة. إنَّما حول ما أصابك مؤخرًا، لن أقول من فشل، بل من عثرة صغيرة وسوف تمر. لذا



سوف أخبرك بعض الأشياء، أريدك ألَّا تنساها أبدًا في حال كنتَ تظن أنك تمر بأوقاتٍ سيئة

ردّ ڤيني، قال :

- كُلّي حماسٌ لذلك

بنبرة حماسية، قالت:

- كل صباحٍ في أفريقيا يستيقظ الغزال وهو يعلم أنَّ عليه الجري أسرع من الأسد وإلَّا فإنهُ سيُقتل. و في كل صباح يستيقظ الأسد وهو يعلم أن عليه الجري أسرع من أبطأ غزال وإلَّا فإنَّهُ سيموت جوعًا. بغض النظر ما إذا كنتَ أسدًا أم غزالًا، من الأفضل لك دائمًا عندما تشرق الشمس أن تكون قد بدأت بالجري.

تذكَّر؛ آرون رالستون كان يهبط داخل شق بلو جون، صخرة سقطت على يده اليمنى، علق وأنتظر لمدة 4 أيَّام، ثم بتر ذراعه بسكين صغيرة من أجل أن ينجو. في ليلة رأس السنة قفزتْ امرأة مغامرة، مربوطة بحبل مطاط في قدميها في نهر زمبابوي، انقطع الحبل



وسقطت في نهرٍ مليء بالتماسيح المتوحشة، اضطرت إلى السباحة وهي مصابة بكسر في عضمة الترقوة فقط من أجل أن تنجو. أوبرا وينفري تم اغتصابها وحملت في سن الثالثة عشر، ثم أصبحت ضمن أقوى 100 امرأة في العالم، ديفيد غوغينز تم الإساءة إليه يومًا بعد يومٍ، طوال ما يقرب من نصف حياته قبل أن يصبح ملك اللا أعذار وأقوى رجل في العالم، ليزا نيكولز كانت على وشك الموت مرارًا، ثم؟ رائدة مجال التطوير في العالم. وإذا سألتَ كل هؤلاء عن شعورهم في تلك اللحظة السيئة التي مروا بها، فسوف يقهقهون من الضحك ويقولون لك: « كان من الممكن للأمر أن يكون أسوأ من ذلك».

لذا حينما يكون يومك مليئًا بالتعاسة بسبب أشياء حدثت خارج إرادتك، حينها تجد نفسك واقعًا في محيط هذا السؤال : لماذا هذا يحدث معي؟ في هذه اللحظة عليك تذكر أن كل سنة يموت مليونا إنسانٍ من الجفاف، لذلك لا يهم إن كان نصف الكأس فارغًا أو ممتلئًا، هناك ماء في الكوب، اشرب الماء وتوقف عن



التذمر وتذكر أنك ستنجو، تذكر دائمًا أن الأمور كان من الممكن أن تكون أسوأ، تذكر أن لا شيءَ يأتينا ويكون أكبر من طاقاتنا، وحينما ينهار مِن حولك العالمُ عليك أن تنظر إلى الحطام ثم فكر كيف تبني مرَّة أخرى بشكلٍ أفضل من الأول مُستفيدًا من قطع الحطام، تذكر دائمًا، أنتَ مازلتَ هنا وقلبك ينبض 4000 آلاف مرة بالساعة، وفي كل نبضة، كل حالة نبض هي جائزة منحوتة بكلمة «أنتَ مازلتَ على قيد الحياة»

توقفت أدولفين عن الحديث، فتدخلت الأم چيني، موجهةً الحديث إليها، قالت:

- هلّا صنعتِ لي معروفًا؟

- تفضَّلي

- أريد إعادة محاضرة النجاة أمام ڤيني ڤرانس

ضحك ڤرانس وقال مازحًا ومُتصنِّعًا نسيانه للمحاضرة:

- ماذا تعنين؟ عن أيِّ محاضرة تتحدثين؟

بيد أن أدولقين قالت في ثقة:

- إنَّهما لا يحتاجان إلى محاضرةٍ عن النجاة، إنَّهما في حاجة لمحاضرة عن الغفران، والحبّ، والمعرفة، وسأكون أنا الأستاذة في هذه المرَّة

تدخل روجر بنبرةٍ مازحة يداعب زوجته:

- إني أول مُصغٍ إليك يا عزيزتي

طال الليل علينا ونحن نتحدث حول الحب وعلاقته بالمغفرة، وكيف أنها أساس الحب، وعن الحبّ وكيف أننا عندما نُغرم ببعضنا البعض، نفعلها بالطريقة الخاطئة، فنحوِّل الشخص الآخر إلى إله، وكم أن هذا الحب خطرٌ، فحين لا يبادلنا الحبَّ نردُّ عليه بالغضب والامتعاض والكراهية.

يقول روجر:

- ثمَّة شيء في الحب يشبه الإيمان، نوع من الثقة العمياء، حيث الشعور بالنشوة وطعم السعادة، سحرُ الارتباط بمخلوقٍ خارج نفوسنا المحدودة والمألوفة. لكن إذا جرفنا الحبُّ أو الإيمان فإنَّه يتحوَّل إلى عقيدة، إلى تعلق، وتتحول العذوبة إلى حموضة، ونعاني بين أيدي الآلهة التي خلقناها بأنفسنا

قالت الأم چيني :

- أؤيد ذلك الرأي، الحب نوعٌ من الإيمان. وأضيف؛ أنَّهُ مقرونٌ بالأمان، بأننا في مأمن من الغدر أو الهجر بكل أنواعه

ثم أضافت بنبرة صوتٍ ارتفعتْ قليلًا عن تلك التي كانت تتحدث بها، وكأن فكرةً ما قد جاءت في عقلها :

- هل سأل أحدكم نفسَه ذات مرة عن سر ازدياد الحنين في الشتاء؟ ولماذا يزداد شعور المرء بالحب في الشتاء؟



تنقلتْ بعينيها بيننا واحدًا تلو الآخر، وكلما نظرتْ في اتجاه أحدنا منتظرة منه أن يعطي إجابة، مط شفتيه ورفع كلتا يديه للإعلى في إشارة منه بأنَّه لا يعلم. فران بيننا صمتٌ استمر ثوانيَ قليلةً قبل أن تسترسل الأم چيني في الحديث، وتقول :

- في الشتاء يَنتاب الإنسانَ الحنين للدِفْء بكل ألوانه، ولا يقتصِر هذا الحَنين على الجسد، بَلْ يتجاوزه إلى الروح، فتشتاقُ هي الأخرى إلى الدِفءِ والاجتماع والقرب. والسبب في ذلك هو شعور الأمَانِ الذي يغمرنا حين نقارن حالة الطقس في الخارج وحالته في الداخل.

كتب القِدّيس دون بوسكو ذات مرة : «حين يكون البيت قويًا تُصبح العاصفة مُمتعة، من حيث الشعور بالأمَان في الداخل مُقارنة بمخاطر الخارج، وبالدِفءِ مُقارنة بالبرد، بالتنوع والحياة داخل المنزل، مُقارنة بالجمود خارجه»، ففي المناطق الثلجية يطغى في الخارج لونٌ واحدٌ جامدٌ وصامت، هو البياض، بينما تتعدد الألوان الدافئة الناعمة داخل المنزل. في الشتاء



يطغى بردٌ قارس في الخارج، بينما يتناول المرء الدفءَ في الداخل، وهذا يُشعر الإنسان بمتعة لا نظير لها.

أيضًا كتب شارل بودلير، وهو شاعرٌ وناقد فني فرنسي، قال: «يحب الحالمون الشتاء القاسي، إنَّهم يتضرعون في كل عام إلى السماء أن تُرسل أقصى ما تستطيع من ثلجٍ وجليد، لأن أعشاشهم تصبح أكثر دفئًا ونعومة».

في حقيقة الأمر، كما قال روجر، الحبُّ إيمانٌ، وهذا الإيمان نابع من الأمان، إنَّ كل شيءٍ في الشتاء أكثر دفئًا وقربًا، فالشتاء موسم الحنين والعودة للذات، موسم الذكريات، نشعر بمتعةٍ لا نظير لها متأملين وهج النار مستمتعين بنفحات الدفء التي ترسلها، يصبح للنار في الشتاء معنى حميمي، وهذا يشمل كل شعلة في حياتنا خاصة تلك التي ظننا أنها خفتتْ للأبد

* * *



في وقتٍ مُبكر من صباح اليوم التالي، كان أبريل قد انتصف، والأجواء أضْحت باردة للغاية في أنتويرب، وقد هبطتْ درجات الحرارة في ذلك اليوم إلى ثلاث درجاتٍ مئوية، رغم أن الجو كان مُشمسًا جزئيًا في الصباح، إلّا أنّ الشمس قد غابت وقت الظهيرة خلف الغيوم الكثيفة ثم بدأ هطول بعض الأمطار. التقيتُ ڤيني ڤرانس أمام محطة القطارات، ثم توجهنا سويًا إلى إحدى المقرات الحكومية، وكان ذلك بغيَة العمل على إنهاء أمر بعض الأوراق التي تلزمه قبل السفر إلى الكونغو الديمقراطية. بعد الانتهاء منها توجهنا إلى البنك لسحب مبلغ من المال، انتوَيتُ مُسبقًا أن أعطيه جزءًا منه يستعين به أثناء رحلته في أفريقيا.

في وقتٍ مُتأخر من اليوم نفسه، بعد أن أسدل الليل ستائره واشتدتْ البرودة، تشاركنا شرب القهوة في مقهى ستاربكس الموجود خلف حديقة حيوان أنتويرب، والذي اعتدنا الجلوس فيه عدة مراتٍ فيما سبق. أثناء تناول القهوة، رغبتُ في استدراجه للتحدث عن أفضل ما يمكنه فعله في أفريقيا، وكان



ذلك عن طريق إلقاء بعض الأسئلة ذات طبيعة إخبارية بمميزات الأماكن، وسألتُه إن كان لديه خطط مُسبقة للرحلة أو لا، كنتُ أسأله وقد خيِّل لي أنَّه ذاهبٌ إلى هناك من أجل السياحة ومشاهدة أفريقيا على طبيعتها، بيد أنَّه فاجأني بتصريحه:

- أنا بصدد إنشاء قناة على اليوتيوب، عازم على عمل بث مباشر للحيوانات من أفريقيا عليها

راقتني الفكرة، فالكثير من البلجيكيين على الرغم مِن أنَّ دولتهم كانت دولة مستعمِرة للكونغو إلَّا أنَّهم لا يعرفون عنها إلَّا القليل، بجانب أن قناةً على اليوتيوب تعني أنَّ الأمر لن يكون مُقتصرًا على البلجيكيين، إنَّما أوروبا بأكملها إنْ لم يكن العالم كله. في تلك اللحظة أشرتُ إليه بضرورة زيارة بعض الأماكن النائية، كما حرصتُ كلَّ الحرص على إخباره بضرورة الابتعاد عن الأماكن التي تقع فيها اشتباكات مسلحة أو خلافات بين ميلشيات عسكرية. أخبرتُه أيضًا بضرورة الحصول على ملابسَ جلدية وأحذية تتناسب مع البيئة هناك،

حيث الأمطار دائمة السقوط والغابات والأماكن من حولها تعد وعرة للغاية.

* * *

هذه أفريقيا

كينشاسا - أبريل 2018م

هبط من الطائرة متأبِّطًا بعض الكتب التي أعطتها له أدولفين قبيل السفر، واضعًا فوق أذنيهِ سماعات الموسيقى المتصلة بهاتفه المحمول، معلِّقًا في رقبته الكاميرا الخاصة به، حاملًا على ظهره حقيبة رحلات متوسطة الحجم تَحتوي على بعض الملابس وأشياء أخرى رأى أنها تلزمه في رحلته.

لدى خروجه من المطار متوجهًا إلى الفندق، بدت له كينشاسا من الوهلة الأولى كمدينةٍ ساحرة كبيرة، وقرأ في الطيارة أنَّها تقع في الجزء الغربي من البلاد، تحديدًا على الضفة الجنوبية لنهر الكونغو.

في أنتويرب، قبل أن يسافر بأيّام، أعطيناه الكثير من النصائح حول كيفية البقاء في أمانٍ وسلام طوال الوقت، وكان ذلك عن طريق وضع عدة قواعد مختلفة عليه اتباعها. كان أبرز هذه القواعد إعدادَ حقيبته



جيدًا، بحصوله على ملابس جلدية وأحذية تتناسب مع طبيعة البيئة القاسية من حيث المطر والغابات والأرض الطينية الزلقة، إلى جانب اهتمامه باتباع القاعدة الأولى للسلامة في أفريقيا، وهي الحصول على مرشدٍ محليّ يرافقه طوال الوقت خاصة أوقات دخول الغابات. وعلى الرغم من تأكيدنا عليه بألّا يخالف تلك القواعد إلّا أنَّه اعتاد في أسبوعه الأول بكينشاسا أن يخرج وحيدًا عند كلِّ غسق للتنزُّه مُخالفًا بذلك القاعدة الأولى للسلامة، فيسير بين خمسة وسبعة أميالٍ مقتفيًا أثر دروبٍ ومنحدراتٍ تاريخيَّة تمرُّ وسط غابات قديمة، وفوق مزارع متموِّجة لكنها عامرة بالسكان كما أنَّها آمنة. كان ذلك خطأ فادحًا لكنه كان يسعد كثيرًا بما يراه من سعادة بادية في أوجه السكان السود بوجود رجلٍ أوروبيّ أبيض فيما بينهم، فالبيض قليلون جدًا هناك. لم يكن قد استقرَّ بعد على وجهتِه التي يريد أن يسلكها، وفكَّر في أنَّ صفاء الذهن يحلُّ على المرء في الهواء الطلق، وقد يساعده ذلك على تحديد وجهتِه بعناية. تحدثنا هاتفيًا لعدة مرات،



كما أنَّه أرسل إليَّ بعضًا من الصور ومقاطع الفيديو القصيرة التي سجلها.

في يومه العاشر، آخرَ النهار وقُبيل احمرار الشَّمْس، غادر الفندق مُرتديًا قميصًا قصيرَ الكُمَّين، وبنطالًا قطنيًا رياضيًا من ماركة أديداس، وقد خالف بذلك القاعدة الثانية للسلامة، إذ ارتدى ملابس قصيرة الأكمام وهو عازم على دخول الغابة، مما يتيح لأغصان الأشجار إيذاءه بجانب إمكانية لسعه من قبل بعض الحشرات أو الثعابين، لكنه انتعل حِذاءً رياضيًا مُناسبًا للأمطار، وكان هذا الشيء الجيد الوحيد الذي فعله في ذلك اليوم. توجه صوب الغابة مرةً أخرى بغرض تصوير الغروب من بين الأشجار. وفي هذا اليوم، تجرأ وقررَ الاقتراب من واحدة من أخطر الغابات المطيرة، وهي غابة كثيفة الأشجار حتى إنَّها تبقى مُظلمة نهارًا في بعض الأماكن. قام بالتقاط مجموعة من الصور لتجمعات الحيوانات الضارية وبعضٍ من القردة والزواحف العملاقة.

في يومه الحادي عشر، أعاد الكَرَّة، لكنه تجرأ أكثر ودلف إلى أعماق الغابة وأدغالها. كانت الأجواء دافئة، على الرغم من ذلك انصَبَّ المطرُ بِغزارةٍ، وبينما يقوم بتصوير واحدة من تجمعات الحيوانات وهي تهرب بين الأشجار من شدة المطر، لفتَ انتباهَه صياح مجموعةٍ من القردة كلما اشتدتْ زخَّات المطر، وفهم من ذلك أن هذا احتفالٌ منهم بما يحدث. بحث عن مصدر الصوت، واتَّبَعه. بعد ثوانٍ قليلة اكتشف أنَّه يقف أمام فصيل من قردة بونوبو والتي تحمل الاسم العلمي «بانيسكيس»، وهو فصيلُ قردةٍ من الحجم الكبير وكان يعلم مُسبقًا أن هذا الحيوان انقرض في جميع مناطق العالم باستثناء الغابات الكونغولية، إلَّا أنَّه لم يكن يحلم باكتشافها بنفسه وتصويرها، حيث يعد هذا اكتشافًا علميًا كبيرًا، كما أنَّه قد يساعده في الترويج لقناته على اليوتيوب، وقد يحصل على مُكافأة كبيرة من جمعيات أصدقاء الحيوانات، وأيضًا من القنوات المهتمَّة بهذه الأشياء مثلِ ديسكفري وناشيونال جيوغرافيك.

بينما كان منهمكًا في تسجيل وتدوين كل تحركات هذا الفصيل النادر، دوى صوتُ صراخٍ من مكانٍ قريب، أو خيِّل له ذلك، كان عليه في تلك اللحظة اتباع أول وأهم القواعد الخاصة بالسلامة في مثل تلك الأماكن العميقة في الغابة المطيرة؛ وهي التوجه فورًا إلى خارج الغابة. لكنه عِوَضًا عن ذلك تسلل باتجاه مصدر الصوت، وعندما تكرر دويه مُجدَّدًا ميّز أنَّه صوت امرأة. ظن أنَّها قد تكون بحاجة إلى مساعدتِه، فهرول وسط الأدغال من بين الأشجار الكثيفة تحت زخات الأمطار غير آبِهٍ بما تُسببه له غصون الأشجار من خدوش في ذراعيه العاريين ورقبته ووجهه نتيجة هرولته مُندفعًا بينها، وما قد ينتظره من مخاطر، استطاع أن يشق طريقه بصعوبة وهو يحمل حقيبتَه الثقيلة على ظهره، إلى أن سقط سقطة قوية على منحدرٍ مليءٍ بالصخور وفروع الأشجار، لكنَّ هذا لم يثنِه عمَّا يفعله، فنهض من فوره وأكمل هرولته رغم أن بنطاله عند الفخذين قد قُطع وبدا أنَّه قد أصيب.



وصلَ إلى حافة الغابة، وكانت تطل على ساحة شاسعة مليئة بحشائش السافانا بلونها الأصفر المائل إلى البني، كانت الساحة منخفضةً عن موقعه وخاليةً من الأشجار، لكنها مُحاطة بها من ثلاثة جوانب، وكان المكان نفسه هو مصدر الصوت. على بعد مائة ياردة ومن بين لفيفٍ من أشجار التوليب الأفريقي وقف يراقب الأمر، فرأى خمسةً من النسوة متفاوتات الأعمار، قدَّر عمر أصغرهن بما يقرب العشرين عامًا، بينما قدَّر لأكبرهن أنَّها قد تكون في منتصف الأربعين. كان يراهُنَّ بوضوحٍ تام حتى إنَّه استطاع رؤية ملامح وجوههن الخائفة وقد اعترتهن حالة من الفزع الشديد مع الدموع الواضحة على وجوههن. بيد أنَّه رأى أيضًا مجموعة من الرجال، يرتدون الزِّيَّ المُمَوَّهَ والقبعات البنفسجية، يقفون أمامهن مباشرةً بالقرب من سيارة ذات دفعٍ رباعي. كان أغلبهم خارج السيارة، وقدَّر عددهم بما يقرب من عشرة رجالٍ جميعهم مسلحون.

لم تكن لديه الشجاعةُ والجرأةُ على التدخل، ففضل المشاهدة عن بُعد دونما فعل شيء، وكان هذا أفضل



ما فعله ذلك اليوم، فأحيانًا كثيرة يكون أفضلُ ما تفعله ألَّا تفعل شيئًا. بعد لحظات وجه أحد الرجال وكان جالسًا داخل السيارة ذات الدفع الرباعي أمرًا للنساء الخمس بخلع ملابسهن. وعندما تباطأتْ النساء صرخ أحد المعاونين لهذا الرجل والذي كان يصوب سلاحه في وجه النسوة، قال :

- انزعي الكل وبسرعة

تحدث رجلٌ آخر بلهجة حادة وحاسمة، قال بصوت هادر:

- افعلنَ ما نأمركن به ولن نلحق الأذى بأيٍ منكن

غير أنَّه لم يكن غاضبًا ولا مستاءً من تأخرهن، بل كان باردًا ومتجرِّدًا، وأضاف وهو يلوح بالسلاح في يده :

- الخيارُ خياركن

دون ترددٍ نفَّذت النسوة ما طلب منهن وقد تعالى صوت بكائهن، في تلك اللحظة كان ڤيني ڤرانس قد



بدأ يصوِّر ما يحدث وهو يشعر بموجاتٍ من الغضب تجتاحه من الداخل، لكنه أضعف من أن يفعل لهن شيئًا. بعد أن خلعت النساء الخمس ملابسهن بالكامل خُيِّل لڤرانس أنَّهن قد يُغتصبن في تلك اللحظة، لكنّه فوجئ بالرجل داخل السيارة يأمرهن بمغادرة المكان عرايا وحدد لهن أن يفعلوا ذلك جريًا، ووَجَّهَهُن نحو ممرٍ مليءٍ بالحشائش الشائكة، والتي من شأنها أن تمزق أجسادهُن العارية وهن يعبُرن منها. في تلك اللحظة، إنتبه ڤرانس أن أحد فخذيهِ ينزف، وأنَّ بقعةً من الدم بدت ظاهرة في بنطاله، وشعر أنَّه يرتعش خوفًا وقلقًا، وقلبُه يدقّ دقَّاتٍ عنيفةً داخل قفصه الصدريّ، ولم يعرف هل ينبغي له الهروبُ أو أن يستمر في الاختباء. وبينما تعالتْ صرخات النسوة وهن يعانين أثناء الجري كان بعض الجنود يقهقهون ضحكًا بينما البعض الآخر منهم بدأ يتجول في المكان.

خشي أن يراه أحد الجنود الذين يتجولون في المكان، فقرر أن يهرب، وما إنْ تهيأ للجري، فوجئ بظلٍّ أسود قد خيَّم عليهِ فحجب عنه الضوء من الخلف، وقبل أن



يتحرك هبطتْ يدٌ سوداءُ عملاقةٌ أمام وجهه ،كَمَّمَتْ أنفاسُه. في اللحظة التي تفشى فيها الفزع في أرجاء روحِه ظهرتْ أمامَه فتاةٌ بيضاء، ميّز بسرعة أنها في بداية الثلاثينيات من عمرها، رقيقة الملامح، شقراء، لها عَينانِ خضراوتان، تمتلك ملامحَ أوروبية جميلة، ذات جسدٍ ريَّان، ترتدي سترة جلدية طويلة الأكمَام، وبنطالًا من الجينز المطاطي، وحذاءً رياضيًا مخصصًا للأمطار والأرض الطينية، وأيضًا قبعةً جلدية تُغطي شعرها الذي يخرج منها على شكل ذيل حصان. كانت جميلة لدرجة تجعلك تعتقد فور رؤيتها بأنَّ ثمّة مصنع حلوى في داخلها.

نظرتْ في عينيهِ نظرةً مُباشرةً وقد كان القلق باديًا في ملامحها، لكنها أرادت أن تُطمئنه، فقالت :

- اصمتْ تمامًا

ظنَّ ڤرانس أن اليد العملاقة التي تكممه هي يدها، كان الخوف مستحوذًا علي روحه حتى إنَّه فقد القدرة على التركيز، لكنها كانت أمامه مباشرة، تتكأ بيسراها على



جذع الشجرة الذي يختبيءُ خلفها بينما تضعُ سبابة يمناها بين شفتيها. وفي تلك اللحظة أضافت :

- سوف يرفع إحسان يده عنك، شريطة ألّا تُصدرَ صوتًا مهما حدث، وإلّا ستُصبح جميعًا في خطر

رفع إحسان يده ببطءٍ وحذر، ثم تحرك للأمام، فظهر بكامل هيئتِه أمام ڤرانس. كان رجلًا قوي البنية، ذا بشرةٍ سوداء ولحية قصيرة أسفل الذقن، في الأربعينات من عمره.

ظلَّ ثلاثتهم قابعين مكانهم خلف الأشجار، متوارين عن الأنظار، دون حراكٍ في خوفٍ وقلقٍ وترقب لما يقرب من عشر دقائق كاملة اقترب خلالها أحدُ أعوان الرجل الذي في السيارة من مكان وجودهم ثلاث مرات متتالية، كان يمرُّ على بعد أمتار قليلة ذهابًا وإيابًا. عند اقترابه في المرة الثالثة، استَلَّ إحسان سكينًا كبيرة وقد بدا متحفزًا لمهاجمته، إلّا أنَّ الفتاة التي تجمّدتْ في مكانها مضمومة الساقين، وكانت يداها ترتعشان كأنّهما تمتلكان عقلًا خاصًا بهما، أشارت

له بالتريُّث. بعد دقائق قليلة ابتعد الخطر عندما تجمع المسلحون وركبوا سيارة الدفع الرباعي وانطلقوا مبتعدين عن المكان، فتسلل إحسان للأمام على يديه وقدميه كما تفعل القردة، وقال:

- اتبعوني بحذر

مُستغرِبًا نظر ڤرانس إلى الفتاة ثم نظر من خلف الشجرة باتجاه الممر الذي سلكتْه النسوة، وكان صوت صراخهن وأنينهن مايزال يصدح في أذنيهِ على الرغم من هروبهن بعيدًا، وكانت نظرةٌ، ذات مغزى وسؤالٍ في نفس الوقت، قد ظهرتْ في ملامحه، تعني هل سنتركهن؟ أو ما هو مصيرهن؟

في اللحظة نفسها، همست الفتاة وهي تنظر للجروح النازفة في كلتا ذراعَيه وبقعة الدماء على فخذيهِ، قالت :

- لا تخف، سوف يصبحن في أمان. الآن علينا نحنُ أيضًا أن نتوجه إلى مكان نصبحُ فيه بأمان ونتمكن



فيه من مداواة تلك الإصابات

عبر طرقٍ متعرجة ودروب مُنحدرة وسط الأشجار الكثيفة سار ثلاثتهم ما يقرب من ثلاثةٍ أميال، قبل أن يخبرهم إحسان أنَّهم أصبحوا في أمان بعيدًا عن الخطر، لكن مايزال عليهم الخروج من الغابة المطيرة قبل أن يسود الظلام الحالك، لأن الغابة تصبح موحشةً متوحشةً بشدة في الليل، لذا فسوف يكملون المسير لما يقرب من ثلاثة أميال أخرى.

* * *

بعد أن هدَّهم التعب والجوع، دلفوا إلى واحدٍ من المقاهي الشعبيّة في شارع جانبي بأطراف المدينة، جلسوا فيهِ آملين الحصول على جزء من الراحة. لم تكن ثمَّة فرصة للتعارف على بعضهم البعض، كما أن ڤرانس كان مأخوذًا ولم يُبدِ اهتمامًا بالتعارف بقدر اهتمامه بالحصول على إجاباتٍ بخصوص ما حدث داخل الغابة. نظرت الفتاة مُتفحصةً في وجهِ قبل أن تنتقل بعينيها نحو بقعة الدماء على فخذيه. كانت



هادئة تمامًا غيرَ مكترثة، حتى إنّها بدتْ له كأفريقيةٍ كونغولية مُعتادة على ما يحدث، لا شيء غريبًا يريبها، ولولا أنّها بيضاء تتحدث الإنجليزية بطلاقة شديدة لما صدَّق أنّها أوروبية، في حين أنّ إحسان كان يتطلع في وجهِه بحدة وكأنَّه يتساءل ما الذي كان يفعله هذا الإنجليزي وحده داخل باطن الغابة.

في تلك اللحظة، فتحت الفتاة حقيبتها، أخرجتْ زجاجة دواء مُطهِّر وكيسَ قطنٍ ولفّة شاش، ثم شرعتْ في تطهير الخدوش في كلتا يديّ ورقبة ڤيني ڤرانس الذي ترك نفسه بين يديها. تلا ذلك أنَّها أومأتْ إليه دون حديث تطلب منه أن يكشف عن الجرح في فخذيهِ من أجل تطهيره هو الآخر. لم يعطِ أيَّ ردة فعل على ما تفعله الفتاة غير أنَّه بادلها نظرة امتنانٍ وابتسامةً ودودةً ظهرتْ بوضوح في ملامحه كلما وقعتْ عيناه في عينيها، وما إنْ انتهتْ من تطهير جرحه، سألها مُستفهمًا:

- مَنْ هؤلاء الرجال؟ جنود؟ مافيا منظَّمة؟ لصوصٌ عاديون؟ أم إرهابيُّون؟ والعاصمة، هل هي مدينة



يحتشد فيها مثل هؤلاء؟ أم أنَّهم يسعون وراء المال؟

كانت الفتاة في تلك اللحظة قد شرعت تتفحص بطَّاريَّة هاتفها الجوَّال، والذي بدا للوهلة الأولى أنَّه بدائيٌ إلَّا أنَّه لم يكن كذلك أبدًا، بل هاتفًا من ذلك النوع المتصل دائمًا بالأقمار الصناعية والمُعد خصيصًا للاستخدام في الأماكن النائية والظروف القاسية. عند فحصها بطارية الهاتف وجدث أنها كافية للعمل خمس عشرة دقيقة أخرى أو أقل من ذلك، وكان الليل قد خيَّم على المكان، فاتصلث بشخصٍ ما، أخبرتْه أنَّهما ينتظرانه في المكان المُتفق عليه مُسبقًا، وأنَّ الهاتف فرغت بطاريته والهاتف الآخر الذي تتحدث منه على وشك أن تنتهي طاقته هو ايضًا. فهم ڤرانس من الحديث الذي دار بينها وبين من تُحدثُه أنه آتٍ إليها. بعد انتهائها من المكالمة طلبث من إحسان أن يجد لها وسيلة تمكنها من شحن هواتفها ولو قليلًا، وكان ذلك قبل أن تنتقل ببصرها إلي ڤيني ڤرانس مُجدَّدًا، واعتذرتْ له لأنَّها لم تُجِب على السؤال، ثم قالت :



- إنَّهم يرتدون زيَّ الحرس الجمهوري، لكنهم ليسوا كذلك. فهُم من الميلشيات المسلحة، يأتون إلى هنا ويفعلون ذلك بغرض الإيقاع بين السكان وقوات الحرس الجمهوري التابعة للجيش.

- والنسوة؟ لماذا يدخلن أعماق الغابة؟

- هذا المكان يسمى باطن الغابة المطيرة، وهو غنيٌّ بالأعشاب النادرة التي تستخدم في صناعة الدواء والتراكيب العلاجية. هؤلاء النسوة يأتون إلى هنا بغرض جمع بعضٍ من هذه الأعشاب، لكن سوء حظهم أوقعهم في طريق هؤلاء المسلحين. هم لا يريدون قتلهم أو إذلالهم، هم فقط يرغبون فيما أخبرتُك به، الإيقاع بين المواطنين والقوات الموالية للنظام

تدخل إحسان وكان صوته مُفعمًا بالتحمُّس الذي لم يتمكن من احتوائه، قال:

- أنقذناك، لو أنَّنا لم نحضر في الوقت المناسب، ولو أن شاجي لم تركك، لشعروا بك، وما استطعتَ منهم فرارًا



وانتهى بك الأمر معلقًا وسط الغابة

لم يعطِ ڤرانس انتباهًا لحديث إحسان، في الوقت الذي ابتسم فيه ببلاهة لا يعرف مصدرها، وردد من بعده:

- شاجي

انتبهتْ الفتاة التي كانت تنظر بعيدًا، وأجابت :

- نعم

في خجل علق ڤرانس:

- لا شيء، لا شيء

سألته مُستغربةً :

- من أين أنتَ؟ وماذا تفعل هنا؟ وأيَّ جهة تتبع؟

- أنترويب، بلجيكا. اسمي ڤيني ڤرانس، ولا أتبع أيَّ جهة، أنا هنا لتصوير الغابات والحيوانات في بيئتها



الطبيعية

سألته باستغرابٍ مرة أخري :

- من دون مرشدٍ محلي؟!

وأجاب :

- نعم. أو في الحقيقة هذه أول مرة أحضر فيها إلى هنا، رغم أن صديقي قد أكد عليَّ ناصحًا بضرورة مرافقة مرشد محلي من الوهلة الأولى التي تطء فيها قدمايَ أرض الكونغو. لكني لم أفكر في الأمر بعد، لقد وصلتُ إلى هنا قبل أسبوعين فقط

تدخل إحسان وهو يتفحص بنية ڤيني ڤرانس الجسدية وملابسه القطنية وكتفيه العاريين، وقد إستبدّت في عينية نظراتٌ ساخرةٌ، قال :

- أكمل في دخول الغابة المطيرة هكذا، ومن دون مرشد محلي، وأضمن لك أنك لن تعيش لأسبوعين آخرين



تساءلتْ شاجي بصوتٍ ارتفعتْ نبرتُه قليلًا وبدا فيهِ تهكم :

- كان باستطاعتك التوجُه إلى البرازيل أو أستراليا والبدء من مكانٍ آمن عن هنا. ما الذي يجعلك تضع نفسك في مثل هذه البيئة الخطرة؟

قبل أن يُجيب على سؤال شاجي حضر الرجل المنتظر حضوره. وكان طويل القامة عريض المنكبين، وقد لف كوفية حول رقبته، ومُرتديًا ملابس تشبه تلك التي يرتديها العرب في بلاد الخليج، كما أنَّ له ملامح تشبه كثيرًا للعرب.

قالت شاجي التي وقفتْ تستقبله وقد اعترتْها حالة ارتياح بدت ظاهرة في ملامحها وهي تستقبله:

- تأخرتَ يا عابد

أجاب وهو يضع حقيبتَه على أحد المقاعد القريبة :

- لم يكن يومًا سهلًا. وأنتما.. كيف كان يومكما؟



تدخل إحسان، وقال ضاحكًا :

- ياله من نهارٍ عصيب، طاردنا تورًا، ثم وقعنا في طريق أُناسٍ يطاردون بعض السكان المحليين من أجل إيذائهم، ولم أشعر بمثل هذا الإعياء منذ ولادتي

أمّا شاجي والتي كانت تملأ زجاجة خاصة بها بالماء، فعلقث :

- دعك من حديث إحسان، إنّه فقط يحب تهويل الأمور. أخبرني هل أنتَ جاهز للرحلة؟

- لماذا؟ هل تنوين القيام بها أثناء الليل؟

- ولم لا؟

ردّ عابد مازحًا :

- آهٍ، أيتها النحلة الطنّانة، لابد لنا من الراحة، فالطريق طويلٌ للغاية.

تسائلت شاجي وهي تنظر إلى إحسان :



- وإلى أيّ مكان سنتوجه؟

قبل أن يجيب إحسان، ردّ عابد :

- لديَّ صديق عربي، مصور من مصر، مُقيم في مدينة بانكانا، على بعد ساعتين ونصف من موقعنا الحالي، يملك مخيَّمًا خاصًا بالمغتربين، وقد تواصلتُ معه بالفعل أثناء المجيء إلى هنا، وأكد لي أنَّه بالانتظار

في هذه اللحظة، التفتث مباشرةً إلى إحسان وقامت بتوديعه وشكره على مساعداته لها، بينما نظرتْ إلي ڤرانس وهي تقول :

- وأنتَ يا صديقي البلجيكي. ڤرانس أليس كذلك؟

- نعم نعم

- كُن حذرًا، هذه أفريقيا، لا مجال للتهاون هنا

قال مُتلعثمًا في تردد :



- شكرًا على كل شيء. لكن، هل في الإمكان أن أذهبَ معكُما؟

نظرت إليهِ نظرةً فاحصة للحظةٍ قصيرة، ثم هزَّت رأسها بالنفي وهي تقول :

- كم أود ذلك، فنحن متجهان نحو أكثر أماكن العالم استحقاقًا للتصوير، إلَّا أنَّه مكانٌ ذو طبيعة قاسية، ويعد من أخطر الأماكن في العالم. لذا أنا آسفة، لا يمكنني تحمُّل نتيجة اصطحابك معنا

ردَّ فرانس مُعلِّقًا على الجزء الأول من حديثها وقد لمعت عيناه :

- إذًا.. هذه فرصة رائعة للتصوير

علّق عابد في جديّة :

- الأمر ليس بتلك السهولة التي تتوقعها، المكان حقًا خطر جدًا



قال ڤرانس :

- أنتُما ذاهبان إلى هناك، إذًا أنا أيضًا باستطاعتي الذهاب. وأعدكما، لن أكون حملًا ثقيلًا عليكما. أو أخبراني عن المكان وسوف أذهب إليه وحدي من دون أن أزعجكما

ابتسم عابد وشاجي ونظرا إلي بعضهما البعض نظرة ذات مغزي تُفيد بأنه لا مفر من اصطحابه بما أنَّه يصر على ذلك. وفي تلك اللحظة نفسها، نهضا سويًا من مقعديهما، وحمل كلٌ منهما حقيبته فوق ظهره، ثم ودَّعا إحسان وتحركا باتجاه الخارج أمام ڤيني ڤرانس الذي اتبعهما هو الآخر مهرولًا من خلفهما وهو يقوم بحمل حقيبتِه وتعديل وضعها على ظهره.

توجه ثلاثتهم إلى موقفٍ للحافلات بغرض ركوب أتوبيس لنقل الرُّكَّاب من كينشاسا إلى بانكانا مُباشرة. أثناء الطريق تأفَّف ڤرانس من الحافلة، كانت المطبَّات والأرض غير المستوية تؤرقه طوال الوقت، غير أنّ الحافلة ذاتها مُتهالكة نتيجة أنّها من الطراز القديم



للغاية، قد تكون مُصنعة قبل عقدين أو ثلاثة من الزمان. تساءل في حنق:

- ألم يكن في الإمكان استقلال وسيلة أخرى غير هذه؟ مثلًا تاكسي؟

علّق عابد:

- المواصلات هُنا مُكلفةٌ جدًا، الرحلة بالتاكسي من العاصمة إلى بانكانا تُكلِّفك ما يقرب من 150 دولارًا، في حين أنّها عبر المواصلات العامة تكلف عشرة دولارات فقط. كان في الإمكان أن ننزل في أحد فنادق العاصمة، لكنها أيضًا مُكلفة للغاية، لذا فضلنا التوجه إلى المخيم

أضافت شاجي التي كانت تُغطي رأسها بسترة أخرجتْها من حقيبتها ودون أن تكشف وجهها:

- قبل مجيئك أفريقيا، لابد من التفكير جيدًا ووضع خطة حول طريقة التنقل بين المدن والقرى، ومكان الإقامة، فهذه الأشياء هنا مكلفة للغاية على عكس ما



يُشاع عنها. كما يجب عليك الاحتياط دائمًا وعدم إظهار مبالغ كبيرة من المال أمام العامة، بجانب دراسة طبيعة أيّ مكان تتوجه إليه قبل أن تتحرك باتجاهِه

بعد ثلاث ساعات، توقفت الحافلة في بانكانا، ونزل جميع الركاب. كانت الأمطار تتساقط لكنها قليلة مقارنة بما كانت عليه في كينشاسا، في تلك اللحظة، قال عابد وهو يشير بيده في اتجاهٍ ما :

- الآن سوف نمشي ما يقرب من ثلاثة كيلومترات في هذا الاتجاه عبر الوادي من أجل الوصول إلى المخيم

كان منتصف الليل قد اقترب، والوادي الذي أشار إليه عابد مليئًا بحشائش السافانا وشديد الظلام إلَّا أنَّ الساحات الخالية من الأشجار بدت مُضيئَةً بنورِ القمرِ. كان فرانس يشعر بالألم والإرهاق الشديد جراء يومه الشاق والمضطرب بجانب الخُدُوش في ذراعيهِ ووجهه والإصابة في فخذيه، وكاد أن يسقط على الأرض مغشيًّا عليه وهو يردد خلف عابد غير مصدقًا ما سمعه :



- ثلاثة .. كيلو .. مترااااااات

شعر عابد بتراخي همّة ڤرانس من نبرة صوته، فأراد أن يرفع منها ويحمسه، فقال وقد شرع في المشي إلى الأمام مُمسكًا كشافًا يضيء له الطريق ومن دون أن يلتفتَ للخلف :

- إنَّنا متوجهون نحو المكان الأخطر على الإطلاق في أفريقيا، بحيرة كيڤو، إحدى البحيرات الأفريقية العظمى وثالث بحيرات العالم انفجارًا، تصب في نهر روزيزي الذي يجري تجاه الجنوب ليصب بدوره في بحيرة تانجانيقا، ولك أن تتخيَّل أن السكان المحليين يطلقون عليها اسم بحيرة الموت، وهي تقع بين جمهوريتي الكونغو ورواندا، وتُعد ضمن أعمق بحيرات العالم، ويحيط بها عددٌ من الجبال الضخمة. ترتكز البحيرة على وادٍ متصدع ويوجد في أعماقها 2.3 تريليون قدم مكعبة من غاز الميثان مع ستين ميلًا مكعبًا من ثاني أكسيد الكربون



أضافت شاجي التي كانت تمشي خلف عابد مباشرة في الوسط بينه وبين ڤيني ڤرانس :

- هذه الكميات الهائلة من الغازات حال انفجارها ستتسبب في مقتل مليوني أفريقي على الأقل من الذين يعيشون بالقرب منها. وتعرض بالفعل 1700 شخص للموت بفعل التعرض للغازات السامة التي تنطلق بفعل الأنشطة البركانية في أعماق البحيرة، وبالرغم من مخاوف السكان إزاء هذه الغازات السامة، فهي تعتبر مصدرًا هائلًا وحيويًا للطاقة، بيد أنَّها غنيَّة جدًا بالأسماك، وتحيط بها أماكن رائعة للغاية حتى إنَّها تشبه الجنة

بنبرة مسرحية ساخرة، قال ڤرانس :

- اللعنة

قهقه عابد بصوتٍ مرتفع، ومن خلفه أطلقتْ شاجي ضحكة عالية الصوت لكنها عذبة للغاية، وفي اللحظة عينها لم يمتلك ڤرانس إلَّا أن يضحك هو الآخر، لكنه



تعثر في فرع شجرة فقُطعتْ ضحكتُه وسقط أرضًا، مُحدثًا جلبة إثر سقوطه. التفتتْ شاجي على الفور، وعادت من أجل مساعدته، فوجدتْه بخير، لكنها لم تستطع كتم ضحكة بدت في ملامحها، فضحكت مُجدَّدًا بصوتٍ مرتفع. في حين نظر عابد للخلف ليطمئن عليهما، ووجدهما بخير فأكمل في مشيه للأمام، بينما مدت شاجي يدها تُساعد ڤرانس على النهوض وهي تقول :

- آسفة، كان ينبغي عليَّ تحذيرك

وما إن قبض ڤرانس بكفه على كفها أخبرها بجديَّة :

- تضحكين بطريقة، تجعل من العالم مكانًا أقل بؤسًا

ردَّت شاجي مُكررةً بنبرة ساخرة لكنها خجولة :

-شُكرًا شُكرًا

يقول ڤرانس : لم تكن شاجي امرأةً عادية، كانت ابتسامتها سر قوتها، ولا تبدو كشخص يمكنه أن يؤذي



أحدًا، لكنها استطاعت أن تؤذي قلبي في لحظةٍ واحدة، من النظرة الأولى، وعلى الرغم من محاولاتها الدائمة أن تُظهر نفسها في دور امرأة قوية وحادة، إلَّا أن ثمَّة لطفًا شديدًا كان يخرج منها عند كل ردَّة فعلٍ على أيِّ موقفٍ يحدث.

قُبيل منتصف الليل بوقتٍ قصير، استطاع ثلاثتهم أخيرًا رؤية أضواء المخيّم المنبعثة من القناديل المعلقة على أعمدةٍ خشبية مزروعة حول المخيم. عند اقترابهم قليلًا استقبلهم المصور المصري صاحب المكان عند تلَّةٍ مُرتفعة، وكان شابًا بشوشَ الملامح في بداية الثلاثينات من عمره، ذا لحية خفيفة وعينين حادتين تنم عن ذكائه، وله جسد قوي البنيَة. كان قد وقف فوق التلّة يترقب وصولهم بعد أن استبد به القلق عليهم وخشيَ أن مكروهًا أصابهم.

كان الإرهاق باديًا تمامًا في ملامحهم والأعياء قد استبد بهم، فأخذهم مُباشرةً إلى داخل المُخيَّم، ولم يكن هناك سوى خيمةٍ واحدةٍ صغيرة الحجم خالية من المخيمين، تستطيع أيواء فردين، وقد أخبر عابد

بوجودها على أساس أنَّ عابد سوف يأتي برفقة شخصٍ واحد فقط. كان من الصعب على ثلاثتهم أن يبيتوا فيها، وقبل أن تتخذ الحيرة وضعها في عقول ثلاثتهم حول كيفية المبيت داخل هذه الخيمة صغيرة المساحة، قال المصري:

- بإمكان اثنين منكما المبيت داخل هذه الخيمة، بينما الثالث سوف يبيت معي في الخيمة الخاصة بي

انحاز عابد إلى جانب صديقه المصري، اقترب منه خطوتين وربتَ بيده على كتفه في إشارة منه إلى الرغبة في المبيت معه. في حين نظر كل من شاجي وقيني قرانس إلى بعضهما البعض وكانت الأمطار فوقهما تتزايد فهربا إلى الداخل دون إبداء أيّ ردة فعل.

كان المخيّم يحوي ما يقرب من عشرين خيمة، مُحاطة بسور ارتفاعه يقل عن مترين، كما أنَّه قريبٌ من الغابة المطيرة التي تتواجد في جهة الشمال لدرجة تُمكن المقيمين في المخيّم من سماع حفيفُ الأشجار. ومن



الشرق توجد عدة محميات طبيعية تبعد مسافة مائتي متر ليس إلَّا، وكان الارتفاع القليل للسور يسمح لبعض الحيوانات بالقفز من فوقه إلَّا هذه التي تخشى من ضوء النار في القناديل المعلقة على عمدان متفرقة في أنحاء المخيّم، بجانب أنَّ قرب المخيّم من المحميات الطبيعية يجعل مَنْ في داخله يستمعون إلى أصوات الحيوانات المختلفة طوال الوقت.

كان الظلام حالكًا داخل الخيمة التي دلف إليها قيني قرانس وشاجي، بيد أنَّ بطاريات هواتفهم والأجهزة التي يملكونها وكان من شأنها أن تعطيهم بعض الضوء أصبحتْ فارغة، وقبل أن يتساءلا عن كيفية إنارة المكان كان المصري قد عاد إليهما مهرولًا وبيده قنديلٌ يضيء لهم المكان، بجانب إحضاره لهما القليل من الطعام.

تبادلتْ شاجي وقرانس الخروج من الخيمة من أجل إتاحة فرصة لأن يبدل كلٌّ منهما ملابسه التي بللها المطر. ارتدى قرانس بنطالًا رياضيًا وقميصًا من القطن لكنه قصير الكُمّين. أمَّا شاجي فقد تزينتْ بفستانٍ



أسود بحمالاتٍ صغيرة، أظهر أنوثتها المتفجرة في جسدها الريان. ثم جلسا سويًا على الأرض يتناولان من الطعام الذي جُلب لهما قبل قليل.

أثناء تناولهما الطعام، قال ڤرانس بنبرةٍ ودودةٍ ولطيفة أراد بها أن يكسر حاجز الصمت بينهما ويتحدثا :

- مساءُ الخير

فضحكت شاجي في براءة وردَّتْ بالفرنسية وهي اللغة المُستخدمة في الكونغو:

- Bonsoir

ضحك ڤيني ڤرانس بدوره هو الآخر، وقال :

- اعتقدتُ أنكِ إنجليزية ولستِ فرنسية. قد تكونين من الولايات المتحدة أو ربما إنجلترا؟

- بل مِن مكانٍ أبعد بكثيرٍ مما تظن



على الرغم أنها أعطته إجابة مواربة، إلَّا أنَّه سألها سؤالًا آخر:

- ما عملك؟

فأجابت :

- أيّ عمل أجني منه مالًا كافيًا يساعدني للانتقال للمكان التالي

- كم من الوقت ستبقين في الكونغو؟

- لا أعرف

- أين وجهتك التالية؟

أجابته متحمِّسةً وقد لاحت في عينيها ومضة سعادة :

- شاجي

ردَّ من خلفها مُستغربًا :

- شاجي؟!



ضحكتْ وأردفتْ :

- شاجي، جزيرةٌ صغيرة في الجنوب من بحيرة كييڤو، وهي أكثر مكانٍ بدائيٍّ يمكنك زيارته في حياتك، تعج بالطبيعة الخلابة، والأماكن الساحرة

يقول ڤرانس، كُنا نتحدث ونتناول الطعام، وعند محاولتها إدخالَ ملعقة الطعام في فمها وكانت غير منتبهه، سقطتْ بعض حبات الأرز من طرف الملعقه عن طريق الخطأ واستقرتْ بين مُفترق نهديها، كنتُ أراقبها وهي تُحاول إصلاح هذا الخطأ، وأنا على يقينٍ بأن ذلك أجمل خطأ قد شاهدتُه في حياتي حتى الآن. عندما لاحظتْ أنَّه يراقبها وعيناه معلقتان بين مُفرق نهديها قامت بالنفخ بقوة كمن ينفخ هواءً في رئتي غريق في اتجاه شعلة القنديل الذي كان معلَّقًا على مشجب الخيمة بالقرب منها، فأطفأتْه. ثم ضحكا سويًا واستلقى كلٌّ منهما في مكانه وسط ظلامٍ دامس لا يمكن لأحدًا منهما من رؤية إصبع يده ولو أنَّه أمام وجهه مباشرة.



بعد لحظات سألتْ ڤرانس :

- ماذا عن أنتويرب؟

فأجاب بدمٍ ثقيل تعمد إظهاره:

- لم تخبريني عن منزلك

- أخبرتُك أنَّه أبعد مما تظن

- أرغب في معرفة هذا البعيد

ران من جانبها صمتٌ قصير، بعده انطلقت في حديثها الطويل عن حياتها، قالت :

- وايت هورس، مقاطعة يوكون الكندية، مكانٌ في أقصى شمال الأرض، حيث درجة الحرارة عشرون تحت الصفر. لديَّ هناك قصر ضخم للغاية وعائلة كبيرة أكثر مما تظن.

كانت تتكلَّم بحيويّةٍ ومرحٍ وسرعة، فتخرج كلماتها تيَّارًا قويًّا متدفقًا، وما إنْ توقفتْ، حتى قال ڤرانس



متسائلًا ومستغربًا :

- لديك قصرٌ وعائلة كبيرة، ومع ذلك تأتين إلى هنا وتعملين في أي شيء؟!

لم تعلِّق على حديثه، فأضاف سائلًا :

- متى تغادرين؟

- لا أعرف

علق مستغربًا :

- الكثير من علامات الاستفهام حول ما تقولينه

ردّت بنبرةٍ ناصحة ومؤكدة :

- الأفضل أن تحتفظ بها في داخلك دون محاولة الكشف عنها

- ماذا عن عابد؟

قالت وقد لمعث عيناها :



- الشهم .. إنَّه من أصول عربية، تعرفتُ عليه في كندا قبل سنوات، وقد ساعدني في عدة أشياء هامة، لذا أعتبره صديقي المُقرب إنْ لم يكن الوحيد. يعمل في مجال استخراج غاز الميثان، وهو يأتي إلى هنا مرارًا من وقتٍ لآخر من أجل تحديد أفضل الأماكن التي يمكن لشركته استخراج غاز الميثان منها

ران بينهما صمتٌ لثوانٍ قليلة قبل أن تسأله شاجي بصوتٍ مخمورٍ بالنعاس :

- وأنتَ ماذا عنك؟ وأنتويرب؟

في تلك اللحظة، دارتْ برأس ڤرانس مشاهد كثيرةٌ من رحلته أيام كان طفلًا في مدرسة أنتويرب وحتى اللحظة التي وطأت فيها قدماه أرض أفريقيا. من ثم بدأ حديثه قائلًا :

- كان ذاك اليوم يومًا اعتياديًا من أيَّام أنتويرب، نهاره طويلًا وثقيلًا مثل غيره من أوقات أيام الدراسة الكثيرة. لحسن الحظّ تنسَّمتْ الرِّيحُ الباردة من إحدى



النوافذ، حاملةً معها بعضًا من رائِحة الأرض الندية، النَّسيمُ بهوائه المنعش لطفَ مِن حالة الجمود التي كُنَّا نُعاني منها أنا وبقيّة تلاميذ الصفّ. أنهى المُعلم حديثه وهو يدقق النظر في ساعة يده الأنيقة قبل أن يغلق دفتر ملاحظاته ويتوجه صوب منضدتِه الصغيرة المحشورة في زاوية الصَفّ، ثم قامَ بجمعِ أغراضهِ استعدادًا للمُغادرة ....

يقول ڤرانس، في تلك الليلة بقي كلاهما يتبادلان طرفي الحديث لساعاتٍ في حماسٍ واستمتاع لم يشعر أيٌّ منهما به من قبل، قهقها كثيرًا على مواقفَ مُضحكة، كقصصه عن الفئران والصراصير الطائرة. ولمعتْ عينا كُلٍ منهما بالدموع على مواقفَ موجعة، كلحظات افتقاده لصديقه وشعوره بالوحدة. ومن صدق ما قيل ألِفَ كُلٌّ منهما حكايات الآخر وتأثر بها كأنَّها حكاياتُه. وعلى الرَّغم من إنهاك اليوم الطويل ظلّ الحديثُ بينهما مُتَّقِدًا حتى الفجر. وقبل أن يستسلما للنوم أضاءت شاجي القنديل مرةً أخرى، أرادتْ أن تطمئِن على الجرح في جسده، وما أن



إطمأنتْ أنَّه بخير عادت واستلقتْ مرَّة أخرى حيث كانت. ثم همستْ مُناديةً :

- ڤيني

فردَّ عليها :

- شاجي ..

وكررتْ نداءها مرة أخرى بنبرةٍ كرتونيةٍ وفُكاهية :

- ڤيني ..

فقلدها :

- شاجي ..

- ڤيني ..

- شاجي ..

ظلا يرددان اسمي بعضهما لبعض مرَّة تلو أخرى، حتى أطلقتْ شاجي ضحكةً عاليةً للغاية شقتْ صمت الليل،

ظن ڤرانس أن الغابة تبعثرتْ على إثر عذوبتها وبراءتها. فضحك هو الآخر قبل أن يلوذ كل منهما بصمتٍ وشرود ليس لهما آخِر. مضى وقتٌ ظل كلاهما خلاله يحدِّقان في ظلام الخيمة بعينين لامعتين وعقلٍ مسلوب في متاهات الذكريات المتشظية، إلَّا أنَّهُما كان يستمعان كلٌّ منهما لصوت أنفاس الآخر ودقات قلبه المتسارعة.

* * *

في اليوم التالي، عند استيقاظها في وقتٍ مُتأخرٍ من الصباح، فوجئتْ بأنّ المكان يسوده هدوءٌ تام، لا يُسمَع فيهِ أيُّ صوت، ولا حتى أصواتُ الحيوانات في المحميّة الطبيعية القريبة من المُخيَّم أو الأمطار التي كانت تتساقط طوال الليل، وكأنَّ الصمتَ قد غشي كل شيء على عكس ما كان في الليلة الماضية. كما أنَّها لم ترَ ڤيني ڤرانس في مكانه، وفوجئتْ بغياب هاتفيها الخَلَويّين وشاحنيهما من المكان حيث وضعتْهما بيدها ليلة أمس.



خرجتْ من الخيمة مهرولةً ينتابها فزع، سألتْ من قابلتْهم عن عابد وقيني ڤرانس، فأخبروها أنهما قد خرجا في الصباح الباكر، ضمن فوجٍ قاصدين زيارة تبة عالية تُطلُّ على المحمية الطبيعية، تمكنهم من مشاهدة الحيوانات في بيئتها الطبيعية وقتَ شروق الشمس. قال أحدهم: «لكنهما عادا منذ ساعة»، وأشار لها على خيمة كبيرة في مؤخرة المخيّم، فهرولتْ باتجاهها وقد هدأ فزعها قليلًا.

داخل الخيمة الكبيرة، وجدتْ عابد وصديقه المصري قد جلسا متجاورين يتبادلان أطراف الحديث، أمّا ڤرانس فجلس وحيدًا في ركنٍ بعيد، يستريح على أريكة بدائية في مكانٍ معزول بالقرب من نافذة في الخيمة تمكنه من رؤية أطراف الغابة. كان يلهو ويتمايل برأسه، بدا أنَّه يفعل ذلك مع صوت موسيقى يستمعُ إليها عبر زوجٍ من سماعات موضوعة على أذنيه، وكان يدوِّن ملاحظات بأقلام ملوَّنة، ولا يعوِّل على شيءٍ مما يدور حوله وكأنَّه في مزاجٍ جيد أو أنَّه قد وقع في الحب.



اقتربتْ منه، رشقتْه بنظرة طويلة تغلغلتْ إلى أعماقه، فابتسم لها وهو يرفع السماعات عن أذنيهِ. دون مقدِّمات وبنبرةٍ حادة، قالت :

- أين حاجتي؟

عقد ڤرانس حاجبيه مُستغربًا، وقال :

- مرحبًا شاجي، لم أرغب في إزعاجك، فتركتُكِ نائمة أكبر قدرٍ ممكن، وأ...

وقبل أن ينتهي من إتمام جملته، قاطعتْه بحدةٍ غريبة وهي تدق بيدها على المنضدة الخشبية التي أمامه:

- أين حاجتي؟

وقد شعر بالإهانة والاتهام في نبرتها، أشار باتجاه منضدةٍ صغيرةٍ في إحدى زوايا المكان، وكان عليها عدة هواتف وكاميرات جميعها قيد الشحن، تضمنت أجهزتُها وأجهزة عابد وأجهزتُه هو أيضًا. فلم يكن ثمَّة مكانٌ به طاقة إلَّا تلك الخيمة التي وفَّر فيها صاحب

المخيّم مُولِّدًا كهربائيًّا صغيرًا من شأنه شحن الهواتف والكاميرات وبعض الأشياء الصغيرة التي لا تستخدم جهدًا كهربيًا عاليًا.

في تلك اللحظة، وبينما أشاحتْ بوجهها نحو المنضدة وتأكدتْ أنَّ هاتفها حيث أشار، شعرتْ بالخزي من نفسها وأنَّها تسرّعتْ في الحديث بنبرة لا تليق. كانت قد عرفته منذ بضع ساعات، إلَّا أنَّها بعد حديثهما في الليلة المنصرمة والذي ظلّ قائمًا للساعات الأولى من الصباح حملتْ عنه انطباعًا مفاده أنَّ هذا الشخص طيب القلب للغاية.

التفتتْ تنظر إليه وقد رغبتْ في التأسف، لكنه اختفى من مكانه. بالتفاتها في الأرجاء، لمحتْه خارجًا من باب الخيمة. هرولتْ من خلفه وقد شعرتْ بتأنيب الضمير. كانت دائمًا حذرة في اختيار كلماتها، لكنها في هذه المرة اندفعتْ.

لحقتْ به خارج الخيمة، وقد وقف وحيدًا، إلَّا من شعورٍ بالسوء ملأ روحه واستولى عليها، يشاهد أسرابًا



كبيرة من الطيور تحلق فوق أشجار الغابة.

اقتربتْ منه، وقالت بلطف :

- أنا آسفة، حقيقةً أنا آسفة جدًا. كل ما هناك أني مؤخرًا لستُ بخير، أنفعل بسرعة، ولا أتحكم في ردود أفعالي

انفرجتْ أساريره عن ابتسامة، ورماها بنظرة متفحّصة وقد لاحت في عينيه ومضةٌ غريبة بَدَتْ موجَّهة إلى أعماقها، وقال بنبرة حزينة لا تتماشى مع ملامح وجهه:

- لا عليكِ، أنا أيضًا أعاني من تلك الأعراض، أعطي ردود أفعالٍ مبالغة فيها، وسواء كنت فرِحًا أم حزينًا، فإن إحساسي بهاتين الصفتين يكون مبالغًا فيه. غير أني غدوتُ في منتهى الحساسيّة تجاه أيّ اعتذار. لذا دعينا نتفق اتفاقًا، أنا وأنتِ، لقد تفوهتِ بكلمة آسفة ثلاث مرَّات منذ تقابلنا، وأنا الآن لا أريد أن أسمع أيّ اعتذارٍ منكِ حتى لو اقترفتِ ما هو شنيع. أريد وعدًا.



لم تستطع الإحساس بدقَّات قلبها العنيفة داخل قفصها الصدريّ وإنْ لم تعرف لذلك سببًا، غير أنَّها لم تجِد من يخبرها يومًا أنَّه يتقبلها كيفما كانت ولا يرغب منها في اعتذارات. بدا الاتِّفاق لها كأنَّه اتِّفاقٌ مبهم وغيرُ شرعيٍّ، ومع هذا، لم تتردَّد، فقالت وهي تنظرُ بداخل عينيه :

- أعدك ڤيني ڤرانس

كان المطر قد بدأ بالتساقط وتطايرث ندفُه تطايرًا وسقطتْ على أنفها، تبعتْها عدة ندفٍ وسقطتْ على أنحاء متفرقة من وجهها، ثم تزايدتْ قطرات المطر بينما وقف كلٌّ منهما ينظر مُتفحصًا في ملامح الآخر وقد بلل المطر وجهيهما، ثم أقدمتْ شاجي على فعل شيء غير متوقَّع تمامًا. فعلى الرغَّم من حداثة معرفتهما، وتواجد بعض الأفارقة من حولهما في المخيم، إلَّا أنَّها احتضنتْه بحميمية وبقوة كبيرة، وقد تسبب تضارب مشاعرها في تلك اللحظة أنَّها كانت ترتعش داخل أحضان ڤيني ڤرانس الذي ذهل عندما احتضنتْه وشعر بإحساسٍ رائع لم يشعر به من قبل.



في تلك اللحظة صاح عابد الذي خرج لتوِّه من الخيمة الكبيرة مُناديًا وهو يقترب منهما :

- شاجي

تباعدتْ شاجي وقيني قرانس عدة سنتيمترات عن بعضهما وظلا ينظران في عيني بعضهما البعض لثوانٍ قليلة قبل أن يلتفتا إليهِ، وعندما أصبح على بُعد عدَّة أمتار منهما، سألها :

- هل أنتِ بخير؟

فأجابته وقد اعترتها حالة من السعادة بدتْ واضحةً في ملامحها وهي تنظر إلى قيني قرانس وقد مدتْ يدها وأمسكتْ أطراف أصابع يده :

- نعم نعم، لا تقلق .. بخير طالما أني مع قيني قرانس

امْتُقِع وَجْهُ عابد من آثار ردِّها وبدتْ ابتسامة بطيئة على وجهه وكأنَّه يريد قول شيءٍ ما، إلَّا أنَّه آثر أن يحتفظ به لنفسه. لكنه أضاف :



- أعتقد أني سأصدقك هذه المرَّة

وضحك ضحكةً قصيرة وإنْ احتفظتْ عيناه ببريق حادٍّ ينم عن غيرة أو ربما ضيق غير مبرر.

قالت وهي لا تزال ممسكةً بيد ڤيني ڤرانس وتتأمل وجهه :

- عليك أن تصدقني جدًا في هذه المرة

قال عابد بنبرةٍ هازئة :

- ربما

فهمتْ شاجي أنَّه تعمَّد ذلك القول استهزاءً بها، ومستفزًّا إيَّاها أمام ڤيني ڤرانس، فقد استاء من وجودها برفقتِه وسماحها له بمرافقتهما. حاولت شاجي أن تبذل قصارى جهدها لتغيير دفَّة الحديث، إذْ شبَّكتْ ذراعيها من فوق صدرها على نحو غير إراديّ، عازمةً على التوقُّف عن الكلام نهائيًّا. على الرغم من ذلك، تحدث عابد بنبرةٍ هازئةٍ وفجة وبصوتٍ مرتفع:



- يمكنني أن أرى أنَّ كلَّ ما يأتي سريعًا يذهب سريعًا

انتاب شاجي شعورٌ بعدم الارتياح ازداد تأثيره عندما ابتسم عابد ابتسامةً هازئة تؤكد تعمد ما تفوَّه به. فتوترتْ أعصابها وتجمّدتْ ملامح وقسمات وجهها، وقالت بنبرة دفاعية من غير تفكير:

- يا صديقي، لا يحق لك أن ترى ما لم تُدْعَ لرؤيتِه

كان الانفعال قد أخذَ منها كلَّ مأخذٍ في تلك اللحظة، بينما ڤرانس وقف صامتًا، ولم يُبدِ أيَّ ردَّة فعل، فنقلتْ بصرها إليهِ وطلبتْ منه بلطف لو يذهب لإحضار هواتفهم والكاميرا من الداخل.

ما إنْ ابتعد عنهما متوجهًا نحو الخيمة، وجهت حديثها إلى عابد بلهجةٍ حادةٍ وغاضبة ومعاتبة في نفس الوقت:

- أهذا أنتَ يا عابد؟ إنَّك تعرف أني أكره التنمر والتدخل في خصوصياتي. الآن تفعل ذلك؟



ممتقع الوجه، مرتبكًا، قال لها :

- أنا آسف

ثم أومأ إلى اتِّجاه الخيمة وأضاف :

- لكنكِ تعرفتي عليه قبل يومٍ واحدٍ من الآن

ثم تريَّث قبل أن يقول :

- أنا فقط أخشى عليكِ

قاطعته وهي تنظر في عينيهِ مباشرة :

- عابد، بيئتنا غير بيئتكم وأنت تعلم ذلك جيدًا. ثم إنَّه ليس أكثر من صديق، وأثقُ في أنَّه شخصٌ صالح. وعندما تخبرك امرأة ثلاثينية أنَّ شخصًا ما صالحٌ أو فاسد يجب أنْ تصدقها، فهي قد مرّتْ بالكثير جدًا، وهذا الكثير أتاح لها معرفة كيف تُقيِّم الأشخاص جيدًا

عاد ڤرانس حاملًا بين يديه الهواتف والشواحن والكاميرا الخاصة به، بالإضافة إلى هاتف ifone



الخاص بعابد والذي كان قد نسيه في الداخل. ولحق به صاحب المُخيَّم. وقف أربعتهم أسفل قطراتِ المطر في ظلِّ أجواء رائعة.

سألتْ شاجي :

- متى سنتحرك؟

قبل أن يجيب عابد، تدخل المصري صاحب المخيَّم، قال :

- ليس قبلَ ليلتين

نظر عابد وشاجي إليه نظرة تساؤلٍ واستغراب، فأضاف :

- هناك موجة من أمطارٍ رعدية شديدة سوف تستمر ليومين، ستضرب أنحاء البلاد وخاصة المناطق الساحلية التي تتوجهون إليها. وأرى أنَّه من الأفضل لكم أن تبقوا هُنا حتى تمر تلك العاصفة



في الخيمة، كانت شاجي تجلس أمام ڤيني ڤرانس تشاهد على الكاميرا ما قام بتصويره مُذ جاء إلى أفريقيا ويتجاذبان سويًا أطراف حديثٍ ملؤه المودّةُ والألفة، وفي أيديهما كؤوسُ العصير المصنوعة من البلاستيك. رنّ هاتفها مرارًا كلما جعلته متاحًا، وكانت في كل مرة تأخذه وتنزوي به بعيدًا عن ڤرانس، إلّا أنّها كانت تعطي ردّاتُ فعلٍ مُختلفةٍ إثر كل مهاتفة، بعضها ينم عن رضا وبعضها الآخر ينم عن سخط. إلى أن أغلقت هواتفها وتفرغت للجلوس مع ڤرانس الذي تحدَّث إليها بأسلوبٍ مؤدّب ومهذّب، وأثنى على لكنتها الإسبانية والفرنسية الطريفة، وكان هذا أشبه بوسام استحقاق عرفتْ شاجي كيف تحصل عليه. كان يتحدّث كأنَّه يسابق الزمن. كان ذكيًا وطموحًا إذ أنَّه بدأ يتخلى عن خجله المبالغ فيه، وأصبح تواقًا إلى التعلق والحب. حاول أن يُضحكها، مُطلقًا تلك النكات، الواحدةَ تلو الأخرى. لعله قرأ في مكانٍ ما أنَّ النساء يُغرمن بالرجال المتمتّعين بحسّ الدعابة، وكان يشيح بعينيه في كلّ مرّة كأنَّه لم يجد ما يقوله مضحكًا.



كانت شاجي في الرابعة والثلاثين وڤرانس في الخامسة والعشرين. بالرغم من ذلك، كان فتى لطيفًا، نمطًا من رجلٍ يحبّ صديقته ويحترمها، ولا يزعجها حتى لو آمل أن يكون فيما بينهما ما هو أكثر من الصداقة.

إلّا أنّها كانت تُدرك أنَّ ما بينهما لا يعدو كونه شرارةً مؤقَّتةً وعابرة فهي قد حدثث في ساعات قليلة للغاية.

* * *

في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التالي، توجَّه أفراد المخيَّم إلى ساحته الأمامية، وأشعل المصري صاحب المخيّم النار في مجموعة من الحطب، ثم دعاهم للجلوس من حولها، وكان ذلك بالقرب من شجرة عملاقة دائمة الخضرة متَّشحة باللون الأخضر على نحو مثير. كانت مسبحة صلاة، وصلبان، ودمى قطط خزفيّة والحجاباتُ الحريريَّة التي قُطِّعتْ إلى شرائط، تزيِّن الأغصانَ.



قالت شاجي التي كانت تنظر إلى الشجرة مشرقَة الأسارير:

- أتلاحظ؟ هذه الشجرة أشبه بشجرة عيد الميلاد

نظر ڤرانس إليها دونما إعطاءٍ ردّة فعل. بدا العالم وقد توقَّف عن كلّ حركة وهي في انتظار ردّة فعله. غير أنَّ عينيه ثَبُتتا حيثما ينظر، وبدتا شاردتين في الأفق البعيد، وشفتيه توشكان أن تنطقا بشيءٍ ما، لكن قبل أن يتمكّن من الكلام، راح صاحب المخيَّم الواقفُ إلى الوراء يتحدَّث ويقول:

- على كل واحدٍ منكم أن يخبرنا بشيء مثير، عن بلاده، أو مغامراته، أو حتى أمنيّة يتمناها، أيّ شيء يرغب فيه يمكنه البوح به في هذه الجلسة

كانت هناك امرأة مُسنَّة قادمة ببطء نحوهم، هرول عابد وصديقه المصري يساعدانها. أجلساها إلى الكرسيّ قبالة شاجي وقيني ڤرانس الذي يجلس إلى جوارها تمامًا.



اتَّخذتْ العجوز مجلسها، مهدَّلةَ الجفنين، محنيَّةَ الرأس. وسرعان ما أغمضتْ عينيها رغبةً منها أن تنأى بنفسها في عُزلة، فظنّ الجميع أنها نامت. فما كان من شاجي إلَّا أن رفعتْ دثارًا من فوق كتفيها وغطَّتها به في رفق. ثم شرع كل شخص يتحدث عن شيء ما سواء كان مثيرًا، أو أمنيّة أو أنَّه شيءٌ يحبه.

تبادل الجميع أطراف الحديث، وكان أجملَ ما قيل في تلك الجلسة، أبياتُ شعرٍ عربي على لسان عابد، الذي قال :

وجهكِ عبارة عن .. حياة

وكل ما على بالي خطر

والذي يشد الانتباه

أنْ صوت ضحكاتك مطر

الموت بعيونك ... نجاة



حتى .. بأنفاسك عطر

أراكِ بكل اتجاه

وفي قصائدي شطر شطر

كان عابد يتحدث، بينما ڤيني ڤرانس يتطلعُ في وجه شاجي وقد شعر وكأنَّه يرغب في توجيه هذا الحديث إليها، وكانت بدورها تبتسم في وجهِ كلما تطلع في وجهها.

لم تكن الجلسة قد انتهتْ عندما نهضتْ شاجي وأومأتْ إلى ڤرانس بأن يتبعها. لحق بها، ومشيا سويًا باتجاه واحدة من المحميات الطبيعية المجاورة، كانا يمشيان جنبًا إلى جنب، كصديقين أو حبيبين ألِف كل منهما الآخر، ثم صعدا إلى تَبَّة مرتفعة مكنتهما من رؤية مساحاتٍ شاسعة من المحمية. كانت المناظر مدهشةً حقًا، فالغزلان ترعى الكلأ في المحمية وسط حشائش السافانا والمراعي مختلفة الألوان، والخضرة

المنتشرة مرصَّعة بزهور متباينة الألوان، الفيلة والجاموس البري أيضًا يمكن رؤيتها في عدة أماكن.

شرع ڤرانس في التقاط الصور لكل شيءٍ يراه، بينما بقيت شاجي تترقب كل خطوةٍ يخطوها وهي تتأمل نظرات السعادة الواضحة تمامًا في ملامحه وكأنَّه طفل صغير وجد واديًا من السعادة.

قالت ضاحكة :

- أنتَ مخبول، الطبيعة ساحرة وأنتَ منهمك في التقاط صور للحيوانات والأشجار

التفتَ إليها وشرع في التقاط الصور لها من كل زاوية. وبعد دقائق من الضحك الهستيري فيما بينهما جلسا أسفل شجرة وحيدة عملاقة، وشرعا يتحدثان.

سألته شاجي :

- فيما ستستخدم كل هذه الصور؟ أم أنها بغرض المتعة والتسلية فقط؟



ردَّ وهو يشير لها بكلتا يديه شارحًا في حماس :

- أرغبُ في إنشاء قناةٍ على يوتيوب، ونشر هذه الصور والفيديوهات عليها

بدتْ في عينيه نظرة ذات مغزى، مفادها أنَّه تذكر شيئًا هامًا رغب في أن تراه، وقال :

- لدي شيءٌ رائع، سوف أريه لكِ

وشرع يبحث عن شيءٍ في الكاميرا، إلى أن وجده فوضعها بين يدي شاجي، وقال:

انظري جيدًا .. هذا فصيل من قردة بونوبو والتي تحمل الاسم العلمي «بانيسكيس». وقد انقرضتْ منذ قرون. قيل بأنَّه لا يوجد منها إلَّا في أفريقيا، لكنَّ أحدًا ما غيري لم يستطع رؤيتها أو إثبات أنها موجودة. اكتشفتُها أول أمس، قبل أن نلتقي في الغابة.

لم تكن تنظر إلى ما يُحدثها عنه بقدر ما كانت تتطلع فيهِ وإلى حماستِه وهو يتحدث عن اكتشافه، شعرتْ



بشيءٍ جميل في داخله، كما استبد في قلبها شعورٌ لم يسبقْ لها أن شعرتْ به، ولم تفهم له معنى، إنما فقط أرادت بشدة أن تساعده على دوام هذه الحماسة وهذه النبرة في صوته طوال الوقت. قالت وقد استبدَّتْ بها فكرةٌ بسرعة البرق :

- هذه أفريقيا

- اسم قناة اليوتيوب التي ستُنشِئُها سويًا والآن

قال وقد لمعتْ عيناه :

- سويًا؟

- نعم نعم .. سويًا أيها المُتأخر بضعَ خطواتٍ عما يجب عليه فعله. إذْ كان يجب عليك إنشاء قناة اليوتيوب هذه قبل أن تتحرك خطوة واحدة من بلجيكا إلى هنا، وتسجل كل خطوة تخطوها وتنشرها عليها. لكن لا بأس، لديَّ خُطة، ومفاجأة



اصطحبتْه عائدة به إلى المخيَّم، توجهت مباشرة صوب المصور المصري صديق عابد. طلبتْ منه المُساعدة بخصوص ما يجب عليهما فعله، وأن يدلهما عن كيفية الاستفادة من خبرتِه في هذا الأمر. كان المصري ودودًا معهما للغاية، إذْ رحب على الفور بمساعدتهما، فنقل لهما مجموعة كبيرة جدًا من الفيديوهات النادرة التي قام بتصويرها وتجميعها من بعض هواة التصوير والرحالة الذين مروا على المخيَّم وحصَّل منهم بعض الفيديوهات، كما أنَّه تشارك معهما الكثير من القصص عن أفريقيا وخبرته فيها.

في هذه الأثناء، حضر عابد، وكان يتحدثُ بجديةٍ وحدة عبر الهاتف إلى شخص ما. أوضح فيما بعد أنَّها الشركة التي يعمل لديها، وقد تلقى أمرًا بالعودة وعدم إكمال مهمته التي أتى من أجلها، فقد تم تعليق أمر الشغل في الكونغو لمدة غير معلومة، وعليه العودة مرة أخرى إلى مقر العمل في أوروبا.

قالت شاجي، وقد ذبل وجهُها:



- أيعني ذلك أنك ستُغادرنا؟

- لا، ما يزال أمامي بعضُ الوقت، فبعض الأغراض الهامه تم إرسالها في طرد من أوروبا مُباشرةً إلى فندق Ikoidwi الموجود على جزيرة صغيرة بالقرب من جزيرة إيدچوي إيدچوي، في إقليم كيبيڤو الجنوبية. وهي نفس الجزيرة التي ستنزلان عليها. أي أني سأرافقكما إلى هناك لاستعادة الطرد وإعادة توجيهه إلى أوروبا مرَّةً أخرى

ران صمتٌ وقلق من جانب شاجي، فأضاف عابد :

- لا أرى مبررًا للقلق، تعلمين مُسبقًا بأنَّني لم أكن لأذهب معكِ مباشرة إلى جزيرة شاجي. ثم أنّكِ الآن برفقة ڤرانس

ثم التفتَ ووجه حديثَه إلى ڤيني ڤرانس، قال :

- أليس كذلك ڤيني ڤرانس؟

وعلَّق ڤرانس وهو يتطلع في وجه شاجي :



- نعم نعم. سأكون إلى جوارها دائمًا

في المساء من اليوم نفسِه، أنشأت شاجي بنفسها قناة اليوتيوب عبر حساب ڤيني ڤرانس الشخصي ومن هاتفه، أسمتها كما اتفقا، «هذه أفريقيا». ونشرا عليها أول فيديو وكان عن اكتشاف قرود بونوبو «بانيسكيس». وقد نشراه تحت اسم : «إكتشاف قرود البونوبو العملاقة». من ثم قامت بمشاركة الفيديو عبر صفحتها الشخصية على فيسبوك وأنستجرام وكذلك موقع التدوينات القصيرة تويتر، كما أنَّها قامت بالإشارة إلى عدة جمعيات مهتمَّة بشؤون الحيوان والبيئة، وكذلك أشارت في الفيديو إلى قناة ديسكفري وناشيونال جيوجرافيك وتاريخ الحيوانات. ولاقى الفيديو نسبة مشاهدة عالية للغاية في يومه الأول.

في وقتٍ مُتأخرٍ من مساء اليوم نفسه، عند مرور ڤيني ڤرانس على حسابات شاجي في مواقع التواصل الاجتماعي لمتابعة أحوال ما نشراه وردود أفعال المشاهدين عليه، وجد أنَّها توقفت عن النشر في هذه الحسابات منذ وقتٍ طويل، ولفت انتباهَه عدة



تعليقات على الفيديو بعد أن شاركتْه على صفحاتها، أغلب التعليقات من جانب أصدقائها كانت تدل على أنَّها شخصية مرموقة وأنَّها مفقودة منذ فترة. إلَّا أن أغرب التعليقات على الإطلاق كان من جانب حساب تحت اسم «دانيال لابروس»، وكان حسابًا مؤكدًا على تويتر، وتعليق آخر بنفس الاسم وأيضًا لحساب مؤكد على فيس بوك، وكان كلا التعليقين يدلان على أنَّه يبحثُ عنها، ويستنكر بشدة أنَّها في أفريقيا.

عند محاولة ڤيني ڤرانس أن يتفهَّم ما يحدث، أخبرتْه شاجي مرَّة أخرى بضرورةِ ألّا يسعى خلف علامات الاستفهام، لأنَّ من شأنها أن تُفسد علاقتهما ببعضهما البعض، وصرحتْ بأنَّها لا تود ذلك. كما طالبتْه بأن يكتفي فقط بما تُظهره له برغبتها. احترم رأيها، لكنَّه بقي حاضر الذهن يفكر فيما تُخفيه عنه، وعلى الرغم أنَّه لم يفهمها جيدًا، فإنَّه استشعر وحدتها وتعاستها. قال لنفسه: إن الناس جميعًا لديهم هموم يُخفونها، مهما حاولوا أن يُبدوا للآخرين أنَّهم غير ذلك، وليس



أشد أذى على المرء مِن أن يكون وحيدًا مُتألمًا ولا يستطيع البوح بما يؤلمه.

* * *

قبل شروق شمس اليوم التالي، شرعوا في تجهيز حقائبهم من أجل البدء في الانتقال إلى إقليم كاليهي ومنه إلى جزيرة إيدچوي.

داخل الخيمة، بينما تقوم شاجي بتجميع أغراضها، لاحظ ڤرانس امتلاكها عدة بطاقات ائتمانية وبنكية، جميعها من الفئات المميزة. كما أنَّه لأول مرَّة استطاع أن يعرف اسمها الكامل، فقرأه شاجي سبينسر لابروس، وقد ربط سريعًا بين اسم الحساب المؤكد على فيس بوك وتويتر «دانيال لابروس» وبين اسمها. لم يتفوه بشيء، إلى جانب ملاحظته أنَّها لا تفتح هواتفها إلَّا نادرًا،على الرغم مِن اهتمامها الشديد بأن يكونوا دائمًا بالقرب من يديها.

أثناء الطريق إلى كاليهي، جلسا بجوار بعضهما البعض داخل حافلة نقل الرُّكَّاب، وقد أخذ الفضول من ڤيني



ڤرانس مأخذه، فقرر سؤالها عمّا تخفيه، على الرغم من تحذيراتها المتكررة بألّا يحاول السعي خلف علامات الاستفهام حتى لا يخسرها. لكنّه كان حريصًا، إذ سألها أسئلةً مواربة، قال:

- من أنتِ؟

نظرتْ إليهِ مُستغربة. فأضاف بنبرةُ صوتٍ كرتونية في محاولة منه لمداعبتها :

- وما الذي تُخفينَه عني؟

عندما نظرتْ إليه بحدة، قال مازحًا :

- أقصد أنكِ جميلة للغاية شاجي، وقد تخفين ما هو أكثر من الجمال، أليس كذلك؟

ضحكتْ في وجههِ وقد فهِمتْ ما يحاول فعله، وأخبرتْه :

- لا تحاول



اعتدل في جلسته إلى جوارها، وقال بجديّة :

- إذًا، إلى أين نحنُ ذاهبان؟ ولما هذه الوجهة تحديدًا؟

مالت برأسها على كتفه، ثم أغمضتْ عينيها، واسترسلتْ في الحديث :

- وجهتُنا الحالية بالأتوبيس هو أقليم كاليهي الموجود على ضفاف بحيرة كيبيقو. هُناك سنفترق عن عابد، حيث سيركب عَبّارة، من شأنها أن تعبُر بهِ إلى جزيرة صغيرة تقع في الجنوب من جزيرة إيدچوي. أمَّا نحن فسنركب عبارةً أخرى، من شأنها أن تعبر بنا إلى جزيرة إيدچوي نفسها، من هناك سنركب أتوبيسًا آخرَ ينقلنا إلى مكان إسمه كيهومبا، وهو موجود في الشمال من نفس الجزيرة

صمتتْ شاجي للحظات، فسأل ڤرانس :

- وماذا بعد؟



- ماذا بعد؟ ماذا بعد؟ .. من كيهومبا سننتقل إلى شبه جزيرة شاجي عبر مواصلة أخرى، من ثم نتقابل مع مُرشد محلي، سوف يصطحبنا إلى أقصى الشمال الشرقي من الجزيرة، وهو مكان ناءٍ، معزولٌ تمامًا عن البشر والعالم، مُنخفض كثيرًا عن سطح البحر، لكنه مُحاط بالجبال شاهقة الارتفاع من ثلاثة اتجاهات، وجبلٍ صخري في الجهة الرابعة، تلك المُطلة على البحر، وهي بمثابة سدٍ كبيرٍ يفصِل بين الجزيرة والبحر. هذا المكان النائي أشبه بسفينة نوح، فهو مكانٌ بِكْر تمامًا، لم تصل إليه أو تدخله أي تكنولوجيا إلَّا نادرًا جدًا، تعيشُ فيهِ شعوب (البانتو بانتويون)، وهم مجموعة عرقية تعيش في هذا المكان من عصور ما قبل الميلاد وربما أبعد من ذلك. يظن العالم أنَّ هذه الشعوب قد انقرضت من أفريقيا قبل آلاف السنين. أي أنك ستحظى بفرصة تصوير شعبٍ كامل من البشر، يظن العالم أنّهم انقرضوا

علق ڤيني ڤرانس بحماسٍ منقطع النظير:

- رااااائع



- ليس هذا كل شيء. هذا المكان يُعد كنزًا حقيقيًا، فهو مزدحم بالأعشاب الطبيَّة والأشجار النادرة التي انقرضتْ أو شحَّتْ في كل مكانٍ آخر، ويمكن استخلاص الدواء منها، ومن الأمثلة عليها عقار الكينين الذي يُستخدم كمضاد للملاريا، ويتم الحصول عليه من نبات الكينا الاستوائي، بالإضافة إلى عقار الكوراري الذي يعتبر مُرخيًا للعضلات ومخدرًا أثناء العمليات الجراحية، ويتم الحصول عليه من بعض النباتات الاستوائية المتسلقة، بالإضافة إلى ونكة مدغشقر الذي يُستخدم لعلاج اللوكيميا. كما أنَّ هذا المكان يضم أكثر من 2000 نبتة تحتوي على مواد طبية تعالج مرض السرطان، وغيره من الأمراض الخطيرة

ردَّ ڤيني في دهشة :

- مدهش، مدهش جدًا

- وبمناسبة قرود بونوبو «بانسينكس» والتي تظن أنك اكتشفتَها بعد أن انقرضتْ، في الحقيقة هي قد انقرضت في العالم الخارجي البعيد عن هذا المكان.



لأن هذا المكان كما قلتُ لك، يشبه سفينة نوح، فسوف تجد فيه فصائل عديدة لحيوانات ظنَّ العالم أنَّها قد انقرضتْ منذ مئات وربما آلاف السنين، لكنها بقيت هُنا تحيا في سلام جنبًا إلى جنب مع قبائل (البانتو بانتويون)

***

بقايا الجنة

جزيرة شاجي - يونيو 2018م

على مشارف الجانب الغربي من كيهومبا، داخل أتوبيس قديم يُقل الركّاب، كان ڤيني ڤرانس جالسًا بجوار شاجي عندما أشارت إلى نقطةٍ مُحدَّدةٍ في خريطةٍ بيدها، وقالت: هذا هو المكان.

نزلا من الأتوبيس، ووقفا على جانب الطريق يتطلعان في الخريطة بتأنٍّ وهما يلتفتان من حولهما يتفحصان المكان. فجأة، أشارت شاجي باتجاه مُنحدرٍ صغيرٍ وضيق يتوجه نحو أعماق الغابة، وقالت : هذا هو بالتأكيد. اقتربا من المنحدر، فوجدا شخصًا جالسًا على جذع شجرةٍ عملاقة، اسمه ياو، وهو رجل خمسيني العمر، نَحِيلُ الجسْمِ، له عينان سوداوان غائرتان في وجهه، يرتدي ملابس مصنوعة من الكتان والقطن، مُمسكٌ بيمينه عصا تُشبه العكاز لكنها ليست كذلك. لحظة رؤيته لهما، أخرج يده اليسرى من جيبه، وكان ممسكًا بهاتف خَلَوي يشبه تمامًا الذي تملكه شاجي،



تعمد إظهاره لهما وهو يخرجه. فابتسمتْ شاجي واعترتها حالة من الطمأنينة وهي تتوجه نحوه وقد تعمدتْ هى الأخرى إظهار الهاتف الخلوي في يدها، وكأن هذه إشارة مُتفق عليها فيما بينهما.

تبادلا التحية بطريقةٍ أوحت إلى ڤرانس أنهما يعرفان بعضهما مُسبقًا، وأن هذا اللقاء مرتب بعناية ودقة، على الرغم أن الرجل بدا عليه أنَّه يرى شاجي للمرة الأولى.

قال الرجل بصوتٍ رتيب :

- لخمس سنواتٍ كاملة، أيقنتُ أنَّ دكتور سبينسر وزوجته سيعودان، وإنْ لم يحدث، فإن شخصًا ما مِن قِبَلهم سوف يأتي

وردَّت شاجي :

- عملتُ على ذلك كثيرًا، لكن قيودًا كثيرة وقفت في طريقي

قال وهو يشير إلى الهاتف في يده :



- في كل يوم، وحسب الموعد الذي أخبرني به، كنتُ أفتح الهاتف الخلوي الذي تركه لي قبيل مغادرته الجزيرة، وأنتظر أن يأتيني اتصالٌ أو رسالة. وكلما فرغتْ بطارية الهاتف، كنتُ أتوجه للمدينة وأعيد شحنها مُجدّدًا، ثم أعود وأعيد الأمر يومًا بعد يوم. لم أيأس أبدًا، إلى أن وردتني رسالتك

ران صمتٌ قصير، قبل أن يقول :

- لا أصدق أنَّه رحل إلى العالم الآخر. كيف حدث ذلك؟

قالت وقد بدتْ في عينيها نظرة حزن:

- الأمر يطول شرحه للغاية. الآن خذنا إلى الزعيم ماساي

بنبرة صوتٍ آسفة، وقد شرع في المشي إلى أمام:

- الزعيم ماساي فارق الحياة قبل عامين من الآن، أي بعد مغادرة والديكِ للجزيرة بثلاث سنوات. كان قد انتظره كثيرًا ولم ييأس من عودته. كان مُصدقًا أنَّه



سوف يعود ويساعد شعوب البانتوعلى الشفاء من المرض الخبيث والذي قضى عليه وعلى الكثيرين من شعبه

سألتْ وقد استبد بها القلق:

- إذًا؟

استرسل ياو في الحديث:

- لا تقلقي بهذا الشأن. الزعيم كوامي الابن الأكبر للزعيم ماساي لا يقل حكمة عنه، يهتم لأمر شعبه كثيرًا ويسعى دائمًا لما فيه مصلحتهم. كما أنَّه قد ورث كلَّ شيءٍ عن أبيه، حتى أدق الأسرار

كان ڤرانس صامتًا طوال الوقت، يحاول أن يستنتج ويفهم أكبر قدرٍ ممكن مما يدور حوله حتى لا يبدو غبيًا. في الوقت ذاته قال ياو وهو يشير نحو غابة كثيفة الأشجار:



- آمل أنكما مُستعدان للمشي، فسوف نمشي مسافة ستة أميال في دروب ومنحدرات وسط أحراش الغابة حتى نستطيع الوصول إلى أحد الجبال المحيطة بالقبيلة، سوف نتسلقه ثم نهبط إلى الداخل

في وقت الغروب، بعد عناءٍ كبيرٍ ومشقة هبطوا من الجبل وقد استبد بهم التعب، وعلى الرغم من ذلك شرعوا في المشي مُجدّدًا على أرضٍ منحدرة لمدة خمسين دقيقة كاملة، وصلوا فيها وسط غابة أخرى كثيفة الأشجار. كانت نباتاتٌ غريبة الشكل متباينة الألوان منتشرةً من حولهم. الألوان البرتقالية والصفراء والحمراء والبيضاء في كل مكانٍ تبهج العين، وكانت روائح مميزة نفاذة منتشرة في الأنحاء، وكلما سألا ياو عن شيءٍ ما أو رائحةٍ ما، ردّ باسم نباتٍ لم يسمعا به من قبل. اتضح أن المكان المحاط بأربع جبال ما هو إلّا كنزٌ حقيقي، فيه نباتات لم يُسمع عنها من قبل، وروائح لو علمتْ بها باريس لأوقفتْ صناعة أغلى عطورها وجاءت إلى هنا لاستخلاص وتصنيع عطور جديدة.



في هذه الأثناء، وعلى الرَّغم من أنَّ المكان الذي توقفوا فيهِ كثيف الأشجار حتى إنَّ الشمس لا تستطيع أرسال شعاع ضوءٍ واحد، قال ياو:

- الآن وصلنا

نظرا إليهِ باستغراب، فوجداه يشير إلى عدة بيوتٍ خلف الأشجار، مصنوعة من الطين، لها أسقف من أخشاب الأشجار، ومغطاة بنباتات مُتسلقة أوراقها خضراء لها أزهار متباينة الألوان تشبه أشجار الجهنَّميَّة، الفرق الوحيد بينهما أن هذه النباتات تُزهر ورودًا وتعطي ثمرًا يشبه حبات المانجو. كانت البيوت متفرقة بعشوائية لكنها منظمة.

في تلك اللحظة، صاح ياو مُناديًا:

- باراكا، بيهاتي، إيشي ... ..

ظهر العديد من الأطفال والنسوة خارجين من أبواب المنازل، تغطيهم ملابس بدائية مصنوعة من الكتان وأوراق الشجر تواري أجزاء صغيرة من أجسادهم،



على غير ما يرتديه ياو. علم ڤرانس فيما بعد أن الجزيرة تحوي عشرين قرية صغيرة جميع سكانها من شعوب البانتو، كل عائلة تكوِّن قريتها الخاصة. وهذه البيوت هي قرية عائلة ياو، ومن خرجوا منها هم زوجته وزوجات أشقائه وأبناء عمومته وأبناؤهن. هذه القرية تُعد بعيدةً ومتطرفة عن بقيّة القرى المختفية في الغابة السوداء بالقرب من البحر، والتي تُعد مركز حياة شعوب البانتو. ولم يكن هناك أيٌّ رجل في القرية، إذْ أنَّهم يخرجون كل صباح سيرًا على الأقدام باتجاه قلب الغابة، يعملون طوال النهار على جمع أكواز الذُّرة في شكائِرَ من القماش، ثم يعودون بحلول المساء، وفي صباح اليوم التالي، تقوم النسوة بدورهن بفَرطِ حباتها ثم فرشها في الشمس لتجف، قبل أن يقمن بطحنها لتصبح دقيقًا.

طلب ياو من زوجته أن تُعد لهما أحد البيوت، قال إنَّه سيكون سكنًا لهما طوال فترة إقامتهما في الجزيرة. كما أوصاها بضرورة توفير بعض الطعام والشراب والفاكهة، وقد أتبع سببًا، لأنهما مرهقان من الرحلة.



وكان المنزل عبارة عن غرفة واحدة مصنوعة من الطين، مطليةٍ بلونٍ فسفوري مصنوع من نباتات الطبيعة، لا توجد في الغرفة نوافذ، ولا يوجد به حمام ملحق، أو مياه للشرب. الحمام عبارة عن خزان في غرفة صغيرة موجودة وسط أشجار الغابة، والمياه يتم تجميعها عند سقوط الأمطار في أوانٍ مصنوعة من الفخار موضوعة فوق أسطح المنازل ومن حولها.

في وقتٍ متأخر من مساء اليوم نفسِه، داخل المنزل الطيني وتحت أضواء خافتة صادرة من قنديلٍ صغيرٍ معلّق على مشجب الحائط، بدلتْ شاجي ملابسها دون اكتراثٍ لوجود ڤرانس إلى جوارها. أرتدت فستانًا كالذي ارتدته من قبل لكنه بلونٍ مختلف، أما ڤرانس فقد بقيَ كما هو لم يبدل ملابسه. استلقى كلٌّ مِنهما على دِكّة عريضةٍ كالسرير، عليها فرشٌ من الصوف الخشن ودثارٌ مرتب بعناية.

كانت شاجي هادئة وصامتة تمامًا، شاردة تستمع إلى صوت موسيقى يُصدرها حَفِيفُ الأشجار في الخارجِ، على عكس ڤرانس الذي لم يستطع كبح جماح غضبه



من صمتها، إذْ ظن أنَّها لا تثق به أو أنَّها تُقلل من شأنه بإخفائها الكثير من الأشياء عنه. فقام من مرقده، وجلس على دكته مشوَّش الخواطر.

سألتْه شاجي:

- تُرى، ما السر وراء انشغالك؟

ردَّ غاضبًا:

- أتساءل .. إلى متى سأظلُّ أتبعكِ وعقلي مليءٌ بالتساؤلات التي لا تنتهي؟ على الأقل شاركيني شيئًا مما لا أعرفه

نظرتْ إليهِ في تردد، وهي لا تعرف إنْ كان عليها أن تخبره بحقيقة الأمر أم أنَّ عليها أن تلوذ بالصَّمت مجدَّدًا، ووجدتْ أنَّه معها برغبتِه منذ البداية، وأنَّ شيئًا ما لم يمنعه من المغادرة إذا ما أراد ذلك. فاعتدلتْ في جلستها، وقالت:

- أَلَمْ تسمع من قبل عن كلمة لابروس؟



- لا

- ولم تقرأه على أيّ عبوة دواء، أو تسمع بهِ في إحدى محطات التلفاز أو ..

قاطعها بإعادة هِجاء الكلمةِ وهو يعتدل في جلسته :

- لابا روس!!. تقصدين مؤسسة لابروس العالمية رائدة صناعة الأدوية والمستحضرات الطبية؟

- نعم

- تقصدين أنَّ شاجي سبينسر لابروس..؟

- هو كذلك. أنا ابنة سبينسر لابروس، مالك مؤسسة لابروس رائدة تصنيع الأدوية والعقاقير في العالم

لم يكن ڤيني ڤرانس قد فهم شيئًا، أو أنَّه لم يرغب في أن تذهب رأسه بعيدًا بالتفكير في أشياء قد تزعجه، فقال بهدوء:

- من فضلك، أريد أن أفهم كل شيءٍ، والآن



استرسلتْ في الحديث :

- في مارس من العام 2012م، بأحد مستشفيات نيويورك، بالولايات المتحدة، حضرتْ امرأة ثلاثينية ذات أصول أفريقية، وكانت مُصابة بالسرطان. بالفحوصات تبين للأطباء أنَّها في مرحلة مُتأخرة، ميؤوسٍ من شفائِها، حتى إنَّهم وضعوا اسمها على قائمة الأموات. إلَّا أنَّهم بعد أيَّام قليلة، عند إجراء أحد الفحصوات الطبية الدورية، وجدوها وقد تعافت تمامًا من المرض. حققوا في الأمر، وجدوا أن جدها وهو عجوز أفريقي حضر خصيصًا من الكونغو لزيارتها، أعطاها جرعاتٍ من مشروب صنعه لها بنفسه

- وماذا بعد؟

- انتشرتْ القصة كالنار في الهشيم عبر الصحف ومواقع الإنترنت، وعندما علم والدي بالأمر غادر كندا من فوره متوجهًا إلى نيويورك. بعد مُعاينة حال المرأة وإجراء التحاليل، وجد أن المشروب في أمعائها هو مزيج من زيت التين والزيتون ونباتٍ آخر لم يتوصلوا

إلى نوعه، وهذا المشروب كوَّن عقارًا يُصلِح خلايا الدم التالفة ويقضي على السرطان بطريقة سحرية

- ثم!!

- اسْتَقْصى والدي الموضوعَ مِنْ كُلِّ جوانبهِ، ثم سعى خلف العجوز الأفريقي، فوجده قد غادر إلى الكونغو سريعًا، وكأنَّه قد حضر فقط من أجل إعطائها الدواء والعودة مرَّة أخرى من حيث أتى. سعى خلفه إلى الكونغو، وتغيب هناك ما يقرب من ثلاثة شهور، قبل أن يتصل بوالدتي يخبرها باكتشافه مكانًا يشبه الجنة، فيه نباتاتٌ وأعشاب من شأنها القضاء على 90% من أخطر الأمراض التي عرفتْها البشرية، وأنَّه توصل إلى تركيبةٍ دوائية من شأنها القضاء على السرطان نهائيًا، لكنه سيتأخر عن العودة قليلًا من أجل مداواة مرضٍ منتشر بين الناس الذين وجدهم هناك. كما طالبها بأن تُسافر إليه مُصطحبةً معها أنواعًا محددة من الأدوية والأدوات الطبية الحديثة التي يحتاجها شريطة ألَّا تُخبر أحدًا عن وجهتها.



كان الأمر بخير تمامًا إلى أن عادا سويًا بعد عشرة شهور إلى كندا، وصرح أنَّ شركة لابروس بصدد إصدار عقار جديد سوف يقضي على السرطان والإيدز وبعض الأمراض الفتاكة نهائيًا. كان والدي سعيدًا بما توصل إليه على خلاف جدي، دانيال لابروس، الذي حاول جاهدًا أن يمنعه من التصريح بذلك على الملأ، إذْ أخبره أن هذا شأنٌ لن يَسعد به الكثيرون من أصحاب الشركات الدوائية في العالم، فهو سيتسبب لهم بخسائر مادية بالغة، فهم يهتمون بنشر الأمراض أكثر من القضاء عليها، فكلما زاد المرض وانتشر كلما ازداد الطلب على منتجاتهم من الدواء

سأل مُستغربًا وقد بدا القلق في ملامحه :

- وماذا بعد؟

- بعد أيَّام، فُجر المعمل الخاص بوالديًا وكانا في داخلِه يعملون على التوصل للتركيبة الدوائية من النباتات، وأحترق المعمل بكامل ما فيه من معداتٍ وأبحاث. كما أنَّني فقدتهما سويًا



- والعقار؟ وطريقة تصنيعه؟

- كان سبينسر لابروس ذكيًا كفاية، عندما شعر بأنَّ أحدهم يراقبه، وأنَّ جهاتٍ مُختلفةً تسعى لإفساد أمر تصنيع العقار، قام بوضع وديعة في البنك باسمي، وكانت تحتوي على مذكرات كُتب فيها معلومات حول كيفية صناعة التركيبة الدوائية في حال حدث له شيءٌ، وعن مكان واسم النبات الذي استخرج منه المادة التي يصنع منها هذه التركيبة، كما أنَّه ترك خريطة ومعلومات عن كيفية الوصول إلى ياو ومراسلته عن طريق الهاتف الخلوي الذي تركه له قبل مغادرته الجزيرة

مُستغربًا ومستنكرًا، سألها ڤرانس:

- منذ 2013، ونحن الآن في 2018، خمس سنواتٍ كاملة، فما الذي أخرك كل هذا؟

هازةً رأسها في أسف:



- لم أكن أعلم بأمر الوديعة، إلَّا أني ذات مساء، دلفتُ إلى مكتب والدي، وبينما أقلب في محتوياته تعثرتُ في رسالة موجودة داخل كتاب كان لا يتركه من يده، كتب فيها عن أمر الوديعة. كان يخشى أنَّ جدي لن يخبرني عنها وهو ما حدث بالفعل. إذ أنَّ جدي حرص على إخفاء الأمر لسنوات. وليس هذا كل شيء، بل سعى لتزويجي عدة مرات بغرض إنشاء عائلة وأطفال حتى لا يتسنى لي السعي خلف الوديعة وما فيها، حتى إنَّه علق أمر حصولي على ثروته بالزواج

- ثم؟

- عندما علم جدي بأمر اكتشافي للوديعة، استشاط غضبًا، نوَّه بإنَّه لا يريد أن يفقدني مثلما فقد والديّا، قال: إصلاح العالم ليس من شأننا وحدنا، وإن حربًا خبيثة ستقوم إذا ما شرعنا مجددًا في محاولة تصنيع هذا العقار

كان الليل قد انتصف، وقد أخذ التعب من شاجي كل مأخذ، وكذلك ڤيني ڤرانس، لكنَّ الأمرَ كان أكبر



ويستحق المناقشة، وعندما رأت نظراتٍ استفهامية في وجه ڤرانس، قالت:

- أنتَ لا تعلم ماذا فعلتُ كي أصل إلى هنا، لقد كانت الوديعة في بنك SBI Canada عبارة عن ورقة صغيرة، كُتب فيها: «توجهي إلى بنك Blom في فرنسا». وعندما ذهبتُ إلى هناك، وجدتُ وديعة أخرى كُتب فيها، «توجهي إلى بنك Swiss National بسويسرا». وهناك وجدتُ وديعة سريَّة عبارة عن مذكرات وطريقة الوصول إلى ياو، بجانب رسالةٍ مفادها أن طريقة صناعة العقار موجودة لدى زعيم شعوب البانتو الزعيم ماساي

- الذي مات؟

- هو بعينه

تلك اللحظة، هبطت الأمطار بغزارة شديدة مُصدرةً صوتًا يشبه السيمفونية الموسيقية، لكنها سيمفونية عظيمة. ران صمتٌ قصير بينهما، قبل أن تسأله شاجي:

- أمازلتَ لا تثق؟

لم يعلِّق ڤيني ڤرانس الذي التف وأعطاها ظهره في تلك اللحظة وقد شعر أنَّه تائهٌ وسط محيط ليس له آخر، فنهضتْ عن أريكتها وانتقلتْ إلى أريكته، ثم استلقتْ إلى جواره، فانتبه إليها والتفتَ من فوره، وجدها مُستلقية إلى جواره وعيناها في عينيه، شفتاها المكتنزتان مبللتان بماء ريقها أمام شفتيه وقد أسقطتْ إحدى حمالات كتفها عمدًا فبدا جزء كبير من جسدها عاريًا. ثم همست له وهي تشد الدثار عليهما :

- عندما تأتمنك امرأةٌ على نفسها، عليك أن تثق فيها ثقة مُطلقة

* * *

في وقتٍ مُتأخر من صباح اليوم التالي، استفاقا من نومهما، خرجا من السكن، لم يجدا ياو وبقيَّة الرجال موجودين، إذْ أنَّهم توجهوا إلى الغابة في رحلتهم اليومية لجمع أكبر قدرٍ ممكن من أكواز الذرةِ



والأعشاب وبعض النباتات الأخرى والعودة بها في نهاية اليوم.

في ساحةٍ كبيرة بين المنازل، وجدا النسوة جالساتٍ على الأرض يقُمنَ بفرط حبات الذرة، ولم يكن بينهن من تتحدث بلغة يعرفانها، فالجميع يتحدث لغة البانتو. رأيَا أن يجلسا معهن يساعدانهن، وكانت شاجي قد تجملَّتْ ذلك الصباح، وجلستْ أمامه مباشرةً في كامل زينتها، بفستانها الذي يُظهر أنوثتها، وظلا يتبادلان النظر إلى بعضهما البعض في سعادة ونشوة منقطعة النظير.

ما إن فرغوا من فرط أكواز الذرة، فكرا لو يتجولا في المكان، لكنهما كانا مترددين، إلَّا أن زوجة ياو استشعرتْ رغبتهما هذه، فاصطحبتْهما في جولة حول المكان. قاما بتصوير كل شيء من نباتاتٍ نادرة وحيوانات بألوانٍ مبهجة لم يسبِق لهما رؤيتها في الحياة أو على شاشات التلفاز أو حتى قنوات اليوتيوب. قاما بعمل بثٍّ مباشر من قلب الغابة، وقد لاقى ما فعلاه رواجًا غير مسبوق، إذْ تناقل ملايين



الأشخاص الفيديو عبر قنواتهم وعلى مواقع الإنترنت، كما انهالت عليهما رسائل بالآلاف حول إن كان ما يصورانه حقيقيًا أم أنها فيديوهات مزيفة، وهل فعلا توجد مثل تلك الحيوانات اللطيفة التي يصورانها في كوكب الأرض؟ وهل تلك النباتات التي صوراها وكَتبا عن فوائدها حقيقية؟ وأين توجد؟

قبل الغروب، وقت احمرار الشمس، عاد ياو ومَنْ معه مِن الرجال، وكانوا يرتدون نفس الزي البدائي الذي يُخفي من أجسادهم أقل مما يُظهره، حاملين على ظهورهم شكائرَ مُمتلئةً بالخيرات عن بكرة أبيها. وبينما يعملون على إفراغ الشكائر، كانت النسوة قد جهزن الطعام للعشاء، وكان عبارة عن خبزٍ مصنوع من الذرة، وقطعٍ من نبات الكُرنب المغلي بجوار أسماك السردين وبعض أوراق النباتات والأعشاب الغريبة لكنها ذات طعم شهي ورائحة نفاذة.

أثناء تناول الطعام، أخبرهما ياو أن مقابلتهم للزعيم كوامي ستكون بعد ثلاثة أيَّام، إذْ أنَّه ذهب في رحلة صيدٍ دوريَّة، وهي تستمر لأسبوع مضى مِنه أربعة



أيَّام. وإنَّه قد رتب أمر مقابلتهم مع بعض القائمين على أعماله. ولم تكن شاجي مُستاءة، كذلك ڤيني ڤرانس، على العكس، وجدا في ذلك فرصةً رائعة تُمكنهم من تصوير أكبر قدرٍ ممكن من الحيوانات الأليفة المُذهلة والزواحف العملاقة والنباتات والأعشاب النادرة. إلى جانب الحصول على عيناتٍ وبذور مختلفة من هذه النباتات، وأيضًا تصوير حياة البانتو بكافة أشكالها.

عند شروق شمسِ اليوم التالي، خرج ڤرانس وشاجي برفقة ياو وبقية الرجال في رحلتهم لجمع الذرة والنباتات. مشوا برفقتهم ما يقرب من خمسة أميال كاملة، على أرضٍ منحدرة بين أشجارٍ كثيفة، وكانت الرحلة مسليةً ومضحكة طوال الوقت، حيث سقط ڤرانس أكثر من مرة وأصيب بخدوش وجروح طفيفة وكذلك شاجي هي الأخرى، إلَّا أنهما كانا مُستمتعين بمساعدة بعضهما البعض كلما سقط أحدهما. قاما بتصوير كل شيءٍ قابلاه، وطريقة جمع الذرة وأحجام كيزانها العملاقة مقارنة بما يعرفونها في بلدانهم. كما أنهما نشرَا بعض الفيديوهات التي توضح رحلتهما وما

قابلاه فيها، وجلسا لساعاتٍ من النهار يتابعان ردود أفعال المشاهدين.

قبل انتهاء اليوم، استبد بهما التعب الشديد، ورغبت شاجي في العودة إلى القرية لكي ترى النسوة وهن يطبخن ويجهزن الطعام ولكي يصورا ويوثقا ما يفعلانه.

أثناء طريق عودتهما، في مكانٍ ما وسط الأشجار الكثيفة، توقفتْ فجأة، وقالت:

- ڤرانس، لديَّ شيءٌ أود إخبارك به

توقف من فوره، نظر إليها وكانت ملامحه متوردة من كثرة الضحك والبهجة التي لاقاها معها طوال النهار. انتظر أنْ تخبره شيئًا لطيفًا، ربما خيِّل له أنَّها ستعترف بمحبته أو شيءٍ من هذا القبيل، لكنها أضافت بنبرةٍ آسفة:

- ما نشأ بيننا شيءٌ رائع، إذْ مكنني من الشعور بالسعادة طوال اليوم، وفي كل لحظة تشاركتُها معك،



إلَّا أني أود منك أخذه على سبيل أنها مرحلةٌ مؤقتة غير مستدامة، أو نسيانه، فأنا لديَّ شخصٌ ما ينتظرني في كندا

لم يتمكَّن ڤرانس من التعليق على حديثها، فقد كان قلبه يدقُّ في تجويف حلقه وهو يرمش بعينيه غيرَ مُصدقٍ لما يسمع. تذكر أوقات الفراغ التي تألم فيها نتيجة غياب صديقه فيما سبق، فتسمَّر مكانه للحظات، بدا عليه أنَّه كمن أُخذ على حين غرَّة ولا يعرف ماذا يفعل أو أين يذهب، فهزَّ رأسه فوق كتفيه النحيلتين، ومضي للأمام صامتًا وهو يترنح، إلَّا أنَّه لم يكن منتبهًا لموضع أقدامه فتعثر وسقط في كومةٍ من الوحل، وعندما حاولث شاجي مساعدته بمد يدها إليه، أبى أن يمد يده إليها، ربما خشي أن ترى في عينيه نظرةً ما، أراد ألَّا تراها.

لدى عودتهما إلى القرية، حاولث شاجي أن تبدو على طبيعتها، فتشاركث مع النسوة في كل شيء، بدءًا مِن إفراغ خزانات المياه التي امتلأتْ بفعل الأمطار، وجمع الحطب لإشعال النيران بين ثلاث قطع حجرية تُعد



كموقد البوتاجاز الخاص بالقرية، حيث توضع فوقها الأواني وفيها الطعام. بينما حاول ڤرانس بدوره أن يبدو بخير، فشرع في تصوير ما يفعلنَه، إلَّا أن شعورًا سيئًا قد اعتراه فجعله يبتعد عنهن ويجلس وحيدًا على أريكةٍ بدائية مصنوعة من أخشاب الغابة.

* * *

في وقتٍ مُتأخرٍ مِن نهار اليوم الرابع، اصطحبهما ياو إلى عمق الغابة السوداء، لمقابلة الزعيم كوامي. وكان يعرف أنَّ الطريق إلى قلب الغابة السوداء طويلٌ وشاق، فتعمد أثناء مشيهم بين الأشجار وسط الغابةِ أن يتحدَّث معهما عن شعوب البانتو وقوانينهم بغيَة تهوين الطريق عليهما. أخبرهما: الأرض بما عليها ملكٌ للجميع، يستطيع أي شخصٍ أن يحصل على الطعام أينما وجد، لا يحق لأي شخص أن يعتدي على آخر مهما بلغتْ الأسباب، من ينظر إلى امرأةٍ غير زوجتِه مُتفحصًا إياها عوقب بإرساله للصيد في البحر وحيدًا مدة خمسة عشر يومًا ولابد أن يعود وقد حمل معه طعامًا يكفي لإطعام خمسة عشر شخصًا من عائلة



المرأة التي نظر إليها، على أن يكفيهم الطعام لمدة خمسة عشر يومًا. كما أنَّه قال مؤكدًا ومنبهًا، من يلمس امرأةً مُتعمدًا لابد وأن يتزوجها من فوره إذا ما وافقت على ذلك وإلَّا حلَّت اللعنة على البانتو، وإنْ رفضت الزواج، تُقطع يد من لمسها، وقوانين الزواج هنا لا انفصال فيها، ولا يحق لرجلٍ أن يجمع بين امرأتين. من يضربْ امرأة يُقتلْ من فوره، وإنْ كانت زوجتَه وأتت بجرمٍ مشهود، يُقام مجلسٌ مكون من خمسة رجال وخمس نساء يختارهم الخصمان ويتم الحكم فيما بينهما. قطع الأشجار، صيد الحيوانات، الخروج بعيدًا عن الجزيرة، جرمٌ عظيم عقابه الموت.

سأله ڤرانس بصوتٍ هزيل، مُستغربًا:

- إن كان الخروج من الجزيرة يُعد جُرمًا عقابه الموت، فكيف عرف السيد سبينسر أمر شعوب البانتو ومكانهم؟

ابتسم ياو، واسترسل في حديثه، قال:



- كانت شعوب البانتو تستوطن الغاباتِ المطيرة في أنحاء أفريقيا منذ القدم، وهم دعاةُ سلام، ينبذون العنف حتى مع الحيوانات. إلّا أنَّ تزايد أعداد البشر ونشوء القبائل المختلفة، دفعهم هم أيضًا للدخول إلى الغابات، ثم نشبتْ الحروب الشرسة فيما بينهم قبل مئات السنين بعدما رغبتْ كل قبيلة بفرض هيمنتها على القبائل الأخرى. أدت تلك الحروب إلى هلاك الآلاف ومحو قبائل وعشائر بأكملها. على إثر تلك الحروب تنقلّتْ البانتو من مكانٍ إلى مكان، وفقدوا آلاف الأشخاص الصالحين جراء تلك الحروب. في نهاية الأمر، استوطنوا هذا المكان النائي، والذي يعد جزيرةً جبلية داخل جزيرةٍ مائية، فكما ترى، المكان هنا منخفض عن سطح الأرض ومستوى مياه البحر كثيرًا، يظن البعض أنَّه نيازكا ضخمًا ضرب المكان قبل الاف السنين، مما جعله بكل هذا الإنخفاض عن سطح الماء والأرض، ويظن الآخرين أنَّ بركانًا عظيمًا كان هنا، وهو من صنع هذه الجبال، ولذلك فإن القشرة الأرضية تحت الجزيرة صلبة ومتماسكة للغاية حتى أن مياة البحر لا تتسرب إلى أعلى من خلالها، وهو كثيف



الأشجار، حتى إنَّه يبقى مظلمًا طوال الوقت، كما أنَّه مُحاط بأربعة جبال بركانية شاهقة الإرتفاع شديدة الانحدار يصعُب على البشر العاديين تسلقها.

عند الانتقال إلى هنا، وُضعتْ قوانين من جانب حكماء البانتو، جزءٌ منها ينص على عدم مغادرة الجزيرة نهائيًا. إلَّا أنَّ الوقت كان كفيلًا بتغيير بعض هذه القوانين، وأصبح البعض يغادرون الجزيرة بين حينٍ وآخر، كما أن هناك بعض الأشخاص غادروها للأبد وأصبحوا جزءًا من مجتمعاتٍ أخرى، وسمح الزعيم للبعض أن يغادروا الجزيرة بغرض تعلم لغات القبائل والعشائر الأخرى.

قبلَ بضعِ سنواتٍ من الآن، في صباح أحد الأيَّام، التي تلت ليلةً عاصفة، كانت رياحها شديدة للغاية، اكتشف الصيادون وجود سفينةٍ عملاقة محطمة على الشاطيء أسفل الجبل. بتفحصها وجدوا أنَّها أمريكية، ووجدوا فيها ثلاثة ناجين، اثنان منهم مصابان بإصابات شديدة أودت بحياتهما بعد ساعات قليلة من العثور عليهما. أمَّا الثالث، والذي اتضح لاحقًا أنَّه قبطان السفينة،



وكان شابًا في منتصف الثلاثينيات، أبيض وقوي البنية، فقد أمر الزعيمُ ماساي بإدخاله إلى الجزيرة من أجل مداواته، فبقاؤه على الشاطيء كان ليودي بحياته هو الآخر شأنه شأن صديقيه. كانت أمارا ابنةُ الزعيم ماساي وأختُ الزعيم كوامي هي وريثة والدها في علوم الطب، فالزعيم ماساي كان طبيبًا ماهرًا لديه الكثير من علوم الطبيعة، وأعلمَ الناسِ بأسرار الأعشاب وكيفية صناعة الأدوية، وقد علمها كل شيء، وكنتُ أنا حارسها الشخصي، لا أتركها أينما ذهبتْ. أمرها والدُها بمداواة القبطان سريعًا من أجل إخراجه من الجزيرة.

كان مُصابًا بعدة كسور في قدميه، استوجبتْ عمل جبائر من الأخشاب والطين، بقي فيها لثلاثة أشهر، ثم جددتْ ابنة الزعيم فترة أخرى أعادت فيها صناعة الجبائر، فلم تكن الكسور قد التأمتْ جيدًا بعد.

أثناء إقامة القبطان بالجزيرة، نشأتْ علاقة صداقة وطيدة بينه وبين أمارا، حتى إنها علمتْه لغة البانتو وبعضَ أسرار الجزيرة. كما أنَّه علمها وعلمني أيضًا اللغة التي يتحدث بها. في نهاية الأمر تحوَّلتْ

الصداقة إلى حبّ، فصرح الشاب قبيلَ مغادرته برغبته أن يتزوج منها، ورغم معارضة الزعيم كوامي الشديدة لوالده، ومعارضة حكماء البانتو، إلّا أنَّ الزعيم ماساي رأي أنَّ الحب أمرٌ من الربِّ، يُنشئه بين قلبين بغرض الجمع بينهما، ولا يحق لأي مخلوقٍ آخر أن يعارض أمر الرب، فسعى في إتمام الأمر بين القبطان الشاب وابنته، إلّا أنَّه اشترط على القبطان عدة أشياء، منها ألَّا يبوح أبدا بمكان تواجدهم لأي مخلوق، وأن يوفر له سبل الاتصال اللازم بابنته طوال الوقت، وكنتُ أنا «ياو»، الشخص الذي يستقبل رسائل ابنة الزعيم بعدما غادرت مع القبطان إلى بلاده

كانت شاجي مُستغربة لما تسمعه، كذلك ڤيني ڤرانس الذي كان يمشي معهما صامتًا طوال الوقت، إلّا أن الجزء المتبقي من القصة أوضح لهما الأمر.

أضاف ياو:

- كانت الرسائل تصل بين حينٍ وآخر، بعضها تُصاحبه الهدايا، وبعضها يُعبر عن الاشتياق للأرض والبانتو، إلّا



أنَّ إحدى هذه الرسائل كانت مُزعجةً للغاية، إذْ كتبتْ فيها ابنة الزعيم أنَّها بصدد الموت قريبًا إذا لم تعُد إلى الجزيرة، فهي مصابة بمرض الدم الأسود. أمر الزعيم ماساي بكتابة رسالة إلى زوجها يطلب منه أن يأتيه بها أو أن يرتب له أمر السفر إليها، ولمَّا كانت حالتها متأخرة للغاية، تحدث زوج ابنته إلى سفارة بلادة في الكونغو، ورتب كل الأمور التي من شأنها تسهيلُ سفر الزعيم إلى أمريكا

سألتْ شاجي وقد اتضحتْ الأمور لديها :

- إذًا، أمارا ابنة الزعيم ماساي، هي مريضة السرطان في مستشفى نيويورك، والعجوز الأفريقي الذي أحضر الخلطة الدوائية هو نفسُه الزعيم ماساي!

ردَّ ياو مؤكدًا :

- نعم، هو نفسه الزعيم ماساي. والذي اتَّبَعه والدكِ إلى هنا، فبعدما ساعد أمارا على التعافي تمامًا، أقنعها أنَّها قد تكون سببًا لشفاء ملايين الناس إذا ما دلَّته على



طريق الوصول إلى والدها، فأخبرتْه عن كيفية الوصول إلى هنا. ولدى وصوله للجزيرة، حلَّ ضيفًا على الزعيم، وكان ثمَّة مرضٌ جلدي متفشٍ بين شعوب البانتو، فقام والدُكِ بمداواتهم، وكان هذا الفعل بمثابة السبب في نشوء علاقة وطيدة بينه وبين الزعيم

عند غروب الشمس، تراءتْ لهم بعض البيوت على مرمى البصر، كانت متواريةً بين الأشجار، باقترابهم منها ظهر بعض البشر وهم يخرجون منها ومن بين أغصان الشجر الكثيفة، ويستدعون بعضهم بعضًا وقد اعترتهم حالة من الدهشة، غير مصدقين ما يرونه، فلم يكن أحدٌ منهم قد رأي أشخاصًا بِيضَ البشرة من قبل.

تبادل ياو التحية مع بعضهم وهو يمشي إلى أمامٍ دون توقف، إلى أن وصل إلى بيتٍ كبير، مُختلف الشكل عن بقية البيوت، وله رواقٌ مصنوع من أفضل أخشاب الغابة، مُغطى تمامًا بالنباتات المُزهرة متباينة الألوان. كان بيتًا معدًا خصيصًا لمقابلة زوار الزعيم كوامي والذي كان ينتظرهم في الداخل.



* * *

دلفوا إلى منزل الزعيم كوامي الذي جلس برفقتهم على بساطٍ أخضر اللون، مصنوع من حشائش الغابة الناعمة. كان الزعيم رجلًا قوي البنية، مفتولَ العضلات، له عينان بنيتان ثاقبتان، كما أنَّه ذو لحية بنية كثيفة جعلتْ من ملامحه وكأنَّه محاربٌ شرسٌ ومغوار، إلَّا أنَّه كان وديعًا خدومًا، لطيفًا وودودًا في التحدث إليهم، إذْ رحب بهم، وقدَّم لهم الطعام. وبعد حديثٍ مطوَّل دار بينهم، نهض من مكانه، دلف إلى غرفة أخرى، ثم عاد حاملًا بين يديه حقيبة صغيرة، ما إنْ رأتها شاجي حتى تهللتْ ملامحها فرحًا واعترتها حالةٌ من السعادة الغامرة. كانت تعرف هذه الحقيبة جيدًا جدًا، فهي حقيبةُ يد والدها السيد سبينسر، وتزايدتْ حالة الفرح والسعادة الغامرة التي وصلتْ حد النشوة عندما شرعتْ في إفراغ الحقيبة وتفحص ما في داخلها من أوراق، فقد حوَت على أبحاثٍ كتبها بخط يده عن النبات المستخدم لصناعة الدواء وكيفية استخدامه ودمجه مع بقية النباتات الأخرى ليصبح عقارًا



للسرطان. بجانب عدة أبحاث أخرى أجراها على عدة نباتات موجودة فوق سطح الجزيرة من شأنها أن تكون دواءً لأمراض مختلفة.

سألته شاجي في تَمَنٍّ:

- هل بإمكاننا الحصول على بعض هذه النباتات؟

ردَّ الزعيم:

- نعم. لكن، هذه النباتات تنمو في قاع الجزيرة، في وادٍ خلف الغابة السوداء، وهو أكثر الأماكن انخفاضًا في الجزيرة، كما أنَّه موجود في أقصى الجانب الغربي أمام الجبل الفاصل بين الجزيرة والبحر. لذا، خذوا قسطًا من الراحة ليومين، وسوف أرتب لكم أمر الذهاب إلى هناك.

قال ياو، موجهًا حديثه إلى ڤرانس الذي كان يعلِّق الكاميرا في رقبته وما يزال يصور كل شيء:



- هذا المكان هو بقايا الجنة التي كانت عليها الأرض قبل أن تُتلِفَها أفعال البشر، فهو الأكثر جمالًا وإدهاشًا على سطح الجزيرة، إذْ أنَّه يحتوي على قطعان الجاموس البري أبيض اللون، والغزلانُ هناك تتواجد بأعدادٍ غير مُنتهية، بجانب فصيلٍ نادر من الإبل البيضاء التي لم يسبق لأحد أن رآها خارج هذه الجزيرة. هذه الأبل تُعطي الألبان طوال العام حتى وإنْ لم تكن لها صغار، وهي أهم مصادر الطعام لشعوب البانتو

في هذه الأثناء، غادرهم الزعيم، تاركًا إياهم على حريتهم داخل البيت وقد أمر مساعده بأن يكون في خدمتهم طوال الوقت. كانت عينا قيني قرانس تترقبان شاجي طوال الوقت، وفي هذه اللحظة تحديدًا وجدها ترفع رأسها وقد انفرجتْ أساريرها بعد أن استبدتْ بها فكرةٌ ما لم تستطع مقاومتها، فنهضتْ واقفة على قدميها، خطت صوب نافذةٍ صغيرة ممسكة بهاتفها الخلوي، بدا أنَّها انشغلتْ بإرسال رسالة نصِّيَّة، وكانت تبتسم ابتسامةً فاضت فيها عيناها حبًّا ومودَّةً.



كانت توشك أن تحتضن الهاتف بعد إرسالها، إلَّا أنَّه رَنَّ في يدها مُعلنًا ورود اتصال، فاستقبلتْه بحماس، وقالت:

- نبأ سارٌّ للغاية، الأبحاث بين يديَّ وعَيِّنة النباتات وبذورها على بعد مسافة ليست بكبيرة، فقط يفصلني عنها سواد الليل

لم يستطع ڤرانس سماع صوت الطرف الآخر. على الرَّغم من ذلك فقد فهم أنَّه الشخص الذي تحدَّثتْ عنه مُسبقًا، الذي ينتظرها في كندا. تحدَّثتْ باشتياق، بينما بدا من إجاباتها أنَّه غير مهتم بشيءٍ غير المعلومات التي توصلتْ إليها، وقد بدا ذلك واضحًا في إجابتها عندما أخبرته أنَّ النسخة الوحيدة من الأبحاث أصبحتْ معها، وعندما ردَّت عليه بأنَّها لا تعرف إنْ كان المكان مدرجًا على قائمة خرائط جوجل والأقمار الصناعية أم لا، لكنها سترسل له موقعهم على أي حال، وفي ختام المكالمة، قهقهتْ ضاحكة بصوتٍ مرتفع قبل أن تقول بهدوء:



- أحبّك

أنهت المكالمة، والتفَّتْ للخلف من فورها عائدةً إلى ياو وڤيني ڤرانس، فوجدت الأخير ينظر إليها وقد بدت في عينيه نظراتٌ خائبةٌ لم يستطع إخفاءها. كانت مُثقلة بالذنب مذ أخبرتْه بحقيقة أنَّها في علاقةٍ مع رجلٍ آخر وهي التي جعلتْ له الباب مواربًا منذ البدء. تجمَّدتْ ملامح وقسمات وجهها أمام نظراته، ثم نقلتْ بصرها إلى ياو، وسألتْ:

- في أيّ مكانٍ سننام الليلة؟ أشعر بالتعب الشديد في أنحاء متفرقة من جسدي، غير أنَّ قدميَّ تكادان تتفتتان من شدة الألم

قال ياو:

- المنزل بالكامل معدٌ لاستقبال الضيوف، وقد أصبح لكما حتى تغادرا الجزيرة

رشقتْ شاجي المكان من حولها بنظرة خاطفة، وعلى الرَّغم من أنَّ المنزل كان بسيطًا للغاية، إلَّا أنَّه كان



فخمًا ومترفًا أكثر من المعتاد عليه في أفريقيا، فإنَّه كان مزخرفًا بألوانٍ طبيعية، والجدران مكسوَّة بفراء بعض الحيوانات. في هذه اللحظة، انتهى ياو من حديثة مع ڤرانس، فنهض متوجهًا إلى إحدى الغرف، وقال: سأبيتُ هنا الليلة. نهض ڤرانس وتوجه إلى خارج البيت دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة، وقد اعترته حالة من الهم واضحة تمامًا في وجهه مع الحيرة، ربما شرد بذهنه مُتسائلًا: لماذا كلّما اعتدتُ على شيء، غادرني. سَعَتْ شاجي من خلفه، فلحقتْ به جالسًا على جذع شجرة هالكة ممدًا في الأرض، أمام موقد نار صغير كان خادم الزعيم يصنع لهما عليه مشروبًا عشبيًا قبل قليل، وكانت النار فيه ما تزال متقدة. جلستْ إلى جواره، وحاولتْ أن تبذل قصارى جهدها لتغيير دفَّة الحديث قبل أن يبدأ، إذْ أنَّها كانت تخشى أن يتحدث إليها لائمًا فيستبد فيها شعور الذنب مُجدَّدًا. لكنه فاجأها بالقول:

- لا تحاولي، ولا داعي لذلك، فأنا بخير

بنبرة آسفة، قالت:

- لم أقصد أن أتسبب في إيذائك. ومن المؤكد أنَّك ..

قاطعها ضاحكًا ضحكة قصيرة لكنها ساخرة، قال:

- صدقًا، لا داعي لذلك. الذنب ذنبي، فأنا من اندفع دون تريث. لكن، الأمر لم يكن بيدي، فعندما يكون المرء فارغًا من الداخل، إذا سأله أحدهم كيف حالك مرتين، سيقع في حبه مباشرة. خطيئتكِ الوحيدة، تأخرك في الكلام، فالكلام أيضًا لهُ فترة صلاحيَّته، كغذاء المُعلّبات عندما لا يُستخدم في وقته ينتهي، وإنْ قيل بعد انتهائه سيبدو بمنتهى العفَن

ثم ران من جانبه صمتٌ قصير، قبل أن يتنهَّد بحدَّة خانقة كأنما خرجتْ كل عواصف الدنيا من هُوَّةِ فمه ومن اللامتوقع أطفَأتْ هذه الزَفْرة نار الموقد، فظنَّت شاجي أنها أكبر من مُجرَّد تنهيدة. وتأكد ظنها عندما استرسل في الحديث قائلًا:

- ربما لا يُناسب البشرَ العيشُ مع شخص مثلي، فأنا وكما ترين لا أعيش إلَّا مع الأشياء الصامتة، لكنها لا



تُعد صامتة بالنسبة إليَّ، أنا أشعر بها وأتأملها وأرى جميع تحركاتها التي لا يراها أحد. لا أعرف حقيقةً كيف سأشرح لكِ ذلك، لكني سأشرح. مرة وأنا في طريقي لشراء كرة قدم رأيتُ كلمة تسير، أجل كلمة، عرفتُ من التفاتاتها أنَّها سقطتْ سهوًا وأنَّها تبحث عن فم صاحبها، حملتُها في جيبي وقررتُ من حينها النظر إلى وجوه الأشخاص لا التحديق في الأرض؛ علِّي بذلك أجد صاحب هذه الكلمة، لكني رأيتُ كلماتٍ أخرى تتشبث بأذقان المارّين وياقاتهم. هرعتُ وأمسكتُ بياقة فتاة لتصفعني ظنًا منها بأني مجنون، إنَّها ويا للأسى لا تعلم أني أردتُ فقط إعادة كلماتها إلى فمِها، لكني فشلتُ، لذلك وضعتُها هي الأخرى في جيبي، وتساءلتُ: ماذا أفعل يا إلهي؟ إني ممتلئٌ بالكلمات. أرى الشجرة هالعةً تُحدق في دموعها وهي تنكسر تحت أقدام المارّة. وأرى شكل الريح الحقيقي، دموعٌ هائلة هذا هو شكلها، إنَّه بكاء الكون، أنا أفتح الباب بهدوءٍ، هل تعرفين لماذا؟ سمعتُ أنين عروته غاضبة في اليوم السابق وأنا أفتحه، لا أكذب حين أقول لكِ ذلك، أنا بالفعل سمعتُها وهي تئنُّ في اليوم السابق.



قبل ثلاثة أعوام جلستُ بجانب البحر، رأيتُه كيف يضرب الجبل بأمواجه ليُذكِّره دائمًا بأنَّه الأضعف، والجبل صامتٌ كما لو أنَّه يعترف، كيف لا يصمتُ وهو لم يعصم ابن نبيّ؟ أنتِ ربما لا تعرفين بأني أرى أقدام المقاعد وهي تُصارع الثقل بينما تجلسون أنتم بأريحيةٍ على متنها، وأرى القوس وهو يزين السماء بعد بكائها، ليس قوس قزح كما تظنون ولم يكن قوسًا للمطر، إنَّه قوسٌ وحيدٌ مثلي يظهر للحظاتٍ فقط ليُواسي السماء. أرى الفزاعة وهي تفتح ذراعيها كأنَّها ترغب في احتضانٍ من أي كائن، هي لا تعرف أنَّها ليست سوى فزاعة. وقبل سنواتٍ طوال رأيتُ ضحكات أمي الحقيقية، إنَّها لا تعدو عن كونها ضحكات كاذبة، أو هي دموعٌ في الأصل تختبئُ خلف غطاء الضحكات تلك. رأيتُ أني لا أرغب حقيقةً في العيش مع الأشياء الصامتة! إنما هو لساني، لعلَّ الكلمات التي لم أنطقها قط أكَلتْه، لذاك أُصبتُ بالخرس

في أثناء الصمت الذي أعقب ذلك، شعرتْ شاجي بالذنب تجاه نبرته الحزينة، فلبثت ساكنة، غير قادرة



على إعطائه ردًّا مناسبًا. لم تنم نومًا هنيئًا في تلك الليلة، فقد كان عقلها المثقل طوال هذه السنين بشتَّى أنواع القلق والخوف، يركِّز في فكرة واحدة لا غير، وهي أنَّها ستحقق ما ابتغاه والدها. والآن شُوش عقلُها بأشياء أخرى، إذْ وجدتْ نفسها منجذبةً إلى وجهتين متناقضتين، فثمَّة جانب فيها يروق له زهْو قرانس والونس الذي تستشعره في وجوده واعتيادها عليه، أمَّا الجانب الآخر منها، فتساءل إن كان عليها الذهاب خلف كلماتٍ ونظراتٍ ودودة وجدتْها مع صديقها الكندي الذي تركها تُسافر وحدها إلى الكونغو رغم معرفته المسبقة بكل شيء، أم تتبع من شاركها مشقة الغابة والنوم أرضًا وأشد الأوقات صعوبة ونظر إليها طوال الوقت وكأنَّها معجزة لا تتكرر.

في صباح اليوم التالي، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، تواصل عابد معها هاتفيًا، أبلغها بانتهائِه مِن مهمته الخاصة بالعمل، وأنَّه يود لو يأتي إليها، فأخبرتْه عن كيفية الوصول إلى نقطة التلاقي، ثم طلبتْ في رجاء من ياو لو يعود إلى كيهومبا لاصطحابه، ورحب بذلك



على الفور، خاصة أنَّه كان يرغب لو يعود إلى قريته لقضاء شيءٍ ما، قال إنَّه سوف يستغرق منه يومًا قبل أن يعود بعابد مرة أخرى. في ذلك اليوم، والذي تلاه، ظلَّت السماء تمطر مطرًا خفيفًا فوق الجزيرة، قطرات دافئة مُبهجة، دفعتْ شاجي للانطلاق، بيد أن ڤرانس لم يكن في أفضل حالاته، لكنها عملث على بث الحماس في أعماق روحه، ولم تتركه حتى انطلقث معه يصوران كل شيءٍ يقابلهما في الغابة السوداء، وسط دهشة وذهول وسعادة شعوب البانتو كلما رأوهما في أي مكان. كان لردود أفعال البانتو أثر كبير داخل ڤرانس، فكلما رأى السعادة في وجوههم، كلما نسي ما يعكر مزاجه. في المساء قاما بنشر العديد من الفيديوهات الجديدة على قناة اليوتيوب الخاصة بهما، والتي بات تعداد زوارها في تزايد مُطَّردٍ طوال الوقت.

***



لا مزيد من الفئران

أرض البانتو - يونيو 2018م

في الوقت الذي أوشكتْ فيه شاجي أن تصل إلى هدفها، استبدَّتْ بها رغبة شديدة في العودة إلى كندا بأقرب وقت من أجل تحقيق حلمٍ ووصيَّة والدها بإنتاج ونشر العقار الذي من شأنه القضاء على مرض السرطان، إلى جانب إنتاج عدة عقارات أخرى مُضادة لأمراضٍ فتاكة أرهقتْ ملايين البشر. كذلك ڤيني ڤرانس، شعر هو أيضًا بضيق الوقت المُتاح له، ورغب في الخروج من أفريقيا في أسرع وقت من أجل اللحاق بي في روسيا، حيث كان كأس العالم على وشك أن يبدأ، وقد وجهتُ إليه رسالة تحوي دعوة لحضوره المباريات معي جنبًا إلى جنب، شأنُه شأن أدولڤين وروجر وچوردان، وحتى والدته الأم چيني، فقد أرسلتُ إليها هي الأخرى دعوةً لحضور كأس العالم كما أوصيتُ أدولڤين أن تصطحبها معها وتتكفل برحلتها كاملة.



في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم الثالث، وسط أجواء شديدة الحرارة ومرتفعة الرطوبة، استفاقتْ شاجي من نومها، توجهتْ مُباشرة صوب النافذة بغية أن تُطلَّ على ياو وعابد لعلّها تراهما قادمين نحوها، إذْ أنَّهما تأخرا عن ميعاد عودتهما يومًا كاملًا مما جعل القلق يستبدُّ بها. تناهى إلى سمعها صوتُ ضحكة خافتة منبعثة من الجانب الآخر للباب. كان الزعيم كوامي قد حضر بصحبة عشرة من رجاله، وسأل ڤرانس بنبرة مازحة: هل سنتوجه إلى قاع الجزيرة حسب اتفاقنا المسبق قبل يومين، أم أن ذَواتِ البشرة البيضاء يهابون الأمطار الغزيرة التي تتساقط في الخارج؟ فضحك ڤرانس وعلَّق: سوف نذهب سباحة. في إشارة منه للإصرار على الذهاب.

في هذه الأثناء، رأت شاجي أن لا فائدة من انتظار ياو وعابد، إذْ أنَّهما سوف يلحقان بها إذا ما حضرا في أي وقت. فأسرعتْ في سكب الماء على وجهها، ومشَّطتْ شعرها بأصابع يديها سريعًا، ثم شرعتْ في تبديل

ملابس نومها التي ارتدها قبل النوم بملابسها الأخرى المعدة لمثل هذه الأجواء الممطرة والأماكن المنحدرة.

كانت الرياح خارج البيت تشتدُّ وتقوى، وتدفع الأشجار بقوة في كل اتجاه، على الرَّغم من ذلك هرول الزعيم كوامي برفقة رجاله باتجاه الجانب المنخفض من الغابة ومن خلفهم شاجي وقيني قرانس. كانوا هم أيضًا قد تأهَّبوا للأمر بارتداء سُترات مصنوعة من جلود الحيوانات، وأحذية خشنة بها حوافر تتناسب مع طبيعة الأرض الطينية، وفي يد كلٍ منهم عصا كبيرة تساعده على الإتزان عندما يتكئُ بها على الأرض. بدت الأجواء مبهجة، غير أنَّها مرعبة في الوقت ذاته، فالأمطار المتساقطة فوقهم كانت تتزايد بشكلٍ ملفت، والأشجار العملاقة تُصدر حفيفًا مهيبًا، كما أنَّها مُتشابكة الأغصان بطريقة تحجب أشعة الشمس تمامًا بالإضافة إلى انتشار الضَّبَابِ من حولهم مما جعل الظلام يخيم على كل شيء. إلَّا أنَّ الزعيم كوامي طمأنهما بأنَّ هذه أجواءٌ مُعتادٌ عليها في مثل هذه الأوقات من العام، وأن الغابة تبتلع كل هذه المياة في

غضون ساعات، كأنَّ شيئًا لم يكن. في هذه الأثناء، التفتتْ شاجي إلى ڤرانس الذي كان يهرول من خلفها مُمسكا بالكاميرا بين يديه، وتمنطقتْ بشفتيها المبللتين بماء المطر كأنَّ شيئًا حلوًا على لسانها، وقالت مؤكدة بإشارة من يدها:

- ڤرانس، لا تدع شيئًا إلَّا وصورتَه، إيَّاك أن تفوِّتَ شيئًا

بعد السير لما يقرب من ساعتين كاملتين في الغابة، على منحدرات صعبة، تحت الأمطار الغزيرة، أوقفهما الزعيم على تلَّةٍ صغيرة، فتراءتْ لهما أودية كبيرة مُحاطة بالأشجار غريبة الشكل من كل اتجاه، وكان المنظر ساحرًا، إذْ أنَّ الأشجار لها ثمار وأوراق متباينة الألوان والأحجام، والأرض أمامهما بدت كبساطٍ أخضر كبير وإنْ وُجد فيها بعض المنحدرات والمرتفعات، وفوقها قطعان من الماشية التي لم يسبق لهما رؤيتها من قبل، فالغزلان الذهبيّة بقرونها العاجيّة الطويلة في كل مكان، والجاموس البري الأحمر بأنيابه العاجيّة التي تُشبه أنياب الفيلة منتشرٌ بالآلاف. كان المنظر مُهيبًا، جعل شيئًا من القلق يستبد في أعين شاجي



وقرانس، فطمأنهما الزعيم بأن هذه الأرض شأنها شأن أغلب أرض البانتو، لا تعيشُ فيها الحيوانات المفترسة وكل ما تراه أعينهما هي حيوانات أليفة مُستأنَسة. ثم أشار باتجاه ممرٍ جانبيٍّ يتوسط حشائش تُشبه السافانا لكنها زهرية اللون كالخزامى، وكان الممر منحدرًا للأعلى باتجاه قمة الجبل الصخري الذي يفصلُ بين أرض البانتو والبحر، وقال:

- جميع النباتات التي استخدمها الزعيم ماساي جُلبتْ من بين المسالك والدروب الجبلية في هذا المكان، وبعضها ينمو في مداخل الكهوف التي استخدمها قدماء البانتو قديمًا

عندما قَلَّ المطر، شرعوا في صعود الجبل، فتراءت لهم أعداد لا تُحصى من الإبل البيضاء وهي ترعى الكلأ، كانت أقل حجمًا من الإبل المعروفة، ولها رقبة أقصر طولًا غير أنّها ناصعة البياض أكثر من أي حيوانٍ آخر رأوه في حياتهم، وقفوا وقد اعترتهم حالة من الدهشة الشديدة الممزوجة بالبهجة الواضحة تمامًا في وجوههم.



أشار الزعيم كوامي إليها، وقال:

- هذه الإبل، كنز جزيرتنا التي لا يفنى، فهي أهم الحيوانات على سطح الجزيرة، إذْ تعطي اللبن طوال العام، ولها لحوم ألذ وأشهى من لحم الغزلان

في تلك اللحظة، نظرث شاجي نحو قيني قرانس، وأومأتْ تسأله إنْ كان يصور كل شيءٍ أم لا، فأوما بدورهِ إليها هازًّا رأسه، في إجابة منه بأنّه يصور كل شيء، فأومأث له مرّة أخرى وهي تشير باتجاه قطعان الإبل تؤكد عليه ضرورة تصويرها.

بنبرة صوتٍ رتيبة، قال الزعيم كوامي بعدما لاحظ إيماءاتهما المتكررة:

- هذه الأرض هي بقايا جنتنا، أبقيناها سرًا طوال السنين المنصرمة، ولا ينبغي لأحدٍ غيركما أن يعرف بمكانها، ولولا وصيّة الزعيم ماساي، ما سمحنا لياو بأن يتواصل معكما أو أن يدلكما على مكاننا

هزّت شاجي رأسها وقالت:



- لقد تعاهدنا أثناء المجيء إلى هنا، ألَّا نبث شيئًا يدل على المكان، وألَّا نذكر كيفية الوصول إليه مُطلقًا. ولك كلمتنا

في تلك اللحظة، رنَّ هاتف شاجي مُعلنًا وصول اتصال، ردت من فورها وهي تنزوي عن الباقين. سمعها قرانس وهي تخبر من يتحدث إليها بأنَّها أخيرًا وصلتْ إلى المكان حيث تنمو فيه النباتات المبتغى الحصول عليها، فطالبها المُتحدِّث عبر الطرف الآخر بأرسال موقعها بالتحديد على الخريطة، نظرتْ إلى قرانس ورددتْ: «تريد موقعًا مُحدَّدًا للمكان؟». قالتها بصوتٍ تعمدتْ رفعه كي يستطيع قرانس سماعه وكأنَّها تسأله، إنْ كان عليها فعل ذلك أم لا. فقطَّب حاجبيه وتجهَّم لإبداء الاستياء وعدم الرِّضا وهز رأسه نافيًا وهو يشير بكلتا يديه بعلامة الرفض، فردَّتْ عبر الهاتف:

- إذًا، سوف أرسله لك لاحقًا

أثناء تسلقهم الجبل، واقترابهم من الكهوف، تراءت لهم النباتات التي يبحثون عنها، فأمر الزعيم كوامي رجاله



بجمع أكبر قدر ممكن من هذه النباتات وبذورها في شكائر من القماش كانوا قد جلبوها معهم خصيصًا لهذا الأمر. وبينما شرع الرجال في تنفيذ أمر الزعيم، انهمك ڤرانس في تصوير كلِّ شيءٍ يراه، مُستغلًا موقعه المرتفع. بدأ بتصوير الوادي المنخفض من الأعلى، ثم صور قطعان الغزلان الذهبية والجاموس البري، وكانت قطعان الإبل منزوية في أكثر الأماكن انخفاضًا عن سطح الأرض بين مرتفعات صخرية لكنها مليئة بالأعشاب والنباتات.

في هذه اللحظة، نظرتْ إليه شاجي من الخلف نظرة فاحصة، وتساءلتْ في نفسها إن كان استياؤه ورفضه إرسال موقعهم إلى صديقها في كندا ما هو إلَّا نوعٌ من الغيرة، وأن شيئًا ما لن يحدث إذا ما أرسلتْ له الموقع، فهو بعيدٌ جدًا في أقصى شمال الكرة الأرضيّة بينما هذا المكان النائي الغائب وسط الأدغال والأشجار موجودٌ في أعماق أفريقيا في جنوب الكرة الأرضيّة. فأخرجتْ هاتفها، دلفتْ إلى خرائط جوجل، حددتْ المكان على الخريطة، نظرتْ إلى ڤرانس نظرةً ذات



مغزى وهي تتساءلُ في نفسها إنْ كان عليها أن تثق في رؤيته أم ترسل الموقع.

بعد منتصف النهار بوقت قصير، وعندما هدأت الأمطار، جلسا مُتقاربين أسفل بعض الأشجار المثمرة، في مكانٍ مرتفع قليلًا عن بقية الوادي وقريب، إذْ يُمكنهما من رؤية الحيوانات، وشرَعا في تناول بعضٍ من ثمار الشجر إلى جانب شيءٍ من الطعام الذي جَلَبه رجال الزعيم كوامي معهم. استأذنتْ شاجي الزعيم في أن يقص عليهما شيئًا من تاريخ وقصص البانتو موغلة القدم، بينما أومأتْ إلى ڤيني ڤرانس أن يبدأ بثًا مُباشرًا عبر قناة اليوتيوب (هذه أفريقيا) ويصور هذا اللقاء الذي لن يتكرر أبدًا.

أغمض الزعيم عينيه، وشرع يتحدث بطريقة أوحت كأنَّه يتذكر أشياءَ حدثت له هو نفسه، على الرَّغم من أنَّه تحدث عن زمنٍ سَحِيق، قال إنَّ تاريخ أجداده المعلوم في أفريقيا يعود إلى ما قبل الميلاد بعشرة آلاف عامٍ أو يزيد قليلًا، والمجهول قد يكون أقدم من ذلك بكثير، وأنَّ هناك كهوفًا في أماكن متفرقة من



أفريقيا منقوشًا عليها تاريخ وقصص البانتو الأوائل، وهناك لفائف مصنوعة من جلود الضباع التي لا تفنى مكتوب فيها كثيرٌ من أسرارهم؛ كيف عاشوا جنبًا إلى جنب مع الحيوانات الضارية بل واستأنسوها، كيف صنعوا المفروشات من جلود التماسيح العملاقة التي كانت تحيَا في أنهار أفريقيا، وكيف برعوا في الطب باستخلاص زيوتٍ من الأعشاب والنباتات الجبليّة النادرة. واسترسل في حديثه عن التاريخ الذي اعتبره حديثًا على حد قوله، فقال: جئنا قريبًا إلى شاجي قبل ألفَي عام، أي قبل المسيح، وعشنا لقرون كثيرة، لم نكن نعرف شيئًا عن المسيح والأديان، الديانة الوحيدة التي نعرفها هنا، هي الإنسانية، والتي تنص على أنَّ جميع البشر سواسية، لا يحق لأحد أنْ يؤذي أحدًا نهائيًا، وأن للحيوانات حق الحياة في أمان، وتمنع الصيد الجائر.

في هذه اللحظة، توقف الزعيم فجأةً عن سرد الكلام، والتفتَ ينظر بعينيه الثاقبتين في أحد الاتجاهات حيث اهتزت بعض أغصان الأشجار اهتزازًا عنيفًا وبدا أنَّ شيئًا ما قادمٌ باتجاهنا. وقف رجال الزعيم وتأهبوا



بعصيّهم، وقبل أن يستبد بنا القلق، ظهر ياو قادمًا يهرول من بين الأشجار ومن خلفه عابد. كانا مُكفهرّي الوجهِ، وقد بدا التعب في ملامحهما بطريقة أوحت أن شيئًا ما غير طبيعي قد حدث لهما.

بوَجْهٍ عابسٍ يبعث الريبة، توجه ياو صوب الزعيم مباشرة، وانْزوى بهِ مُبتعدًا عنا بضع خطواتٍ دونَ أنْ ينبِسَ ببنتِ شفةٍ أمامنا، بينما توجه عابد صوبنا. تحدث ياو للزعيم بكلماتٍ لم نستطع سماعها، فالتفتَ الزعيم إلينا وقد تقلّصتْ أساريرُ وَجههِ وبدت فيهِ نظرة تنم عن ندم وربما اتهام.

نظرتْ شاجي إلى عابد نظرة ذات مغزي تسأله إنْ كان يعرف شيئًا، فرد من فوره، قال:

- في وقتٍ متأخرٍ من نهار الأمس، بينما كنا متوجهين إلى هنا بعد أن خرجنا من قرية ياو، سمعنا صوت طائرةٍ هِليكوبتر تقترب، ثم توقفتْ محركاتها وفُقِد الصوت. تسللتُ خلف ياو باتجاه آخر مصدر للصوت، وجدناها وقد حطّتْ في مكانٍ متوارٍ عن الأنظار بين



الأشجار على جانب الجبل، وإلى جوارها مجموعة من الغرباء الأجانب، بملابسَ مموهةٍ ويحملون السلاح، بدوا من النظرة الأولى جنودًا مرتزقة

سأل ڤرانس وقد توجس خيفة:

- وماذا بعد؟

ردَّ عابد:

- راقبناهم طوال الوقت المتبقى من النهار، وطوال الليل، كانوا يتنقلون في المكان يتفحصونه ويستطلعون أمره، كأنَّهم يبحثون عن شيء، وبدا ذلك واضحًا في استخدامهم تلِسكوبات للنظر في كل اتجاه استطاعوا النظر إليه

في محاولة منها لأن تُحسن الظن، قالت شاجي:

- لماذا لا يكونون مكتشفين أتوا لاكتشاف هذا المكان النائي المعزول؟ أو أنَّهم مثلك يا عابد، قادمون من قِبَل شركة ما بغرض البحث عن ..



قبل أن تنتهي من حديثها، صدح صوت الطائرة وهي تقترب، التفتَ الجميعُ إلى مصدر الصوت، فتبيَّن لهم أنَّه قادم من خلف الجبل الصخري الفاصل بين الجزيرة والبحر. ظهرت الطائرة وهي تحط في مكانٍ ما أعلى الجبل. هبط منها ثلاثة جنود ملثمين بملابس مُموَّهةٍ، حاملين أسلحتهم المتطورة خلف ظهورهم، وشرعوا في زراعة شيءٍ ما في ثقوبٍ صنعوها في أماكن متفرقة في سطح الجبل وعلى جانبيه.

لم يكن الزعيم كوامي الذي تَوارى خلفَ الأشجار، ليس خوفًا إنَّما حرصًا أن يظل أمر وجودهم في الجزيرة سرًا، قد فهم ما الذي يفعله هؤلاء الجنود، بينما تبادل كلٌّ من قيني قرانس وعابد وكذلك شاجي نظراتٍ ذات مغزى وكأنَّهم يتساءلون إن كان ما يتوقعونه صحيحًا أو أنَّه مجرد خيالٍ واسع ووهم في عقولهم، إذْ خيِّل لهم أن هؤلاء الجنود يزرعون عبواتٍ ناسفة بغرض تفجير جزء من الجبل الفاصل بين مياه البحر والجزيرة، والذي من شأنه أن يغرق أرض البانتو بأكملها إذا ما تهدم.



بعد لحظاتٍ قليلة، زمجرَ الرعدُ بشدة وكأنَّ السماء قد غضبتْ، وعاودتْ الأمطار سقوطها من جديد بغزارة أشد مما كانت عليه طوال اليوم. في هذه اللحظة، ارتفعت الطائرة مُحلقةً في الفضاءِ ومبتعدةً عن المكان، وما هي إلّا دقائق قليلة وتوارت عن الأنظار خلف الجبل. وبينما ينظر الجميع إلى بعضهم البعض مستغربين أمر الطائرة والجنود وقد استبدَّت بهم رغبة الصعود إلى قمة الجبل من أجل تبيُّن الأمر، دوى صوت انفجارٍ شديد ومريع تحطم على إثره جزءٌ صغيرٌ من الجبل، فبدأت مياه البحر تندفع بقوة شديدة من الأعلى وتسقط إلى داخل الجزيرة المُنخفضة. إلَّا أنَّ الانفجار لم يأتِ بالنتيجة التي رغب فيها المخربون، إذْ تسببتْ مياه الأمطار في إبطال مفعول بعض العبوات الناسفة التي زرعوها، والتي كان من شأنها أن تحطم جزءًا كبيرًا جداً من الجبل، مما يترتب عليه غرق الجزيرة بأكملها في ساعاتٍ قليلة.

وقف الزعيم كوامي مُتسمرًا في مكانه وقد بدا رد فعلٍ على وجهه مصعوقًا لا يعرف ماذا يفعل، بينما ذُهل

ڤيني ڤرانس، وبدا في وجهه رد فعلٍ من هول الصدمة وكأنَّه قد تلقى صفعة شديدة، أمَّا شاجي فتجمدت الدموع فى عينيها وهى لا تصدق ما تراه.

عند حدوث الانفجار، تناثرتْ قطعٌ من الصخور، مُتباينة الأحجام والأشكال، وسقطتْ فوق جموع الإبل، فتسببتْ في موت بعضها على الفور وتأذي بعضها الآخر. جميع الحيوانات شرعتْ في الهروب من المكان صوب الأماكن المرتفعة من الغابة، إلَّا الإبل، وحدها بقيتْ حيث هي، بأكثر الأماكن انخفاضًا في الجزيرة. مع هبوط الأمطار الشديدة، وتدفق المياه من فتحة الجبل التي تسبب فيها الانفجار، بدأت المياه تتجمع في الوادي المنخفض ويرتفع منسوبها شيئًا فشيئًا، مما جعل الإبل تواجه خطر الغرق إنْ بقيتْ في مكانها لدقائقَ أُخَر.

كانت زخات المطر تتزايد، كلما دوى صوتُ الرعد مُجدَّدًا، كما أنَّ صوت الهواء مع حفيف الأشجار كان مهيبًا، مما جعل حالة ارتباك وتوتر شديدة تتفشى في المكان، بيد أنَّ الإبل لم تبرح مكانها.

هرول الزعيم كوامي ورجاله باتجاه الإبل، خاضوا في المياه التي ارتفع منسوبها لما يقرب من نصف متر حين وصلوا إليها، حاولوا دفعها للهروب بعيدًا عن الوادي المنخفض، إلا أنَّها لم تستجبْ لهم.

كانت شاجي وقيني قرانس كلٌّ منهما ينظر نظرة مليئة بالحسرة نحو الآخر وهو لا يعرف ماذا يفعل.

قالت شاجي مُتحدثةً عن الإبل:

- وكأنَّها تريد أن تغرق

رد عابد وقد بدت في رأسه فكرة كأنما كانت تائهةً عنه، قال:

- بالفعل، إنَّها تنتحر

نظرا إليه مستغربين، فأضاف بلهجةٍ وكأنَّه يتحدث إلى نفسُه:



- الإبل حيوانات عزيزة النفس، عندما يُغضبها أحدٌ ما فإنَّها تُطاردة وتستمر في ركله حتى الموت، أو أنْ يتخلى عن ملابسه ويلقيها لها أرضًا كنوعٍ من الاستسلام، فتستمر في ركل تلك الملابس وكأنها تعبر عن غضبها، وإذا لم تستطع فعل ذلك فإنَّها تنتحر بالإضراب عن الطعام أو بضرب رؤوسها في الأجسام الصلبة. هذا ما سمعتُه ذات مرة من جدي، وقد كان رجلًا عليمًا بأمور الإبل إذْ أنَّه من قبيلة امتلكت أعدادًا غفيرة من الإبل لسنواتٍ طوال

بلهفةٍ شديدة، وقد استبدَّ الخوف في عينيها التي لمعتْ بالدموع، قالت شاجي :

- هذه الإبل هي ثروة شعوب البانتو، وكل ما يملكونه، ألا يوجد سبيلٌ لإنقاذها؟

تكلَّم عابد بتحمُّس دالٍّ على خير، موضحًا أنَّه كان يعيش بين الإبل على مدى عشرين عامًا في قبيلته بالسعودية، وأنَّه مايزال يتذكر تلك اللغة والإشارات



التي كان جده ورجال القبيلة يستخدمونها عند رعي الإبل في الصحراء.

انحدرتْ دمعة من عين شاجي وسالت على خدِّها حين رأت الزعيم كوامي ورجاله يصارعون الماء من أجل إنقاذ الإبل دون فائدة، أرادت أن تصرخ باكية إلَّا أنَّها فتَّشتْ عن صوتها ولم تجده، فنظرتْ إلى ڤرانس نظرة استجداء، أرادت أن تطلب منه أن يفعل شيئًا، لكنها هزَّت رأسها لا تقوى على الكلام. فهمها ڤرانس الذي أعطاها الكاميرا من فوره وكانت الكاميرا ما تزال تعمل وما يزال البث المباشر على اليوتيوب قائمًا وملايين من البشر قد استدعوا بعضهم البعض لمشاهدة ما يحدث. نظر إلى عابد وقد شعر أنَّ باستطاعته فعلَ شيءٍ ما لكنه متردد يرغب في من يشجعه، فصرخ فيه:

- ماذا تنتظر؟

ثم اندفع أمامه يجرى باتجاه الزعيم كوامي ورجاله بغرض مساعدتهم فيما يفعلونه.



انطلق عابد من خلفه، وخاضا في المياه التي ارتفع منسوبها أكثر مما كانت عليه قبل قليل. وصلا سويًا إلى الإبل، أمسك عابد بكوفيّةٍ كانت ملفوفة حول رقبته، وأخذ ينظر في الإبل نظرة فاحصة، يبحث عن القائد الذي يتبعونه، إذْ أنه يعلم أن للإبل قائدًا يمشون من خلفه أينما ذهب، وعندما رآه توجه صوبه مباشرة ومن خلفه ڤيني ڤرانس الذي ساعده على وضع الكوفيّة حول رقبته. ثم صدح عابد صارخًا بكلماتٍ غير مفهومة بدت إشاراتٍ أكثر منها كلمات، وشرع يسحب قائد الإبل الذي مشى من خلفه طوعًا وكأنَّه قد سحر له. في هذه اللحظة، اتبعث جميع الإبل قائدَهم الذي مشى من خلف عابد وڤرانس وسط ترقبٍ ودهشة من الزعيم كوامي ورجاله.

* * *

روسيا - يونيو 2018م

في تمام السابعة مساءً، بتوقيت مدينة سوتشي الروسية، وسط أجواء باردةٍ انخفضت فيها درجات



الحرارة إلى ما دون ثلاث درجات تحت الصفر، وعلى بعد سبع دقائق فقط من ملعب فيشت الأوليمبي، وهو ملعب كرة قدم يتسع ل 47,659 متفرجًا، وقفت المذيعة البلجيكية الشهيرة ميليسا، ذات العيون البنيّة والشعر الأسود، وسط حشودٍ غفيرةٍ من الجماهير البلجيكية التي أتت لتؤازر فريقها الوطني، تنقل في بثٍ مباشرٍ لحظات خروج بعثة الفريق البلجيكي من فندق إقامته وتوجهه إلى أرضية ملعب المباراة والتي ستكون ضد الفريق الوطني البنمي. كان الآلاف من المشجعين قد أتَوا من بلجيكا إلى روسيا بغيَة تشجيع الفريق، الكثيرون جدًا منهم حمل صورتي إلى جانب صورة كابتن الفريق هازارد، وكانت الاحتفالات قائمة طوال الوقت ليلًا ونهارًا حول الفندق. اقتربث المذيعة من حافلة الركّاب والتي وقفت على بعد أمتار قليلة من بوابة الخروج من الفندق، وقد تجمع حولها عددٌ كبيرٌ من المشجعين من أجل التقاط الصور التذكارية معها. كانت الحافلة من الأمام والخلف قد حَملتْ ألوان العلم البلجيكي، ومن الجانبين طُبعث عليها صورةٌ مُجمعةٌ للاعبي الفريق المشاركين في كأس العالم،



يتقدم اللاعبين في الصورة كلٌ من روم وكابتن الفريق إدين هازارد. افتتحتْ المذيعة حديثها الموجه إلى ملايين المشاهدين وهي تشير تحديدًا على صورتي وهازارد، وقالت:

- نعم لقد أصبحا واجهة المنتخب الوطني البلجيكي وأمل ملايين البلجيكيين في هذه الدورة من كأس العالم.

* * *

قبل أن تدق الساعة الثامنة، دلف لاعبو الفريقين إلى أرضيّة ملعب فيشت الأوليمبي، وبينما توجه جميع اللاعبين نحو منتصف أرضية الملعب لإقامة الطقوس الخاصة بنا قبيل كل مباراة، تخلفتُ عن اللحاق بهم لثوانٍ قليلة، إذْ توجهتُ نحو مدرجات الجماهير البلجيكية، حيثُ كانت أدولفين والأم چيني جالستين جنبًا إلى جنب بجوار السيد روجر، ووجب عليَّ إقامة طقوسي الخاصة بأخذ جرعة حماسٍ زائدةٍ عبر النظر في وجه أدولفين وجعل روجر يشعر أن حلمه يتحقق



وإن لم يكن بيده فبيد أحد أبنائه. بعد دقيقتين، بدأت المُباراة، وكانت بداية حماسية من جانب كلا الفريقين، إلّا أن منتخب بلجيكا كان أكثر تناغمًا وانسجامًا واحترافية من نظيرة البنمي الذي بدا متواضعًا كثيرًا في طريقة لعبه. في الدقيقة السابعة والأربعين من عمر المباراة استطاع درايز ميرتنز الجناح الأيمن للفريق أن يسجل هدف بلجيكا الأول، وفي الدقيقتين التاسعة والستين والخامسة والسبعين استطعتُ أن أضيف هدفين آخرين لصالح الفريق، لتنتهي المباراة الافتتاحية لمنتخب بلجيكا في كأس العالم، بالفوز على بنما 3-0 وبتفوقٍ تامٍ طوال وقت المباراة جعل جميع الفرق المنافسة تنتبه لنا جيدًا.

انتهت المباراة ولم ينتهِ صداها، إذْ تحدَّثت جميع الصحف العالمية لثلاثة أيَّام متتالية عن المباراة التي وصفوها بالاستعراضية من جانب المنتخب البلجيكي الذي فرض هيمنته طوال التسعين دقيقة على فريق بنما المنافس، وكيف كان لنا أن نحرز أهدافًا أكثر إذا ما استغللنا الفرص المهدرة. كما أن بعض الصحف



والمواقع الإخبارية بدأتْ في وضع إحصائياتها ورهاناتها على أن بلجيكا ستكون هي الحصان الأسود للبطولة، هذا إن لم تحصل عليها.

* * *

أرض البانتو - يونيو 2018م

لخمسة أيَّامٍ مُتتالية، وسط أجواء شديدةِ الحرارة مرتفعة الرطوبة، استبدَّ بشاجي حزنٌ شديدٌ للغاية أخذ يتضاعف ويتضاعف كلَّما تذكرتْ أمر فقدانها حقيبة الأبحاث أثناء انشغالها بتصوير حادثة التفجير وما تلاها من إنقاذٍ لقطعان الإبل. وازداد حزنها حينما حملتْه في نفسها دون أن تُبديه لأحد، فقد وجدتْ أن عليها كتمان الأمر عن الجميع، فمصيبتهم أكبر من مصيبتها. إلَّا أن أكثر ما آلمها، كانت نظرات اللوم الدائم من جانب ڤيني ڤرانس بعدما أمسك بهاتفها واكتشف مخالفتها لرجائه لها بألَّا ترسل خريطةً بموقعهم لصديقها الكندي. بيد أنَّه أخذ يخبرها مرارًا بأن

صديقها هو من باعها لإحدى الشركات الدوائية الكبرى وأن هذه الجهة هي من قامت بتفجير السد.

في صباح اليوم الخامس، أثناء واحدٍ من الاجتماعات المتتالية والمستمرة منذ خمسة أيَّام، بين الزعيم كوامي والحكماء من أفراد شعبه، بالإضافة إلى عابد وقيني قرانس، والتي كانوا يتشاورون فيها حول كيفية إيجاد حل لبناء الجزء المتهدم من الجبل، أو أنَّ عليهم مغادرة أرضهم والبحث عن أرضٍ جديدة.

حضر أحد الرجال إلى الزعيم، وكان ضمن عددٍ من الرجال أُسند إليهم مراقبة المياه المتدفقة من الجبل، وإلى أيّ حدٍ وصلتْ، تحدث وكَانت أساريرُ وجههِ تعبّرُ عن الارتياح، قال:

- لقد انحسرتْ المياه عن الجبل رويدًا رويدًا منذ الأمس، واليوم توقف اندفاعها تمامًا، ولم تعد قطرة مياه واحدة تتساقط من فوق الجبل

نظر المتواجدون إلى بعضهم البعض باستغراب، غير مصدقين ما يسمعونه، إلّا أنَّ عابد تدخل قائلًا في أسف مقللًا من قيمة ما قاله الرجل:

- إنَّها أيَّام الجزر

نظر إليه أحدهم وهو لا يفهم ما يعنيه، فأضاف عابد:

- المد والجزر ظاهرة طبيعية من مرحلتين، تحدث لمياه المحيطات والبحار. مرحلة المد يحدث فيها ارتفاع وقتي تدريجي في منسوب سطح مياه المحيط أو البحر. ومرحلة الجزر يحدث فيها انخفاض وقتي تدريجي في منسوب سطح مياه المحيط أو البحر. هذه الأيَّام هي أيَّام الجزر، لذا انخفض منسوب المياه

تدخل قرانس، تحدَّث وهو ينظر إلى عابد بلهجة من يحسب الحسابات بدقة، قال:

- حدث التفجير قبل خمسة أيامٍ من الآن، أي في بداية الأسبوع الثالث من الشهر القمري، وهو الوقت الذي يتضاءل فيه المد ويضعف، ونحن الآن في نهاية



الأسبوع الثالث وهو الوقت الذي يضعف فيه المد تمامًا، لذا انحسرت المياه

توقف عن الحديث للحظات وبدا رد فعلٍ في وجهه كأنَّ صاعقة قد ضربتْه، وأضاف:

- أي أنَّ الأسبوع القادم سيكون الأسبوع الرابع من الشهر القمري، وسوف يعلو المد إلى أقصى دورته نظرًا لوقوع الشمس و القمر في جهة واحدة

أضاف عابد:

- والكونغو هي إحدى أكبر الدول الاستوائية في أفريقيا، أي أنَّ منسوب المياه وقت المد قد يصل إلى مائتي سنتيمتر

لم يكن أحدٌ من الحاضرين قد فهم ما يعنيانه بحديثهما، إلَّا أن فرانس أخذ يشرح لهم أن التخريب حدث في وقتٍ كان فيهِ منسوب مياه البحر في تضاؤل وانحسار عن الشاطيء نتيجة ظاهرة كونية مرتبطة بالشمس والقمر، وأنَّ هذه الظاهرة سوف



تتلاشي وتنعكس خلال أسبوع واحد ويعاود منسوب مياه البحر ارتفاعه مرة أخرى، وسوف يرتفع عما كان عليه، أي أنهم سوف يواجهون خطر الغرق المؤكد لو لم يعيدوا ردم الفتحة في الجبل مرة أخرى أو مغادرة أرضهم.

قال الزعيم بإصرار:

- لن نغادر أرضنا، من الصعب علينا أن نحيا في أرضٍ أخرى غير هذه

ران من جانبه صمتٌ مَشُوبٌ بالتفكير، قبل أن يضيف:

- لدينا مئات الرجال الأشداء، بوسعهم تسلق الجبل والعمل على ردم الفتحة وإقامة السد مرة أخرى

قال عابد بصوتٍ رتيب:

- لا أظن أن الأمر بهذه السهولة أيها الزعيم، فلم يذهب أحدنا إلى هناك ويرى حجم التخريب والتدمير الذي



حدث، بيد أنَّ قوة اندفاع المياه عندما يتزايد منسوبها، ستكون على غير ما رأيتموه قبل أيَّام

لم يكن عابد مجرد شخصٍ عاديٍّ، إذْ أن عمله في مجال الحفر والبحث عن الغازات لسنواتٍ طوال، أثقله خبرةً في مثل هذه الأشياء، وجعله يعرف أي الأماكن يمكن الحفر فيها أو الردم، والمدد التي قد تستغرقها مثل هذه الإصلاحات.

قال ڤرانس موجهًا حديثه لعابد وقد اشتعل فيه حماسٌ شديد:

- إذًا لنذهب على الفور باتجاه الجبل، وتقم أنتَ بتقييم الأضرار التي لحقتْ به وتخبرنا إنْ كنا نستطيع إصلاحًا أو لا

في منتصف نهار اليوم نفسه، توجه عابد وقيني ڤرانس صوب الجبل بمرافقة ياو وبعض الرجال الذين وضعهم الزعيم كوامي في خدمتهم . بينما مشت شاجي من خلفهم بعدما أصرت على مرافقتهم، وكان



إصرارها الزائد نابعًا من كونها تود تصوير كل خطوة تُتخذ في هذا الشأن لسببين؛ الأول هو إنجاح قناة ڤيني ڤرانس أكثر وأكثر خاصة بعدما أصبحتْ مُتابَعة من قبل ملايين البشر الذين يرغبون في معرفة ما يحدث ومستجداته، وثانيًا هي لا ترغب في أن يضيع حلمه كما ضاع حلمُها في تنفيذ وصية والدها.

بتسلق الجبل ومعاينته، اكتشف عابد أن الأجزاء المتضررة يستحيل إصلاحها بالأيدي البشرية فقط دون الحاجة إلى مُعداتٍ حديثة، حيث إنَّ أجزاءً كبيرة من الجبل قد تصدعتْ بفعل التفجيرات. كما رأي أن عودة المياه وقت المد، مع بعض الأمواج القوية، قد تتسبب في انهيار جزء آخر من الجبل، ويتحول الأمر إلى كارثة تطيح بكل ما في الجزيرة.

لدى عودتهم إلى الزعيم كوامي وإخباره بما وجدوه، لم يجد الزعيم، الذي بدتْ في عينيه نظرات حزنٍ ووهنٍ لم يستطع إخفاءها، مفرًا من إخبار شعوب البانتو بأن يتجهزوا لمغادرة أرضهم والتوجه إلى أماكن



أخرى في جزيرة شاجي خارج جزيرتهم القابعة بين الجبال والتي ستغرق خلال أيامٍ قليلة.

* * *

روسيا - يونيو 2018م

في تمام الساعة الثامنة، على ملعب أوتكريتيي أرينا بمدينة توشينيو والمعروف باسم «ملعب سبارتاك» وهو الملعب الرئيسي لنادي سبارتاك موسكو، وأمام اثنين وأربعين ألف مشاهد انطلقتْ مباراتنا ضد منتخب تونس العربي. قبل انطلاق المباراة، ذهبتُ مباشرة نحو المدرجات كما فعلتُ في سابقتها، وأخذتُ بركات الأم أدولفين ودفعة الحماس التي أستمدها كلما نظرتُ في وجهها.

كانت مباراة مجنونة منذ بدايتها، إذْ سجل هازارد هدف المباراة الأول في الدقيقة السادسة من عمر اللقاء من ضربة جزاءٍ صحيحة، بينما أضفتُ هدفين في كلٍ من الدقيقتين السادسة عشر والخامسة والأربعين، بينما أضاف اللاعب التونسي ديلان برون



هدفًا في الدقية الثامنة عشر، لينتهي الشوط الأول بنتيجة 3-1، وفي الشوط الثاني أحرز هازارد هدفًا في الدقيقة الحادية والخمسين، ثم أحرز اللاعب ميتشي بتشوابي هدفنا الخامس في الدقيقة التسعين من عمر المباراة، وفي الدقيقة الحادية والتسعين أطلق حكم المبارة صافرته عند وقوعي على الأرض داخل منطقة الجزاء مُعلنًا خطأ على لاعبي الفريق التونسي ومحتسبًا ضربة جزاء كان من شأنها أن تكون هدفنا السادس، إلّا أني نهضتُ على الفور وأخبرتُ الحكم أنَّها كرة عادية وأني من سقطتُ أرضًا دون تدخل اللاعب التونسي، لم أرغب في أن تزداد نتيجة المباراة أكثر من ذلك، حيث إن اللاعبين التونسيين هم أصدقاء في أندية أخرى والهزيمة الثقيلة في مثل هذه المباريات من شأنها أن تقلل من قيمهم التسويقية.

بعد خمسة أيَّامٍ من مباراة تونس، كانت مباراتنا ضد منتخب إنجلترا العنيد والمرشح لنيل البطولة، اتجهث أنظار العالم لتلك المباراة، إذْ أنَّها كانت الاختبار الحقيقي الأول لنا في هذه البطولة، ولم تكن مباراة



سهلة، فإنجلترا كانت تطمح في الحصول على المركز الأول في تلك المجموعة رغبة منها في مواجهة ثاني المجموعة المُقابِلة لنا وهو الفريق الأضعف، إلَّا أن اللاعب عدنان يانوزاي استطاع تسجيل هدف الحسم في الدقيقة الحادية والخمسين من عمر المباراة، لنتأهل بذلك كأول المجموعة ونقابل منتخب اليابان.

بعد خمسة أيَّامٍ أُخَر، أتت مباراة اليابان وكانت أصعب مما توقع أو تخيَّل الجميع، إذْ لعب اليابانيون كرة قدم ذات تكتيك عالٍ ومتقدم للغاية، إلى جانب أنهم امتلكوا لاعبين ذوي لياقةٍ بدنيةٍ عالية جدًا، مما أعطاهم الأفضلية طوال وقت المباراة، وفي الدقيقة الثامنة والأربعين في بداية الشوط الثاني، تمكن اللاعب چينيكي هاراجوتشي مِن إحراز هدف التقدم لصالح اليابان، وقبل أن نستفيق من صدمة الهدف، قام تاكاشي إينوي بإحراز هدفٍ ثانٍ في شباك فريقنا.

بدأت الجماهير البلجيكية الغاضبة والساخطة تصرخ، بعضهم هتف ضد اللاعبين، بعضهم بدأ يصرخ: «اللاعب الكونغولي لا يفعل شيئًا». واكتشفتُ أني



عندما أحرز الأهداف يقولون لوكاكو اللاعب البلجيكي، وعندما أتعثر يقولون اللاعب الأسود الكونغولي. لكنَّ شيئًا من هذا لم يقلقني أو يحرك مشاعري، ما أرقني بشدة في تلك اللحظات، هو عهدي مع أدولقين، لقد وعدتُها أن ألعب في كأس العالم، ولعبتُ فيما سبق في 2014، إلّا أن شيئًا ما بقيَ ناقصًا، فقد وعدتُها أن أحرز الأهداف في منتخب البرازيل، وفوزنا في هذه المباراة يجعلنا وجهًا لوجه مع منتخب البرازيل في الدور القادم، وعليّ الوفاء بالعهد.

توجهتُ نحو أدولقين، نظرتُ إليها في المدرجات وكان وجهها يتزين بضحكةٍ مزيفة ومُصطنعة، أعرفها تمامًا، لم يكن في يدها فعلُ شيءٍ غير ذلك. إلّا أني أومأتُ لها هازًّا رأسي يمينًا ويسارًا في إشارةٍ مني بأنّها ليست النهاية، النهاية لم تأتِ بعد.

بدت في عينيّ دمعةٌ مؤذيةٌ لم أستطع مقاومة نزولها، قلتُ لنفسي بنبرةِ صوتٍ غاضبة: «لا مزيد من الفئران» نعم، لا مزيد من الفئران، لن يتنمر عليّ أحدٌ بعد الآن، لن أعود إلى ضواحي أنتويرب، لم يخبرني أحدهم أني



أسود اللون. التفتُّ إلى أدولفين وأشرتُ لها هازًّا سبابتي،وقلتُ:

- من أجلكِ وحدكِ

توقف اللعب على إثر تصادم اثنين من اللاعبين استدعى تدخل الأطباء للاطمئنان عليهما، فتجمع اللاعبون بالقرب من صندوق زجاجات المياه بغيَة شرب الماء. ثم ساد صمتٌ غريب بين اللاعبين، الذين وقفوا ينظرون إلى بعضهم البعض في حسرة وكل منا غير راضٍ عن نفسه، يشعر بالخجل وأنَّه مقصر، وانتقل الصمت إلى الجماهير التي تعاطفتْ فجأة مع فريقها. وما إنْ أطلق الحكم صافرته آذنًا باستكمال اللعب، حتى أطلقتْ جموع الجماهير البلجيكية صافرات التشجيع وبدأتْ تنادي كل لاعبٍ فينا باسمه تحثه على بذل المزيد من الجهد. ثم أخذ هازارد كابتن الفريق يصرخ معي جنبًا إلى جنب في اللاعبين في محاولة لبث الحماس في نفوسهم. وما هي إلَّا دقائقُ قليلة وأحرز جان فيرتونجن هدفنا الأول في الدقيقة التاسعة والستين، مما أعاد الثقة لنا مرة أخرى وأعطانا

شعورًا أن الأمر ليس مُستحيلًا فهو لم ينتهِ بعد، وفي الدقيقة الرابعة والسبعين أضاف اللاعب مروان فيلايني هدفنا الثاني لنتعادل مع منتخب اليابان الذي انهار تمامًا أمام سيول الهجمات التي لا تتوقف من جانب فريقنا، وفي الدقيقة الرابعة والتسعين والأخيرة من عمر اللقاء، أضاف ناصر الشاذلي هدفنا الثالث، لتنتهي المباراة بنتيجة الفوز 3-2 ونتأهل للدور الذي يليه ونصبح وجهًا لوجه مع البرازيل التي فازت في مباراتها وتأهلت هي الأخرى لنفس الدور. ويصبح بذلك المنتخب البلجيكي حديث الصحافة العالمية في كل مكانٍ من العالم، والفريق المرعب والمرشح الأول لنيل البطولة.

* * *

أرض البانتو - يوليو 2018م

وصل المد أقوى مراحله، فارتفع منسوب المياه 140سم أخرى، مما تسبب في اندفاع المياه بقوة شديدة إلى داخل الجزيرة وإغراق جزء كبير منها. إلّا



أنَّ الزعيم وعشيرته حاولوا التمسك بأرضهم قدر المستطاع، وكان لديهم أمل بأنَّ بيوتهم في مكانٍ مرتفع قليلًا عن قاع الجزيرة ولذا فإنَّها قد تنجو من الغرق، إلَّا أنَّهم فكروا أن المياه سوف تُفسد لهم مزارع الذرة، وتغرق الأشجار المثمرة في الوادي المنخفض، غير أن الحيوانات بدأتْ فعليًا في الهرب من المكان، وبذلك سوف تمسي الحياة مستحيلة في أقرب وقت. بيد أن عابد حذرهم أن جزءًا كبيرًا من الجبل ازداد تصدعه، ومن الوارد أن ينهار في أي وقت.

في صباح اليوم التالي، شرع الزعيم وشعبه في تجهيز حالهم من أجل مغادرة أرضهم النائية والخروج إلى جزيرة شاجي في العراء، حالة من القهر والحزن كانت بادية في أوجه الجميع، كذلك عابد وشاجي وقيني قرانس، استبدَّ بهم الحزن على ما آل إليه الأمر. وبينما وقف قرانس وعابد يشاهدان في صمتٍ وأسى شعوب البانتو وهم يجمعون أشياءهم وينظرون نظرتهم الأخيرة إلى بيوتهم وأرضهم، لم تستطع شاجي تحمل رؤيتهم يغادرون أرضهم بعيونٍ غمرتها الدموع، فمالت



برأسها قليلًا نحو ڤرانس ونظرتْ إليه نظرةً غاضبة وقالت بنبرةِ صوتٍ مليئةٍ بالإصرار أتت من أعماقها :

- لن نبرح هذه الأرض

التفتَ عابد وڤرانس ينظران إليها مستغربين. فرددتْ حديثها بإصرارٍ أشدّ تعمدتْ أن تُبديه :

- لن نبرح هذه الأرض

ثم استرسلتْ في حديثها، قالت :

- من أتلف شيئًا عليه إصلاحه. عندما أتينا إلى هنا من أقصى الشمال المتقدم، طالبين العون من هؤلاء القوم الذين عاشوا في أقصى الجنوب المُتأخر، في حياةٍ بدائيةٍ هزيلة، لم يتوانوا للحظة في مد يد العون لنا، فهل يكون هذا جزاءهم؟ نخرب أرضهم ثم نتركهم ونرحل؟

نظر عابد وڤرانس إليها نظرةً ذات مغزى مفادها أنَّهما لا يفهمان شيئًا إلَّا أنَّهما كانا يشعران بالخزي من



نفسيهما. فأخرجت هاتفها المتصل بالأقمار الصناعية وأجرت اتصالًا من فورها، وهي تنظر إلى ڤيني ڤرانس وتخبره: أنا آسفة

لم يفهم ڤرانس سبب تأسفها إليه، إلّا أنَّه فهم كل شيء عندما شرعت تتحدث عبر الهاتف. إذْ اتصلت بجدها السيد دانيال لابروس في كندا، أخبرته بأنَّها ستكون تحت أمره وطوعًا له في أيّ شيءٍ يرغب فيه، بل إنَّها ستصرف النظر تمامًا عن محاولات تنفيذ وصيّة والدها، كما أنَّها ستخبره عن مكان تواجدها وستعود إليه إنْ أمر بذلك، كل ذلك شريطة أن يستخدم نفوذه في مساعدة بعض الناس في حل مشكلة ما تسببت لهم فيها.

انتهت المكالمة وقد حصلت منه على وعدٍ بالمساعدة في أقرب وقت، كما أنَّها أرسلت إليه موقعهم على الخريطة. في هذه الأثناء، أنزوى عابد عنهما قليلًا، ثم أجرى اتصالًا برؤسائه في العمل. أخبرهم بأنَّه أثناء زيارة بعض الأصدقاء في الجانب الآخر من جزيرة إيدچوي، التي تتوسط بحيرة كيبيڤو، العائمة بالكامل



فوق محيط من غاز الميثان، اكتشف مكانًا منخفضًا تمامًا عن سطح البحر، وهذا يمكنهم من استخراج غاز الميثان بأقل تكاليف ممكنة.

استطاعت شاجي أن تُقنع الزعيم بأن يبقى على أرضهِ لأيَّامٍ قليلة أخرى، وأكدث أن هناك من سيأتي ومعه المساعدة، وأن شيئًا ما لن يحدث لهم.

في وقتٍ متأخرٍ من نهار اليوم نفسه، وكان الحزن والإحباط قد أخذا منه كل مأخذٍ، دلف ڤرانس إلى قناة اليوتيوب الخاصة به، وكانت هذه مرَّته الأولى التي لاحظ فيها أن تعداد المتابعين والمشتركين في قناته تعدوا العشرين مليون إنسان، وأن قناته أصبحتْ مُتابَعة من كل بقاع الأرض، وأن أرباحًا مهولة تنتظره من يوتيوب. غير أن هذا لم يكن أهم ما لفتَ انتباهه، إذْ أن ما لفتَ انتباهه بشدة، كان صندوق الرسائل الوارة، فبمطالعته وجد رسائلَ عديدةً من جهاتٍ رسمية كبيرة مهتمة بما يبثه. كان أبرز هذه الجهات هي قناة ديسكفري (Discovery Channel) الأمريكية، والتي تبث برامج تلفزيونية ووثائقية خاصة



فيما يتعلق بالعلوم والتكنولوجيا والتاريخ، وقد وجد منهم أكثر من رسالة تطلب منه التواصل معهم من أجل أعمال مشتركة فيما بينهم، وكذلك قناة ناشيونال جيوغرافيك المختصة أيضًا بعالم الحيوانات والوثائقيات، كذلك قناة أنيمال بلانت (AnimalPlanet) وقناة التاريخ التلفزيونية (History).

في هذه الأثناء، أضاءت في عقله فكرة مجنونة، شرع في تنفيذها على الفور. إذْ قام بعملِ بثٍّ مُباشرٍ بعدٍّ تنازليٍّ مدته ساعتان، ووضع في خلفية هذا البث صورةَ للغابة وهي تغرق وتتوسطها كلمةٌ واحدةٌ، ألَّا وهي (Help). بعد انقضاء الساعتين، كان ملايين البشر قد تأهبوا لرؤية ما يستنجد منه صاحب هذه القناة التي تبثُ أشياء غريبة عن كائناتٍ غريبة ومن مكانٍ غريب. كذلك القنوات العالمية التي كانت تتابع الأمر، تأهبث هي الأخرى للحدث.

كان المساءُ قد أوشك، والشمس مالت إلى الغروب واتخذث اللون الأحمر، عندما ظهر ڤيني ڤرانس بنفسه



لأول مرَّةٍ في بثٍ مُباشرٍ على قناته، وكان واقفًا فوق تلةٍ صغيرةٍ، مكفهر الوجه، وقد استبدَّ به التعب الشديد، ومن خلفه بدت فتحة الجبل والماء يندفع منها بشدة إلى داخل الجزيرة. ثم شرع يتحّدث مطولًا إلى ملايين المشاهدين عما حدث منذ وصوله كينشاسا وحتى هذه اللحظة، واختتم بثّه المباشر بطلب النجدة لمساعدة هؤلاء القوم.

* * *

روسيا - يوليو 2018م

قبل ما يقرب من ساعة ونصف من بداية مباراتنا مع البرازيل، وصلت بعثة فريقنا إلى ملعب كازان أرينا الواقع في قازان، تتارستان، روسيا، والذي حوّى خمسة وأربعين ألف متفرج.

لا يوجد ما هو مثيرٌ للبهجة في النفس أكثر من تحقيق الأحلام، الوصول، البلوغ، الوقوف فوق الأرض الصلبة التي سعينا دائمًا واجتهدنا من أجل أن نصل إليها، وقد كان هذا هو الشعور المسيطر عليّ طوال الوقت منذ



انتهتْ مُباراتنا بالفوز على اليابان وأصبحنا أخيرًا وجهًا لوجه مع البرازيل. إلَّا أن شيئًا ما عكر صفو هذه الأمسية وهذه الليلة، عندما تخلفتْ أدولقين عن حضور المباراة منذ بدايتها، قلتُ في نفسي ربما تأخروا نتيجة ظرفٍ ما، ولم يكن ثمَّة وقت أستطيع فيه التواصل معها أو مع روجر أو حتى الأم چيني، حيث مُنع عنا استخدام الهواتف من أجل التركيز فقط في المباراة.

وقفتُ داخل أرضيَّة الملعب أشاهد الجماهير التي ملأته عن بكرة أبيه، وقلت: «آهٍ يا جدي، لو أنَّك هنا الآن». قبل أن أُضيف: «اليوم يفخر روجر بما فعلتُه، اليوم سوف يرى نفسه فيَّ».

بدأت المُباراة في تمام التاسعة بتوقيت قازان، وفي درجة حرارة هبطتْ ما دون السبع درجات تحت الصفر، إلَّا أنَّ الروح القتالية والحماس بالغ الأثر في نفوس اللاعبين، محا أثر تلك البرودة. واتجهتْ أنظار العالم إلى هذه المباراة التي قيل عنها أنَّها النهائي المبكر لكأس العالم، فالبرازيل حاملة الألقاب الكثيرة



والمتربعة على عرش كرة القدم في العالم، في مواجهة الجيل الذهبي لبلجيكا وطموحات روميلو لوكاكو وإيدين هازارد.

في هذه المباراة شعرتُ أنَّ الرب يقف إلى جانبنا، ففي الدقيقة الثالثة عشر، قام فرنانديينيو لاعب البرازيل بتسجيل هدف بالخطأ في مرماه، لنتقدم في وقتٍ مبكرٍ من عمر المباراة، إلَّا أن الهدف جعل لاعبي البرازيل يصابون بالجنون، وبدأوا يشنون الهجمات علينا واحدة تلو أخرى دونما أي تراجع أو تهاون، إلَّا أن الدقيقة الحادية والثلاثين كانت صعبة وقاسية عليهم، إذْ ضربهم كيفين دي بروين بقذيفة كروية من قدمه استقرت الكرة على إثرها داخل الشباك وسط صدمة وذهول لاعبي البرازيل وملايين من مشجعيهم في العالم. فيما بين الشوطين، تواصلتُ مع روجر، وعلمتُ أنَّ تأخرهم عائدٌ لإصابة أدولفين بمرض الإنفلونزا الشديدة، وأنَّ هذا فقط ما أخرهما عن حضور المباراة، إلَّا أنَّه قال: نحن في الطريق إليك الآن ونشاهد المباراة عبر الهواتف.



مع بداية شوط المباراة الثاني، لاحظ المدير الفني روبيرتو مارتينيز تشتتي في الملعب وعدم تركيزي، فتركني لمدة خمس عشرة دقيقة ثم قام باستبدالي بلاعبٍ آخر. واستمر أمر تأخر فريق البرازيل بهدفين حتى الدقيقة السادسة والسبعين من عمر اللقاء، إلى أنْ استطاع ريناتو أوغستو تسجيل هدفٍ في مرمانا.

ظن البرازيليون أن الهدف قد قربهم منا وأعاد لهم شيئًا من الأمل المفقود، وأننا سوف نتراجع للدفاع، إلّا أن منتخبنا أخذ رد فعلٍ معاكسٍ تمامًا لما توقعوه، فبادرنا بالهجوم عليهم، واتخذنا موقف المهاجم طوال الخمس عشرة دقيقة المتبقية. إلى أن انتهت المباراة بتأهل بلجيكا للمربع الذهبي في كأس العالم، وحدد لنا مواجهة منتخب فرنسا في دور الأربعة.

* * *

في صباح اليوم التالي، انتقلنا إلى الجزء الغربي من جزيرة كريستوفسكي بمدينة سانت بطرسبرغ، حيثُ حُدد لنا خوض مباراتنا المرتقبة ضد فرنسا، على ملعب



زينيت أرينا. وخلال ثلاثة أيَّام، ساء حال أدولفين تمامًا وتحولتْ الإنفلونزا إلى إلتهابٍ رئوي حاد، وتم حجزها بالمستشفى في صباح اليوم الرابع ووضعوها أسفل أجهزة التنفس الصناعي. وعلى الرَّغم من طمأنة الأطباء لنا عن حالتها إلَّا أني لم أكن بخير أبدًا طالما أنَّها ليست على ما يرام.

كما أنَّ خبرًا مُقلقًا آخر كان بانتظارنا قبل نهاية اليوم. إذْ لم يكن ڤيني ڤرانس يُطلع أيًّا منا عما يفعله في أفريقيا مؤخرًا، كما أنَّه قلل رسائله وتواصله تمامًا، بيد أنَّه لم يخبرنا عن سبب تخلفه عن حضور كأس العالم. إلَّا أنَّه في عشيَّة ذلك اليوم، تحديدًا في تمام الساعة الخامسة بتوقيت الكونغو السابعة بتوقيت روسيا، أي قبيل مباراتنا مع فرنسا بساعتين فقط، ظهر في بثّهِ المباشر الذي قام به من قلب الأدغال في أفريقيا، تحديدًا من أرض البانتو، من مكانٍ ما أمام الجبل المتهدمة أجزاؤه والمهدد بسقوط جزء كبير منه في أي وقت، وكان يطلب المساعدة.



في الوقت الذي شعرتْ فيه الأم چيني بالخطر يحدق في ڤرانس، وأصيبتْ بالهلع التام وهي تشاهده عبر قنوات التلفاز، إذْ أنَّها لم تكن تملك في حياتها شيئًا غيره، كان هو يتلقى رسائل من ملايين البشر الذين تعاطفوا معه ومع قصة شعوب البانتو، والآلاف منهم بدأوا يعرضون عليه مساعداتهم بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة.

بعد ساعتين، دلفتُ مع اللاعبين إلى ملعب زينيت أرينا، وكنتُ متوتِّر الأعصاب توتُّرًا شديدًا دفع تيري هنري مساعد المدرب روبيرتو مارتينيز أن يأتي إليَّ مرَّتين ويسألني إن كنتُ بخير وباستطاعتي خوض المباراة أم لا. إلَّا أني فضلتُ الصمت وعدم إخبارهم بأي شيءٍ مما يحدث في حياتي الخاصة.

بدأتْ المباراة التي كانت أصعب مبارياتنا على الإطلاق، ليس في كأس العالم 2018 فقط، إنما في مسيرتي الكروية بأكملها، فكما قلتُ مسبقًا، كرة القدم هي لعبة تعتمد على القوة الذهنية، وأنا في تلك الليلة لم يكن لديَّ ذهنٌ من الأساس، فقد كنتُ مُشتتًا طوال



الوقت. في الدقيقية الحادية والخمسين من عمر اللقاء، استطاع اللاعب صامويل أومتيتي تسجيل هدفٍ برأسية صاروخية أتته من ضربة ركنية، لتتقدم فرنسا بنتيجة 1-0 علينا، واستمرت النتيجة حتى نهاية المباراة. لنخرج بذلك من المنافسة على المركز الأول والحصول على الكأس ولننافس إنجلترا على المركزين الثالث والرابع.

* * *

أرض البانتو - يوليو 2018م

في صباح الثاني عشر من يوليو 2018م، كان اندفاع الماء قد تزايد بشكلٍ ملفتٍ للغاية، بعد أن تآكل جزء كبير من الجبل واتسعت الفتحة، مما تسبب في ارتفاع منسوب المياه في الأرض المنخفضة، وبدأت ترتفع بوتيرةٍ مُتسارعةٍ إلى أن وصلت إلى أطراف بيوت البانتو بالفعل. في هذه الأثناء، وجد الزعيم كوامي أنَّ لا مفر من مغادرة الجزيرة، فشرع وقومه في تجهيز أشيائهم مرة أخرى وأخيرة.



عندما تجمعوا وهمُّوا بمغادرة المنازل، انهمرت الأمطار فوقهم بغزارة شديدة. على الرَّغم من ذلك لم يتوقفوا، بل أسرعوا بحمل أشيائهم وتحركوا باتجاه الجبل بغيَة الهروب نحو جزيرة شاجي، إلَّا أنَّهم وقبل أن يبتعدوا مسافة مائة مترٍ عن بيوتهم فوجئوا بظهور وفدٍ كبيرٍ من السفارة الكندية، يرافقه مجموعة من الجنود الكنديين المدججين بالسلاح وهم يهبطون من بين الأشجار قادمين في اتجاههم. وبينما اعترتهم حالة من الخوف والقلق وبدأوا في التواري خلف الأشجار، فوجئوا بمجموعة أخرى قادمة من اتجاهٍ آخر، وكانوا وفدين من السفارتين البلجيكية والسعودية، قد أتوا لإجلاء ڤيني ڤرانس وعابد بعد أن علموا بشأنهم من محطات التلفاز والأخبار. وكان وفد السفارة الكندية قد تحرك لإنقاذ شاجي سبينسر لابروس، بطلبٍ من جدها السيد دانيال لابروس.

بينما حبس الجميع أنفاسهم متوترين، خائفين، لا يعلمون إلى أي شيءٍ ستؤول الأمور. اقتربت الوفود الثلاثة منهم، فخرج كل من ڤرانس وعابد وڤيني



ڤرانس إليهم، وشرعوا في التحدُّث معهم، حول إن كانوا قد أتوا لمساعدة شعوب البانتو وإصلاح السد من أجل إنقاذ أرضهم، أم أنهم أتوا من أجل شيءٍ آخر.

كان الزعيم كوامي واقفًا أمام شعبه، الجميع مبللون بالماء، متوارون خلف الأشجار، يحملون أشياءهم البدائية، مرتدين ملابسهم المصنوعة من الكتان وأوراق الشجر، وقد شعروا أن حياتهم وأسرارهم وأمانهم على المحك. ازداد توتر الزعيم ورجاله عندما صدح صوت شاجي وهي تتراجع خطواتٍ للخلف وتعترض على شيءٍ ما أخبرها به أحد من تحدثوا إليها من الكنديين، كذلك ڤرانس، تراجع هو الآخر للخلف بضع خطواتٍ شأنه شأنها.

قال ياو للزعيم بنبرة صوتٍ آسفة:

- لقد أتوا من أجل مساعدة رعاياهم وحدهم. إلَّا أنهم لن يتعرضوا لنا بأذى



بينما نظر الزعيم كوامي إلى شعبه متفحصًا إياهم واحدًا تلو الآخر وهو فى قمة الإحباط والحزن، وبدت في عينيه نظرةُ إحساسٍ بالضياع، كانت شاجي وقيني ڤرانس وعابد هم أيضًا ينظرون إلى بعضهم البعض نظراتٍ ذات مغزى وكأنهم يبحثون عن حلول بديلة. وسادت حالة ارتباكٍ وتوترٍ شديدةٌ في المكان، وبينما شرع كل جانبٍ من الوفود في استخدام هواتفهم والتواصل مع جهةٍ ما أعلى منهم، صدح صوتُ ضجيجٍ شديدٍ وهو يقترب. فالتفتَ الجميع إلى مصدر الصوت، وإذا بهم يفاجأون بظهور العشرات إن لم يكن المئات من أصحاب القبعات البنفسجية، الحرس الجمهوري الكونغولي، وقد أتوا بعدما تناهى إلى سمعهم أمر ما يحدث في هذا المكان النائي من أرضهم.

حالة من التوتر المشوب بالهلع انتشرتْ في المكان، تأهب الجنود الكنديون والبلجيكيون والسعوديون بسلاحهم تحسبًا لحدوث شيءٍ غير متوقع. تراجعتْ شاجي للخلف قليلًا في محاولةٍ منها للتقرب من



الزعيم كوامي وطمأنته بعدما بدا قلقًا للغاية على قومه، ولحق بها عابد وڤيني ڤرانس.

في هذه الأثناء، نظر قائد الحرس الجمهوري إلى ثلاثتهم وقد انفرجتْ أسارير وجهه بابتسامة تنم عن رضاه التام بما فعلوه. ثم تنحى من فوره قليلًا إلى الجانب وحذا جنوده حذوه، فظهرتْ من خلفهم جموع من البشر، رجالاً ونساءً، مختلفي الجنسيات والديانات وهم يقتربون حاملين بين أيديهم وفوق رؤوسِهم الطعام والملابس والأحذية وبعض الأغطية والأدوية إلى جانب بعض الألعاب من أجل شعوب البانتو وصغارهم. بيد أن مجموعات من المذيعين التابعين لعدة قنواتٍ عالمية حوطوا المكان وأخذوا يصورون كل ما يحدث.

حملقتْ شاجي بعينيها الخضراوان غير مصدقةٍ لما تراه، وانتقلتْ بعينيها بين عابد وڤيني ڤرانس وقد سالت الدموع من عينيها قبل أن تجثو على ركبتيها وتبكي من شدة إحساسها بالسعادة.

* * *

روسيا - يوليو 2018م

قبل غروب شمس الرابع عشر من يوليو، على استاد زينيت أرينا القائم في الجزء الغربي من جزيرة كريستوفسكي بمدينة سانت بطرسبرغ، تواجهنا مع المنتخب الإنجليزي وجهًا لوجه مرَّة أخرى، وكان ذلك بحضور السيدة أدولڤين التي تعافت تمامًا واستعادت بريقها مُجدَّدًا، كما حضر برفقتها السيد روجر جنبًا إلى جنب مع الأم أدولڤين التي اطمأنت على ڤيني ڤرانس هاتفيًا أكثر من مرة مؤخرًا، والذي أكد لها أنَّه بخير تمامًا وطالبها بألَّا تقلق عليه وأن تخبرني بأسفه الشديد عن تغيبه.

لم تكن مباراتنا هذه المرة صعبة كسابقتها، إذْ تمكن توماس منير من تسجيل هدفنا الأول في الدقيقة الرابعة من بداية اللقاء، وتمكنا من السيطرة على المباراة طوال الوقت، إلى أن أضاف إيدين هازارد

كابتن الفريق، هدفنا الثاني في الدقيقة الثانية والثمانين لتنتهي المباراة بنتجية 2-0 لصالح منتخبنا.

بعد المباراة، قام جياني إنفانتيونو رئيس الاتحاد الدولي لكرة القدم «فيفا»، بتسليم لاعبي المنتخب البلجيكي ميداليات المركز الثالث ببطولة كأس العالم. وبينما وقف اللاعبون يلتقطون الصور التذكارية، اختطفتُ ميدالتي وهرولتُ باتجاه أدولڤين التي نزلت من المدرجات ومن خلفها روجر والأم چيني، وما إنْ وصلتْ إليّ وضعتُ ميداليتي حول عنقها وأخبرتُها مُداعبًا أيّاها، لكن بإصرار تعرف جيدًا أنني أعنيه:

- ما يزال هناك كأسُ عالمٍ قادمة، وسوف أسجل في البرازيل من أجلك

فأطلقتْ العنان لضحكةٍ مُجَلجِلة اهتزَّ على إثرها استاد زينيت أرينا. في هذه اللحظة تحديدًا، وقعتْ عيناي على أحد أفراد بعثة الفريق، وقد كان واقفًا عند دائرة منتصف الملعب، حاملًا بين يديه علم بلجيكا، وكان عملاقًا. فهرولتْ باتجاهه، أخذتُه منه، ثم عدتُ مهرولًا



باتجاه جموع الجماهير البلجيكية، ومن خلفي هرولتْ بعثة الفريق بالكامل.

* * *

أرض البانتو - يوليو 2018م

قبيل غروب شمس الرابع عشر من يوليو، فوق تلةٍ متوسطة الارتفاع، وقفتْ شاجي جنبًا إلى جنب مع ڤيني ڤرانس، يُشاهدان قوات الحرس الجمهوري الكونغولية وهي تتابع القوات الهندسية من الجيش الكونغولي وهم ينتهون من إصلاح الفتحة المتهدمة من الجبل، وسط حضور كبير من القنوات التلفزيونية والإذاعات العالمية، أمّا عابد فقد وقف جنبًا إلى جنب مع من يصلحون السد. في هذه الأثناء، أعلنت الرئاسة الكونغولية أن شعوب البانتو هم جزء أصيل من بلادهم، ولهم جميع الحقوق شأنهم شأن بقية مواطني الكونغو. وأن الأرض المنخفضة ملكٌ لهم ولا يحق لأي جهةٍ أخرى أن تضايقهم فيها، وأن الزعيم كوامي هو

عمدة هذا المكان وله جميع الصلاحيات في إدارته كيفما شاء.

في هذه اللحظة، بدا في وجه شاجي شيءٌ من الحزن المشوب بالندم، فسألها ڤرانس عن السبب، فقالت:

- تمنيتُ لو أحقق وصيّة والدي، وأستطيع الوصول إلى تركيبة العلاج. لكن كل شيءٍ قد ضاع

نظر إليها نظرة ذات مغزى تنم عن أنَّه يخفي شيئًا ما عنها. وعندما نظرتْ إليه مُستغربة، أخبرها:

- في مساء تلك الليلة التي وصلنا فيها إلى هنا، وبعد أن حصلتِ على حقيبة والدكِ بما فيها من أبحاث، رأيتُ في وجهكِ سعادة غامرة، تمنيتُ لو أنَّها لا تفارقه أبدًا. لكن، عندما سمعتُ حديثكِ مع صديقكِ الكندي، شعرتُ بالارتياب، توجستُ خيفة من أن نفقد هذه الأبحاث

علقت شاجي:

- لذا ...

- لذاااااا .. أثناء الليل، وبعدما تأكدتُ من ذهابكِ في نومٍ عميق، أخذتُ الحقيبة من جوارك، وتسللتُ بها إلى ياو، ثم فتحتُ كشاف الهاتف وطلبتُ منه توجيهه على تلك الأوراق إلى جانب إضاءة القنديل المعلق على مشجب الحائط. وقمتُ بالتقاط الصور الواضحة تمامًا لكل صفحة من صفحات الأبحاث، وهي موجودة ومحفوظة في ذاكرة الكاميرا

على الرَّغم من سعادتها الشديدة، وموجات التحمس التي لم تستطع كبح جماحها، إلَّا أنها دفعتْه بقوة كبيرة أسقطتْه على أثرها في الأرض وقفزتْ فوقه وأخذتْ تضربه بكلتا يديها من شدة الغيظ كونه تركها كل هذه الفترة حزينة موقنة أن كل شيءٍ قد ضاع.

في هذه اللحظة، حضر أحد الجنود من ذوي القبعات البنفسجية، أخبرهما أن قائده يطلبهم. ومشى ومشيا من خلفه. وما إنْ وصلا إليه، شكرهما على ما فعلاه وما قدماه لشعوب البانتو. وأخبرهما أن الزعيم كوامي



لديه رغبة في أن يرفعا علم الكونغو بنفسيهما فوق الجبل.

لثوانٍ قليلة، نظرتْ شاجي وڤيني ڤرانس إلى بعضهما البعض غير مصدقين ما آلت إليه الأمور، وقد شعرا بالفخر الشديد من نفسيهما، ثم هرولا سويًا باتجاه قمة الجبل، وقاما برفع العلم والتلويح به عاليًا في وجه الزعيم كوامي وشعبه قبل أن يثبتاه أمامهم.

في هذه الأثناء، فوجئوا بجميع سكان أرض البانتو وقد انطلقوا باتجاه الشاطيء بما فيهم الزعيم كوامي. ثم خلعوا ملابسهم بالكامل وقفزوا في المياه عرايا تمامًا وأخذوا يطلقون صرخاتٍ احتفاليةً مدوية. أخبرهم ياو الذي كان قريبًا منهم قبل أن يلحق بمن سبقوه، أن هذا تقليدٌ مُتبع، واحتفالٌ يقومون به كلما حدث لهم شيءٌ جيد.

نظر ڤرانس وشاجي إلى بعضهما البعض نظرة ذات مغزى يتساءلان إن كان عليهما المشاركة في هذا الجنون أم لا. لم يتوانَ أيٌّ منهما في خلع ملابسه



بالكامل والانطلاق باتجاه المياه، والقفز فيها. إلَّا أنَّ شيئًا ما قد علق في أقدام شاجي بعد قفزها في المياه بدقيقةٍ واحدة، وعندما استغاثت بقرانس ذهب إليها من فوره، وأمسك بها ثم غطس في الماء بغيَة مساعدتها في نزع الشيء الذي علقث فيه. في هذه اللحظة، فوجئا بتوقف الصرخات، وعم سكونٌ غريب أرجاء المكان. بالنظر من حولهما، وجدا الزعيم كوامي وجميع من في الماء ينظرون إليهم في هلعٍ شديدٍ وكأنهما قد أتيا بجرمٍ مشهود أو أن مصيبةً ما قد حلت بهما.

غادر الزعيم كوامي المياه، واتبعه قومه جميعًا. بينما اقترب ياو منهما، وقال:

- أخبرتُكما مسبقًا، لا يحق لرجل أن ينظر إلى امرأة من غير أهله، ولا أنْ يلمسها، ومن يفعل ذلك، لابد وأن يتزوجها من فوره إنْ هي وافقث، وإنْ رفضث، تُقطع يد الرجل. وإن لم يحدث ذلك حلت اللعنة على الوادي ومن فيه



نظر ڤيني ڤرانس وشاجي إلى بعضهما البعض لثوانٍ قليلة، قبل أن يتعانقا عناقًا حميمًا طويلًا، في إشارةٍ منهما للخضوع لقوانين القبيلة.

* * *

أنتويرب - بعد أسبوعين

مع انتهاء كأس العالم، عدتُ إلى أنتويرب، ووصلتني دعوة من موقع ذا بلير تيربون (The Players‹ Tribune)، وهو منصة إعلامية مميزة وهادفة، إذْ تعتمد في محتواها على ما يسرده الرياضيون عن أنفسهم وبأنفسهم. عبروا في دعوتهم عن رغبتهم في استضافتي من أجل أن أقص عليهم شيئًا عن حياة روميلو لوكاكو. وها أنا ذا أجلسُ معك منذ ساعاتٍ طوال، حتى أني قصصتُ عليك حياتي بأكملها.

في هذه اللحظة، قهقه الرجل الجالس على كرسي أمام روميلو لوكاكو، وكانوا في غرفة تسجيلٍ صوتي يجلسون أمام ميكروفونٌ إذاعيٌ ، وفي الخلفية على



حوائط الغرفة، توجد ملصقات كُتب عليها مرحبًا بك في موقع ذا بلير تيربون.

ثم سأله الرجل مستفسرًا :

- أين ستذهبُ الآن؟

لبث روميلو هادئًا برهة وجيزة من الزمن، ثم لمعث عيناه لمعةً تنم عن رضا، وقال :

- طوال هذه السنوات، لم أنسَ وعدًا قطعتُه على نفسي للجدة مارلا، لذا سو ف أعودُ إليها، فربما هي في حاجةٍ لمساعدتي الآن

سأله الرجل مُستغربًا :

- لقد انقضتْ سنواتٌ طوال، فهل تعتقد أنَّها ستتذكرك؟

- ربما لا تتذكرني، لكني أتذكرها جيدًا

- ربما ماتت؟

- بالتأكيد لها أبناءٌ وأحفاد

قال الرجل وقد أعترته حالة من الإستغراب واضحة تمامًا على وجهه :

- لا أستطيعُ أن أفهمك!!

ردَّ روميلو بصوتٍ رتيب، قال :

- إذًا، لم تتعلم شيئًا من السيدة أدولڤين

- عندما كنتُ صغيرًا، علّمتني أدولڤين في السادسة من عمري بأنَّ (الإنسانية) دائمًا هي مُفتاح (السعادة، والنجاح، والحياة)، وعندما أصبحتُ طالبًا في المدرسة؛ سألوني ذات يوم ما الذي أحلم أن أصيره عندما أكبر؟ أجبتُ : (إنسانًا)، فأخبروني حينها أني لم أفهم السؤال جيدًا، وأخبرتُهم أنهم لم يفهموا (الحياة) كذلك.

ثم غادر روميلو موقع ذا بلير تيربون، وهو موقنٌ من أعماق قلبه أن الظلام مهما طال أمده، ستشرق من



بعده الشمس مُطلقةً أشعتها الذهبية في كل مكان، وتتفتحُ الأزهار بكل الألوان وتغرد العصافير وتبتهج الدُنيا من جديد إذا ما تدين الإنسان بإنسانيته وأيقن أن الجلد والعزيمة هما مفتاحا النجاح.

((تمَّت))

((الحمد لله))

المراجع

1 : جزء من السيرة الذاتية التي صرح بها اللاعب روميلو لوكاكو لموقع «ذا بلير تيربون» (The Players› Tribune).

2 : كتاب (الأيدي الموهوبة -gifted hands) وهو السيرة الذاتية لطبيب المخ والأعصاب (بنجامين سولومان كارسون) .

3 : كتاب: (9 خطوات لنيل الحياة التي تحبها - 9 Steps to Living the Life You Love). وهو جزء من السيرة الذاتية لرائدة مجال تطوير الذات (ليزا نيكولز).

4 : كتاب : (بين صخرة ومكان صعب - Between a Rock and a Hard Place)، وهو سيرة ذاتية للمتحدث التحفيزي (أرون رالستون).

5: كتاب : (live your dreams– عش أحلامك)، وهو السيرة الذاتية للكاتب والمتحدث التحفيزي (لس



براون).

6 : كتاب : (إتقن عقلك، وتحدي الصعاب Can›t- Hurt Me: Master Your Mind and Defy the Odds) للمتحدث التحفيزي والكاتب (ديفيد غوغينز).

8 : خرائط جوجل، برنامج جوجل أيرث.

للتواصل مع الكاتب

: Face book

Ahmef f. jibril

: Email

Writer-jibril@hotmail.com



info@noonpublishing.net

01127772007 -02-338560372

للتواصل مع الكاتب

: Face book

Ahmef f. jibril

: Email

Writer-jibril@hotmail.com



info@noonpublishing.net

01127772007 -02-338560372

للتواصل مع الكاتب

: Face book

Ahmef f. jibril

: Email

Writer-jibril@hotmail.com



info@noonpublishing.net

01127772007 -02-338560372

للتواصل مع الكاتب

: Face book

Ahmef f. jibril

: Email

Writer-jibril@hotmail.com



info@noonpublishing.net

01127772007 -02-338560372